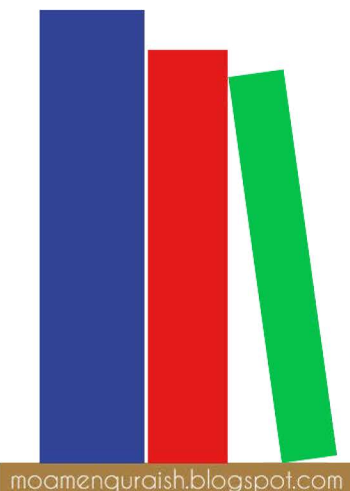
مذكرات
هوسيه أرنولد السويسري
المشرف على ضيافة قصور
الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
١٩٥٦ - ١٩٦٢م



الدار العربية للموسوعات



مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع ايمان أبي طالب في كفة ميزان وايمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح ايمانه .

الإمام الصادق (ع)

مذكرات
هوسيه أرنولد السويسري
المشرف على ضيافة قصور
الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود

١٩٥٦ - ١٩٦٢م

اسم الكتاب: مذكرات هوسيه أرنولد السويسري

المؤلف: هوسيه أرنولد

الطبعة الأولى: ٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

ISBN 978-614-424-223-0



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني - KHALED AL ANI

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مذكرات
هوسيه أرنولد السويسري
المشرف على ضيافة قصور
الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
١٩٥٦ - ١٩٦٢م

تأليف

هوسيه أرنولد

الدار العربية للموسوعات
بيروت

العنوان الأصلي:

سيوفٌ من ذهب

وأوانٍ مطبخيّة

هوسيه أرنولد

(ملاحظة من المترجمة: كتبتُها بحرف الهاء لأنّ حرف ز بالإسبانيّة يُلفظ هكذا)

ترجمة: رنـا الصيفي

برزان المحدودة للنشر

لندن – بيروت

الطبعة الاولى ٢٠١٤



برزان المحدودة للنشر
لندن – بيروت

Lebanon
Haret Sakher main road
FAP Building - 3rd floor
PO Box 29- Jounieh
Tel/Fax : 00961 9 646453

United Kingdom
Windrush Millennium centre
Alexandra Road – M16 7WD
Manchester
Tel/Fax : + 441614453842

E-mail: info@barzanbooks.com
Website: www.barzanbooks.com (E-Commerce)
www.barzanpublishing .com (News &Review)

ISBN : 9953-472-15-X



المحتوى

سيوفٌ من ذهب

وأوانٍ مطبخيّة

الفصل ١

طبقٌ للملك

لشدّة قيظ الصحراء ورطوبتها في شهر سبتمبر، تحوّلت جدّة مرفأ المملكة العربيّة السعوديّة على البحر الأحمر إلى أرضٍ رطبةٍ ووسخةٍ وحارّةٍ ملأى بحميرٍ وإبلٍ وأغنامٍ ومِعازٍ وناس.

فيما جلستُ في مكتب ممثّل الشركة العربيّة الأمريكيّة للنفط (أرامكو) أنتظر متوتّراً مفترق الطرق التالي في حياتي - هي التي عرفت الكثير من المفترقات - أخذتُ أتصبّب عرقاً، وأخذتْ بذّتي المكويّة تتهدّل سريعًا.

فجأةً، علا صوتُ محرّكِ سيارةٍ هادرٍ ببوقها المِلحاح ليكتم تنافرَ أصواتِ النهيقِ والثُغاءِ ونداءات بائع متجوّل. نظرتُ عبر الوسخ اللصيق الذي يغطّي النافذة، ورأيتُ سيّارة كاديلاك تكبح خارجاً. كانت قرمزيّة اللون، قويّة الدفع، يقودها صحراويٌ متهوّرٌ بارز الأسنان ومسمّر السحنة. ترجّل الرجل السمين إلى جانبه من الباب الأمامي للسيّارة وانبرى يكلّم البوّاب في محادثة مقتضبة مشحونة. دخل البوّاب، وهو حاجب ومِرسال وقور، وسألني بإنجليزيّة متقطّعة ما إذا كنتُ السيد أرنولد. بما أنّ القيظ الثقيل عكّر مزاجي أقصى تعكير، شعرتُ للحظةٍ من لحظات يقظتي بدافعٍ قويّ إلى إنكار هويّتي. لكن، أومأتُ برأسي إيجاباً.

أشار عليّ البوّاب أن أرافقه إلى الخارج. أمّا الرجل السمين، بثوبه الذي التصق بجسمه بعد أن كان فضفاضاً أبيض، فعرّف بنفسه على أنّه ترجماني، قال: "جئنا لاصطحابك إلى القصر. سيراك صاحب الجلالة الآن". فيما فتح باب السيّارة لي، أدار نظره فيَّ بفضولٍ فاضح، وابتسم لانزعاجي. قعدتُ على مهلٍ على المقعد الجلدي الحارّ. واندسّ الترجمان إلى جانبي. وَثَبَ بنا المحرّك الهادر، وتوجّهنا نحو أطراف جدّة إلى القصر الجديد لجلالة الملك سعود بن عبدالعزيز، ملك المملكة العربيّة السعوديّة وعاهلها وخادم الحرمَين الشريفَين.

اندفعتِ السيّارةُ في الشوارعِ المكسوّة قمامةً في الجزء القديم من جدّة، وكادت تُسقط عدداً من المارّة ودوابهم الطائشة. تدفّق تيّارٌ من ذرّات الرمل الناعم عبر نافذة السائق نصف المفتوحة، الذي ثار كدوّامة بفعل النشاط الجنوني على طريقنا. تغلغلتْ الذرّات في شعري، وسقطتْ على بذّتي مُشكّلةً كُثباناً مصغّرة عند كلّ ثنية، وفكّرتُبما سيكون عليه منظري عندما أقابل الملك. في انزعاجي، تساءلتُ - وليس للمرّة الأخيرة - لمَ وافقتُ على تعييني مُشرفاً على خدمات الضيافة لدى الملك سعود.

أيّام شبابي في سويسرا، كان أكثر آمالي تفاؤلاً هو أن أصبح يوماً ما قهرماناً في إحدى المؤسّسات الجيّدة في بلدتي زوريخ أو ربّما في لوسرن. بالتحضير لذاك الدور، صرفتُ ثلاث سنينٍ من تدرّبي أعمل مساعدَ نادلٍ، ونادلاً في عددٍ من الفنادق السويسريّة. وإذْ مللتُ من توقّع الإمكانيّات المجهولة لخدمة الطاولات، سلّمتُ مناديلي لقاء مساعٍ واعدةٍ أكثر. هاجرتُ إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة، وهناك، بعد أن صمدتُ إزاء الكساد الكبير عام ١٩٢٩ والخدمة في الأسطول التجاري في خلال الحرب العالميّة الثانية، كنتُ عازماً على السعي وراء شيءٍ أقل إيلاماً. فكّرتُ أنّ بقعةً هادئةً في الصحراء ستشكّل الإطار الأمثل لذلك. فقبلتُ عام ١٩٤٧ تولّي منصبٍ مع الشركة العربيّة الأمريكيّة للنفط، وانطلقتُ إلى المملكة العربيّة السعوديّة حيث وضعتُ تدريبي السابق موضع التنفيذ بالعمل مُشرفاً على مطعم الشركة في الظهران.

كانت الشركة العربيّة الأمريكيّة للنفط (أرامكو) تعمل في المملكة العربيّة السعوديّة منذ عام ١٩٣٣، عندما مُنحت امتيازاً حصريّاً للتنقيب عن النفط على مدى فترة طويلة من ذاك القرن. في الأساس، كان ذلك مسعىً خاصاً من شركة النفط النموذجيّة - كاليفورنيا التي أصبحت "تيكساكو إنك" شريكةً فيها عام ١٩٣٦، واندمجت الشركتان من ثمّ مع شركة النفط النموذجيّة - نيو دجرسي وشركة سوكوني موبيل للنفط عام ١٩٤٨. بعد مرور أرامكو في فترة من الركود إلى حدٍّ ما في خلال الحرب العالميّة الثانية، شرعتْ في تطبيق برنامجٍ توسّعي وأصبحت اليوم من كبريات شركات النفط في العالم، حيث يقرب إنتاجها من مليون ونصف المليون برميل في اليوم.

يتركّز نشاط أرامكو الأساسي في المنطقة الشرقيّة من السعوديّة، ويقع مقرّها الرئيسي في الظهران، بالقرب من الدمّام، عاصمة تلك المنطقة والمطلّة على الخليج العربي. تُدار أنشطة إنتاج النفط من بلدة بقيق الصحراويّة، الواقعة على بعد نحو ٦٤ كيلومتراً جنوب الظهران. وتقع مرافق أرامكو للتكرير والشحن في رأس تنّورة على الخليج العربي، على بعد نحو ٦٤ كيلومتراً شمال الظهران. وهاتان البلدتان من إنشاء أرامكو، يستوطنهما موظّفون أمريكيّون وعائلاتهم في تجمّعات مسيّجة، مستقلّة وفخمة، بعيداً من الصحراء وأهلها. فيما يترفّع موظّفو أرامكو السعوديّون إلى مناصب مرموقة فيها، يُدعَون إلى السكن في المجمّع الأمريكي. وإلاّ، فإنّهم يعيشون في تجمّعات منفصلة من إنشاء الشركة، أو في القرى العربيّة المجاورة. أمّا الموظّفون الأجانب من غير الأمريكيّين، فيُقيمون في تجمّع منفصل آخر، من إنشاء الشركة كذلك. لذا، في كلٍّ من مستوطنات أرامكو الثلاث، أُنشئت ثلاثُ قرىً منفصلة: واحدة للأمريكيّين، واحدة للموظّفين الأجانب، وواحدة للسعوديّين، بترتيب تنازلي بحسب المكانة الوظيفيّة. ولتشجيع فكرة حركة العمالة التصاعديّة وتفادي التحديد العِرقي، عيّنت الشركة إسماً لكلّ مخيّم: "كبار الموظّفين"، و"الوسطاء"، و"العامّون".

كنتُ أحد الأمريكيّين الستة آلاف الموجودين في السعوديّة من بين موظّفي أرامكو وعائلاتهم.

عام ١٩٥٠، عُيّنتُ رئيس مخيّم على طاقم من العمّال الذين كانوا يُشيّدون جزءاً من السكّة الحديديّة المَلكيّة بين الرياض، عاصمة السعوديّة، ومقرّ أرامكو في الظهران. كان زملائي في المخيّم مهندسي بناء أمريكيّين. متى شرعوا في العمل، قلّ كلامهم لِما كانت الهندسة تحمله من أخطار مهنيّة. مع ذلك، كانوا ودودين، واقتصر نشاطهم الاجتماعي على لَعِبِ البوكر.

كان مخيّمنا ذرّة في صحراء شاسعة امتّدت بلا انقطاع على مسافة نحو ٨٠ كيلومتراً في كلّ الاتّجاهات، وبما أنّ همّي الأساسي كان إبقاء الرمل خارج طبق يخنتي، كانت الحياة بسيطةً نسبيّاً. إلى جانب المهندسين الأمريكيّين لاعبي البوكر، كان لدينا طاقمٌ من تسعةِ موظّفين إيطاليّين متوسّطي المهارات من إثيوبيا، وألف عامل سعودي. عاش الأمريكيّون والإيطاليّون في مقطورات السكّة الحديديّة التي أُعدّت للسكن في حرّ الصحراء الذي كان يبلغ ٥١ درجة مئويّة، عبر تكييفها بالهواء البارد الذي، مع ذلك، لم يكن يعمل بإنتظام. عاش السعوديّون في

خِيَمٍ نصبوها عشوائيّاً على الرمال. كان المطبخ وغرفة الطعام عبارة عن مقطورتَين مزدوجتَين استخدمهما الأمريكيّون والإيطاليّون، فيما طبخ السعوديّون وجباتهم الخاصّة على مواقد نار أشعلوها خارج خِيَمهم. وجاءت مقطورتان إضافيّتان لتكمّلا مبانينا المتواضعة: واحدة لاحتواء معدّات البناء المحمولة التي كانت تختفي ما لم تُوصد كلّ ليلة، وواحدة لتخزين الطعام والمؤن الطبيّة التي كانت شركة النفط توفّرها دوريّاً.

كان لي حظوة الرفاهيّة بالحصول على مقطورة خاصّة شكّلت مكتب المخيّم أيضاً. كان فيها جهازٌ لاسلكي لِبثّ الرسائل وتلقّيها، وكان صِلتنا الوحيدة بكلّ ما يشبه التحضّر. كنّا نتلقّى يوميّاً رسائل عبره من مقرّ الظهران وكنتُ أُعدّ تقريراً يوميّاً بتطوّر الأعمال؛ ، مواجِهاً صعوبةً في استرجاع ما يمكن ذكره في التقرير، وكأنّني شخصٌ مملّ في كرسي الاعتراف.

فجأةً، اجتاح العالم الخارجي "مخبأ هوسيه"- كما كان طرفاء الظهران يسمّون مخيّمنا - وجاء الاجتياح في رسالة من مقرّ أرامكو. تفرقع الصوت من الجهاز مخترقاً كلّ تشويش، مُعلناً، ومكرّراً الإعلان للتشديد على إلحاحه:

"هوسيه، سيمرّ وليّ العهد وحاشيته بمخيّمك لتناول الغداء في طريق عودتهم إلى الرياض بعد غد. هم في رحلة صيد، ويسافرون في باصات، وينوون العودة إلى الرياض بعد الغداء بوقتٍ قصير. عليك تدبير مكان يرتاح فيه ولي العهد بعد تناوله الطعام. أستحتاج إلى شيء من عندنا؟".

أوَ سأحتاج إلى شيء من عندهم؟ بما أنّ السؤال جاء مباشرةً من لجنة تنفيذيّة، فماذا لو جاؤوني بقاعة ولائم؟ أو ربّما بغرفة نومٍ ملكيّة؟ أجبتُ بأنّه لدينا ما يكفي من الطعام، وقطعتُ الاتّصال من دون أن أبدي رأيي بحماقة تلك المحاولة في استضافة فردٍ من العائلة المالكة في مخيّمِ بناء. تحوّل المهندسون لِتوّهم مستشارين متطوّعين في الشؤون الملكيّة، وتفوّهوا وكأنّهم واحد، بتسمية عاجلة لهذا التحضير الجنوني، فدعوها "العمليّة المرتجلة" (أُعيد التداول لاحقاً بالتّسمية لتصبح "عمليّة الريّ"بعد أنّ حُظّرت المشروبات الكحوليّة في السعوديّة عام ١٩٥٣، وتحوّل كلّ منزل أمريكي في مجمّعات السكن التابعة لأرامكو إلى قطّارة كحول).

كانت حجرة الطعام لدينا مقطورة مبرّدة بالمكيّف، يتوسّطها صفٌّ من طاولات الورق، وتحوي تشكيلةً من الكراسي القابلة للطيّ بحالاتٍ متفاوتة للتصليح، وعدداً كبيراً من رسوم عتيقة لفتيات "Varga" مُلصقة إلى الجدران. يوم زيارة سموّ الأمير، سقطت الفتيات من على الجدران رغم توسّل المهندسين المُصرّين على إبقائها. (اختفت الصور بغموض من سلّة المهملات وأخذت تظهر من جديد بعد أسابيع داخل خِيَم العمّال السعوديّين). غطّيتُ طاولات الورق بشراشف السرير وتوكّلتُ على الله كيلا تنخلع الكراسي تحت وزن المَلكيّة. وللتخفيف من قذارة المحيط المروّعة الصارخة، التقطتُ كرةً من الشوك في الصحراء ووضعتها قبالة المكان المخصّص لجلوس وليّ العهد، ثمّ صنعتُ من قطع المناديل الورقيّة الملوّنة ما يشبه الورد وعلّقتها على أغصان الكرة الشوكيّة، تراجعتُ عنها لئلّا تُحوِّل سيجارتي هذا الإبداع المُرتَجل إلى نار مُستَعِرة.

قبل نحو ساعة من الموعد المحدّد لوصول ضيوفنا، لمحنا شاحنةً تظهر من وسط غبار الرمال، مسرعةً عبر الكثبان، كانت محمّلةً بالحرس الشخصيّين ورجال الشرطة الحكوميّة. جاءت لتكشف على المخيّم وَتُقصّي وجود أيّ قتلة محتملين. (كان ملك الأردن عبدالله الأوّل قد اغتيل قبل أسابيع فقط، وبما أنّه والملك عبدالعزيز آل سعود قد تبادلا قَسم الولاء قُبيل الاغتيال بفترة وجيزة، خَشِيَ ملك السعوديّة وعائلته أن يكون هو التالي على القائمة. ونتيجة ذلك، أُخذت تدابير حماية إضافيّة له ولأبنائه حتّى في وِسْط الصحراء). وبعد أن اقتنع الحرس بأنّنا لا نأوي ما يُنذر بالشرّ أكثر من الطاهي السوداني وسكاكينه التي أحصوها، رحلوا لكي يعلنوا أنّ المكان آمن.

بما أنّ جناحي كان المكان الوحيد في المخيّم بأسره الذي يحوي سريراً كبيراً، فرّغتُ كلّ أغراضي الشخصيّة من مقطورة نومي لإعدادها لقيلولة الملك. كنتُ قد واكبتُ الطاهي في تحضير الطعام بتفاصيله خطوةً خطوة، باستثناء المقبّلات، التي قرّرتُ إعدادها بنفسي. كان لحم الخنزير ولحم الدجاج المثلّجان، نوعَي اللحم الوحيدين لدينا في حينه. وللطبق الأساسي، نويتُ تقديم طبقٍ أجدتُ إعداده لسنين، هو "تشِكِن كاشياتوريه" (يُصنع من الدجاج والطماطم والفطر والبصل والأعشاب). بدا لي أنّ جهوزيّتنا للزيارة الملكيّة كانت رهنَ ما

سمحت به الأحوال الخاصّة، إلى أن أشار أحد مستشاريَّ المتطوّعين إلى أنّنا قد أغفلنا مسألة حسّاسة.

كان المهندسون يتبجّجون بقدرتهم على التكيّف في أكثر ظروف الحياة الصحراويّة شدّة. في العادة، كانت دورات المياه في مخيّم صحراوي عبارة عن أيّ بقعة في الصحراء، بعيدة بُعد المسافة التي يُمكن للمرء اجتيازها، وواقعة في أيّ اتّجاه من الاتّجاهات. بالنسبة إلى مهندسٍ واعٍ، عَنَى ذلك هدراً للوقت واجتياز مسافة طويلة مشياً. لذا، بداعي الفعاليّة، كان المهندسون قد عملوا على نقل مرحاض كبير على مسافة ٢٤٠ كيلومتراً من الظهران، ونصبوه في مهبّ ريح المخيّم. كان المرحاض بمقاعده الثلاثة حلًّا لمشكلتنا، لكنّه كان أبعد ما يكون عن الذوق، ويشبه دورات المياه الخارجيّة الأمريكيّة القديمة المصنوعة من حاويات الشحن الخشبيّة. في محاولةٍ جاءت وليدةَ اليأس، رشَشتُ داخل المرحاض بآخر قنينة لديّ من مرطّب بعد الحلاقة، ووهب المهندسون عطور الحلاقة لديهم فداء القضيّة. كانت النتيجة: أفظع حمّام خارجي في العالم، لكن أكثره عبقاً.

وصل وليّ العهد وحاشيته من أربعة وعشرين فرداً وحرّاسه وجنده، في ثلاثة باصاتٍ مكيّفة جميلة التجهيز. بصفتي رئيس المخيّم، وأقرب بالتالي ما يكون لمسؤول تنفيذي في المحيط، رحّبتُ بهم في المخيّم. كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها وليّ العهد وتأثّرت بما رأيت. كان ممشوق القامة وقويّ البنية، متأنّي الخطى مهيب المشية. كانت ملامحه القويّة المتغضّنة، التي توسّطها شارب عريض ولحية قصيرة مستدقّة الطرف، ترقّ بسرعة لدى ابتسامه عند إلقاء التحية. موّهت نظّارته السميكة بإطارها الحديدي حُنوَّ عينيه الداكنتين الواسعتين. ورغم افتقاره إلى التدريب أو التربية الرّسميّين، كان على قدر مقام منصبه كَخليفة على العرش. صافحني مصافحة قويّة صادقة وعبّر عن تقديره لضيافتنا فيما أرشدتُه وحاشيته إلى حجرة الطعام.

لتقديم الطعام، جنّدتُ اليد العاملة الإيطاليّة في المخيّم، فيما أدرتُ تحرّكات العاملين كرئيس نُدُل، واضّطلعتُ بدورٍ ثنائي كمضيف وخادم. بدا أنّ الوجبة كانت مُرضِية. ولاحظتُ أنّ وليّ العهد يحدّق عن قصد إلى كرة الشوك المموّهة. أخيراً، أشّر لي لكي أدنو منه وقال بالعربيّة:

"من أيّ بلد استوردت هذاالزهر؟"، وكما خمّنتُ من نظّارته السميكة، كان بصره ضعيفاً وخال أنّ قطعة الديكور تلك، باقة طبيعيّة بهيّة. شرحتُ له أنّني صنعتها من كرة شوك في الصحراء ومن بعض قصاصات الورق. وعليه قال: "عليك أن تُظهر لخدمي كيف تصنع شيئاً كهذا لكي أرى زهراً أينما حللتُ". التفتَ من ثمّ إلى أحد أعوانه لمناقشته في أمر الباقة، وارتحلتُ مع خيالي أتصوّر نفسي وأنا أعطي دروساً في صنع باقات منسّقة لخدم سعوديّين.

بعد أن أنهى الضيوف تناول الغداء، أرشدتهم إلى جناحي حيث قُدّمت إليهم القهوة العربيّة المغليّة المُرّة بطعم الهيل، والتي من شأنها أن تُشعر كلّ متذوّق للشاي، انه عديم الخبرة تماماً. كان خدم وليّ العهد قد أعدّوها على موقدٍ أشعلوه في الخارج، وسُكبت في فناجين بحجم كشتبان كبير، تُدعى فناجيل، ليشربها وليّ العهد سعود وحاشيته في عربة السكّة الحديديّة. جال الخدم في المقطورة، يسكبون بامتهانٍ في الفناجيل سيلاً رفيعاً من القهوة التي تدفّقت من المزاريب الأنيقة للدِلال النحاسيّة الكبيرة. بعد طقس تقديم القهوة، الذي استمرّ لجولاتٍ ثلاث كاملة، استلقى وليّ العهد سعود على سريري ليرتاح؛ افترش الباقون ظلّ الباصات والمقطورات طلباً للبرودة في انتظار أن يستفيق سمّوه. كانت شمس الظهيرة قد حوّلت الباصات إلى حمّامات تركيّة؛ وكانت المكيّفات تعمل عند إدارة المحرّك فقط. احاق رجال الشرطة والحرس بمقطورتي للحرص على عدم إقلاق راحة شاغلها.

عندما استفاق وليّ العهد، أدّى واجب صلاة العصر في الخارج على بقعة ظليلة من الرمل، ثمّ دعاني وحاشيته، والمهندسين إلى مقطورتي. أخذ البُهلول لديه يقوم بحركات هزليّة أضحكت السعوديّين أشدّ الضحك. لم يكن أمام الباقين منّا، غير المدركين لما كان يحصل، إلاّ تبادل النظرات بابتسامات واعية متعجّبة. ونِعمَ التشِكِن كاشياتوريه!

اختفت بسمتي على الفور عندما طلب وليّ العهد فجأةً بعض الدواء، قائلاً إنّه يشعر بتوعّك في معدته.

أسرعتُ إلى مقطورة التخزين للتحقّق من الموجودات في المؤن الطبيّة، لكن لم يكن من أثر لبيكربونات الصودا أو أيّ علاج آخر بين عشرات القناني تلك. غاب يومها المهندس المسؤول عن وصف الأدوية. ومع أنّه كان قد وضع تسمية لكلّ قنّينة، فقد كانت اختصارات طبيّة يعرفها

وحده. لم أتمكّن من تحديد ولو قنّينة أسبيرين. وبداعي اليأس، انتهى بي الأمر إلى تذوّق حبّة كان طعمها كطعم الأسبيرين. كنتُ مقتنعاً أنّها أسبيرين، لكن لئلّا أكون على خطأ، أذبتُ حبّتين في كوب ماء وشربت المزيج قبل أن أُعدّ جرعة لوليّ العهد. كنتُ عازماً على تغييب نفسي إذا ما كنت قد ارتكبتُ خطأً مميتاً، فلا أضطرّ بالتالي إلى الإجابة عن أسئلة حول ما جرى لوليّ العهد. بدا أنّني لم أعانِ من أيّ تأثيرات مَرَضيّة، لذا حملتُ ترياقي إلى المريض الذي تجرّع المزيج من دون أن يسألني - لحسن الحظّ عن محتوى الكوب وتجشّأ بارتياح وابتسم. حاولتُ اصطناع ابتسامة أيضاً لأدرك في تلك اللحظة أنّ وخزاً أخذ يسري في خدّي الأيمن. لم أدرِ ما إذا كان التوتّر أو الدواء هو السبب. تساءلتُ للحظة ما الذي قد يحدث إذا مات وليّ العهد قبلي. وفي الوقت نفسه، رسمتُ علامة استفهام حول التدابير الاحترازيّة التي شهدناها منذ قليل والتي تقضي بمسح مخيّم في صحراء نائية مسحاً دقيقاً وإبعاد احتمال وجود قتلة، في ولكنّها تسمَح لغريبٍ مثلي أن يُعدّ دواءً لسموّه.

فجأةً انقطعت تأمّلاتي الملتبسة عندما أعلن الملك أنّه مستعدّ للعودة إلى الرياض. دعاني والمهندسين إلى التقدّم منه، وقدّم أحد خدمه لكلٍ منّا ساعة يد من ذهب. فيما وُزّع علينا هذا السخاء، وصلت شاحنة محمّلة بأغنام كهديّة لطاقم السعوديّين في المخيّم.

كان سائقو الباصات قد أداروا المحرّكات من قبل لكي تشتغل المكيّفات وتكون العربات مبرّدة كما يجب. وفيما كان وليّ العهد سعود على وشك ركوب باصه، كلّم أحد حرسه بإيجاز، فأسرع هذا الأخير إليّ وسألني بالعربيّة: "يسأل سموّ الأمير إذا كان لديكم دورة مياه".

"هناك"، قلتها وأنا أشير إلى مِرفقنا البائس مضيفاً بما لا يلزم: "هو مناسب، لكنّه يفتقر إلى الفخامة".

فيما توجّه وليّ العهد ناحية دورة المياه، أسرع جُنده إلى التمركز حيث يجب، ليشكّلوا لوحة غريبة من خمسين حارساً ملكيّاً حول دورة مياه. اقترب أحد المهندسين منّي وهمس بثقة: "أعتقد أنّ ذاك يجعل من دورة المياه دورة ملكيّةً".

خرج وليّ العهد، وهو يبتسم متهكّماً. تقدّم من أحد أفراد حاشيته، همس في أذنه، رفع ثلاثةً من أصابعه وابتسم ابتسامة عريضة. هزّ الرجل رأسه مستغرباً، هرع إلى دورة المياه، فتح بابها، ونظر إلى الداخل. رجع بسرعة، التفت إلى وليّ العهد، وانفجر كلاهما ضحكاً.

فيما ابتعدتُ الباصات عن مرآنا، فكّرت: "أقلّه سيموت باسماً". وتوجّهت إلى المطبخ كي أمزّق وصفتي للتشِكِن كاشياتوريه.

ارتكبتُ خطأً في القول إنّ طبق المقبّلات من تخصّصي. وعلى مدى الأيّام القليلة التالية، راح المهندسون يمازحونني بتكرار مملّ أنّه الأجدر بي، في ضوء ردّ فعل وليّ العهد، أن أرحل لأجرّب أطباقي الخاصّة في صحراء أخرى. وإذا بنداء يَرِدُ عبر الجهاز من مقرّ الظهران: "كرمى الله يا هوسيه! ماذا أطعمتَ وليّ العهد ذاك اليوم؟".

أخذ قلبي يخفق مثلَ طبلٍ فيما عبرتْ ذهني سلسلةٌ من الاحتمالات المروّعة. لا بدّ من أنّ وليّ العهد قد أصيب بالمرض الشديد! لا يعقل أن يكون قد مات! هل سأُرحَّل أم أنّ رأسي سيُقطع؟

سألتُ: "ل-ل-ل-لماذا؟ هل من خطب؟".

"طلب وليّ العهد إلى أرامكو إرسالك إلى قصره في الرياض كي تُظهر لطُهاته كيفيّة إعداد الوجبة التي حضّرتها يوم زار مخيّم البناء. وعدناه بأنّ سائقاً سيقلّك إلى الرياض غداً في شاحنة صحراويّة".

لو لم أكن تحت تأثير الصدمة مترقّباً حدوث كارثة، لكنتُ هلّلتُ لهذا الإنجاز. لكن، تمتمتُ فقط قائلاً إنّني سأذهب، مُطفئاً الجهاز بحركة لا واعية من دون قول المزيد.

بعد أن تعافيتُ من الصدمة، أعلنتُ عن الخبر بغرورٍ إلى المهندسين في أثناء العشاء وتراخيتُ في مقعدي منتظراً اعتذاراتهم المتواضعة. لكن، أخذوا يُغيظونني بقولهم إنّ وليّ العهد يستضيف على الأرجح شخصاً لا يروق له، لذا أرسل بطلبي لإعداد وجبة سيّئة له.

في اليوم التالي، اتّخذتُ وسائقي الرياضَ وجهةً لنا، عابرين صحراء الرمال الحارّة التي لا تكشف للناظر درباً. سار السائق بخبرته على حافّات بقع الرمال الرخوة لئلا نعلق فيها. مع هذا،

لو كُنتُ شيئاً، لوَجَبَ نفضي نفضاً شديداً قبل أن أكون لائق المظهر بما يكفي لتقديم نفسي في مطبخ قصر وليّ العهد بالناصريّة الواقع في جنوب الرياض.

اصطفّ طهاةٌ أوروبيّون قبالة طناجر تعالى منها البخار. يحرّكون محتوياتها التي لا تفتح الشهيّة والتي نكّهها بين الحين والحين الرماد المتساقط من سجائرهم.

رجموني بنظراتهم. من الواضح إذاً أنّهم سبق أن أُعلموا بهدف زيارتي، التي فسّروها منطقيّاً على أنّها انتقاد فظّ لعملهم. مع ذلك، التزمتُ القيام بمهمّتي، مُظهراً لهم كيفيّة إعداد طبق الدجاج. وأنهيتُ استعراضي البسيط بفخرِ إعداد دجاجة كاملة بيديّ لوجبة عشاء وليّ العهد ذاك المساء، إذ كان الطعام المنتظم عبارة عن طبق الأرزّ بلحم الخروف.

كان وليّ العهد يستقبل أصدقاءً له في حديقة القصر. حملتُ إليه الطبق بنفسي، سِرتُ من المطبخ إلى الحديقة. وكانت دربي محفوفة بالرعب. تراءى لي أشخاصٌ يتحرّكون خلف كلّ شجرة نخيل، وكلّ شُجيرة. تبيّن أنّني لم أكن أتخيّل. فيما دنوت من طاولة وليّ العهد سعود، رأيتُ قبالتي وإلى يمين الممرّ، سبطانة بندقيّة تتحرّك مدار جذع شجرة نخيل تتهدّدني وتتابع تحرّكاتي خطوةً خطوة. أدركتُ أنّ الحديقة بأكملها كانت ترسانة جُهّزت لحماية وليّ العهد. فكّرت من جديد بمخيّم البناء وبالأسبيرين. ها أنذا مجدّداً، أسلكُ درباً بسيطة في حياتي قد تؤول إلى كارثة، لكن هذه المرّة، لم أكن قد تناولت من الدجاج الذي أوشك على تقديمه إلى وليّ العهد.

عندما لُحت أمام الأمير سعود، ابتسم، وأومأ إليّ برأسه إشارةً إلى معرفتي. كان عليّ القيام برحلات عدّة بين المطبخ والحديقة، وكان واضحاً أنّني شكّلتُ محور انتباه عسكري في كلّ لحظة. لكن، تبدّد قلقي للوقت الحاضر، ولوجود الأمن المحيط، أخذتُ أستمتع بذاك الإطار الأوبرالي الهزليّ. ولم أكن لأتفاجأ لو قفزتْ على غفلة جوقة كاملة من بين تعريشات الورود تُغنّي بنسخة عربيّة نشيد الجنود الملكيّين!

بعد أن انتهى وليّ العهد من تناول الطعام، لوّح لي بيده، وأرشدني إلى مقعد على العشب، مشيراً إلى مجالسته، ثمّ، توجّه إلى ترجمان كان يتربّع على العشب عند أقدامنا. قال لي الترجمان: "يودّ سموّ الأمير أن تبقى هنا وتواصل الطهو له". برق في ذهني مشهد الاستقبال الذي

حيّتني به عشيرة الطهاة، ولم أتردّد في إعطاء إجابتي، رغم أنّ التربّع على عرش مطبخ ملكيّ فكرة خياليّة مذهلة. مع أنّني كنت أتحدّث العربيّة، لم أشعر بالارتياح في إجراء حديث رسمي بها مع وليّ العهد، فأجبتُ بالإنجليزيّة.

قلتُ: "أرجو أن تنقل لسمّوه تقديري للشرف الذي مَنّ به عليّ. لكن، لا بدّ من أن أشرح أولاً أنّي لستُ طاهياً. أُعدّ أحياناً أطباقاً قليلة أفضّلها شخصياً، لكنّي أمارسها كهواية وليس كمهنة. إلى هذا، لديّ وظيفة أنا مسؤول عنها، وعليّ العودة إلى مسؤوليّاتي بعد أن أنتهي من مهمّتي هنا الليلة".

كنتُ مدركًا تمام الإدراك أنّ من الفظاظة ردَّ طلبٍ جاء من أحد أفراد العائلة المالكة، خصوصاً وأنّ التعبير عن الرفض كان عبر وسيط. الظاهر أنّ الترجمان رفع قضيّتي بما يناسب. مدّ وليّ العهد بعلبة صغيرة إلى الترجمان. التفت الترجمان من ثمّ إليّ، قائلاً: "يأسف سموّ الأمير لعدم استطاعتك خدمته، لكنّه يتمنّى أن تقبل هذه الهدية، تقديراً لجهودك الليلة". فتح العلبة وأعطاني ساعة جَيب جميلة من ذهب حُفر على وجهها رسمٌ لوجه وليّ العهد.

عبّرت عن شكري لوليّ العهد مباشرةً، فيما فكّرتُ أنّني سأتمكّن من فتح محلّ مجوهرات خاص بي بإعداد وجبة واحدة بعد.

"الله يعافيك"، قالها وليّ العهد سعود، فيما صافحني تاركاً في قبضتي حفنةً من الورد الأصفر جاء بها أحد خدّامه. وقبل أن أتمكّن من سؤاله عن معنى ذلك، ابتسم بسرور ونهض، ونبضت كلّ شجيرة في الحديقة حياةً! تحرّك من خلفها الحرس لمرافقة الأمير إلى سيّارة ليموزين كانت بانتظاره عند آخر ممشى الحديقة. في ثوانٍ، اختفى كلّ ضيف وكلّ جندي وكلّ تابع. وقفتُ وحدي وسط الحديقة، ساعةُ جَيبٍ في يد، وحفنة من الورد في أخرى، ونظرة حيرة تامّة على وجهي.

عندئذٍ، جاء نادلٌ سوداني إلى الحديقة من داخل المطبخ وراح يرفع الأطباق عن الطاولات. لرؤيتي، تقدّم نحوي وقال: "تستطيع أن تتناول الطعام في الموضع المخصّص للخدم على الأرض

هناك"، مُشيراً إلى بقعة من العشب بين الطاولات المصطفّة. أضاف: "أو، تستطيع أن تنضمّ إلى الطهاة في المطبخ".

قلتُ، بالنظر إلى عدم استحساني الخَيارين: "أرجو أن تنده لي على سائق يُعيدني إلى المخيّم". كان سائقي قد عاد بالشاحنة إلى المخيّم بعد الظهر.

اختفى النادل في القصر. بانتظار عودته، تمكّنتُ من ملاحظة ما يحيط بي. قامت حديقةٌ مترامية الأطراف على وِسع قصر الناصريّة الشاسع. من المدخل المقنطر إلى جهة الشارع، امتدّ ممرّ تحدّ جانبيه أشجارُ نخيلٍ، عبر الحديقة وأفضى منها إلى المدخل الرئيسي للقصر. وفي كلّ الاتجاهات، التفّت ممرّات دائريّة على طول البقع المزروعة زهراً والتي شعّت ألواناً في برك مُنارة. شكّلت الأنوار المتعدّدة الألوان قوسَ قزحٍ متلألىء من النوافير المتراقصة. ولشخص خرج من توّه من صحراء عقيمة، كان المنظر جمالاً لا يُعقل.

قاطع النادل جولتي، عائداً مع سائقٍ سعودي قادني من الحديقة إلى سيّارة شفروليه قديمة بدا أنّها خدمت ما يجاوز طاقتها.

تخضخضنا على الطريق وتململنا لعددٍ من الكيلومترات، ولاحظت حينها أنّنا لم نكن نتّجه إلى مخيّم بناء السكّة الحديديّة. ندهتُ على السائق: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

أجاب: "بِشتِل".

صرختُ: "بِشتِل؟ لكنّني أريد العودة إلى مخيّمي!".

هزّ كتفيه، وهي حركة مجازيّة يستعملها جميع السعوديّين لقول: "بإذن الله"، وتابع القيادة.

كان مخيّم بِشتِل قاعدة في الرياض لشركة "إنترناشونال بشتل بلدز إنكوربورايتد" (IBBI)، وهي شركة بناء أمريكيّة كلّفتها أرامكو بمقاولة معظم برنامجها البنائي. كانت مجموعة تمثيل الشركة في الرياض مسؤولة في حينها عن صيانة عددٍ من المرافق تحت حكم الملك عبدالعزيز، والد وليّ العهد سعود. (لاحقاً، أوقفت IBBI خدماتها في أثر عجز حكومة المملكة عن تسديد المتوجّبات الماليّة بحسب العقد).

عاش طاقمٌ صغيرٌ من الأمريكيّين في مخيّم بِشتِل، وعرض أحدهم إعادتي إلى موقع بناء السكّة الحديديّة. لكن، قبل أن نتمكّن من المغادرة، أرسل مدير المخيّم بطلبي إلى مكتبه.

"وردتني أوامر من مكتب الأمن في القصر لإبقائك هنا الليلة. لا تستطيع مغادرة الرياض ما لم يصل فسح أمني بحقّك". التفّ من خلف المكتب وجلس عند زاويته. ثمّ، سألني بنبرة تحمل السريّة وتُلمح إلى ارتكابي جريمة شنيعة: "ما الذي كنت تفعله في القصر بعد ظهر اليوم على أيّ حال؟".

شعرتُ بأنّ الأمر لا يعنيه، ولم يرق لي موقفه التشكيكي. لكن، بما أنّه كان يملك مفاتيح وسيلة نقلي، لم يكن من خيارٍ أمامي سوى السير في مساره. قلتُ: " أُرسِلَ بطلبي إلى الرياض لطهو عشاء خاصّ لوليّ العهد. أدّيتُ مهمّتي والآن أودّ العودة إلى مخيّمي".

"أغلب الظّن أنّ شرطة الأمن تريد إبقاءك على مقربة إلى حين تتمكّن من معرفة ما إذا كان عشاؤك الخاص يحوي أيّ شيء لا يناسب الملك. لكن لا تقلق. سنُعيدك بطريقة أو بأخرى". وأضاف بابتسامة جامدة: "برأس أو بدونه".

فكّرت أنّ ذلك سخيف. لكن، باستذكار أحداث بعد الظهر والمساء، أدركتُ أنّه بإمكان أيّ فرد من الأفراد العاملين في مطبخ القصر أن يدسّ شيئاً ما في الطعام، لمصلحة الحفاظ على وظيفته، عارفاً بأنّ اللوم سيُلقى حتماً عليّ كوني العنصر الخارجي. ومع تلك الفكرة المُطمئنة، أويتُ إلى فراشي، وصرفتُ ليلتي أُقاسي أنواعًا من العذابات الخياليّة، انتهى كلٌّ منها بارتماء رأسي المقطوع بين يديّ.

في الصباح الباكر، انفتح بابي ودخل غرفتي بهدوءٍ فتى تنظيف حافي القدمين. "يقول الرئس أن تذهب الآن".

في الخارج، كانت شاحنةٌ وسائقٌ بانتظاري. لم أهدر وقتي فيطلب تفسير. طبطبت بنا الشاحنة عبر الصحراء بالعودة إلى مخيّم السكّة الحديديّة، واستذكرتُ دعوة وليّ العهد سعود. أسرّيتُ لنفسي بعزمٍ إنّني لن أقبل تلك الوظيفة ولو مقابل كلّ ساعات سويسرا!

عندما تولّى وليّ العهد سعود خلافة العرش عام ١٩٥٣، لم أُدرك كيف كان لذلك أن يولّد أيّ تغيير خاصّ في وضعي. كنت في تلك الأثناء قد أخذتُ إجازة لسنتين من الصحراء بهدف إنشاء نزل سياحي في ماين. عُدت من بعدها إلى الصحراء والعمل لدى أرامكو بصفتي الأساسيّة كمُشرِف على قاعة الولائم. وكان النفط لا يزال يخرج من الأرض، بصرف النظر عن هويّة الملك. حتّى عندما أخبرني رئيس القِسم في الظهران أنّ IBBI قد غادرت الرياض وأنّ الملك طلب إلى أرامكو الحلول مكانها لتسلّم الوظائف الإداريّة لقصوره، هززت كتفيّ. وإذا برئيسي يقول: "على فكرة يا هوسيه، بما أنّ الملك سعود بدا راضياً عن عملك في السابق، نريدك أن تقبل وظيفة الإشراف على خدمات القصر".

سرّحتُ فيه نظري بصمتٍ ونكران. لم يكن فكري حول العمل لدى العائلة المالكة قد تغيّر كثيراً. شرحتُ بالتفصيل ما كان قد حدث في خلال زيارتي القصيرة إلى الرياض. ضحك رئيسي وقال لي إنّ رعبَ التسمّم كان يلفّ القصر حينها، ولكن تبيّن لاحقاً أنّها كانت مجرّد شائعة. قال: "على أيّ حال، كان هذا منذ زمن بعيد".

أجبتُ: "لعلّ ذلك صحيح، لكن ماذا عن الشائعة التالية؟ أو، ماذا لو لم تكن شائعة في المرّة التالية؟ أنا سريع العطب. والآن برحيل بِشتِل، من أين سآتي بالمؤن للقصور؟ أنت أدرى بأنّه يجب استيراد كلّ شيء عملياً باستثناء الأغنام والنفط".

"لا تقلق يا هوسيه، تقع المسؤوليّة على أرامكو أيضاً، وليس عليك وحدك. سنؤمّن كلّ شيء تحتاج إليه لكي تشغّل القصور. كلّ ما عليك فعله هو الحرص على أنّ فريق عمل القصر يؤدّي عمله كما يجب. ستكون مسؤولاً عن كلّ تلك المطابخ الهائلة، وستهتمّ بكلّ تنسيقات خدمة الوجبات والولائم وكلّ ما يتّصل بها. قد تكون وظيفة مذهلة. وقد تواجه بعض الإحباطات أحياناً، لكنّك عشت هنا ما يكفي لتأخذ هذه الأمور على عاتقك من دون أن تخسر رأسك".

رفعتُ نظري إليه بسرعة متفاجئاً.

فأضاف: "هذا تعبير مجازي بالطبع".

تحدّث عن المنصب بأسلوبٍ جعله يبدو مغريًا. وبتأكيده أنّ أرامكو ستهتمّ بأمر المؤن وبدعمي في حال حدوث أيّ مشكلة في القصر، سقطت أسباب قلقي في قبول المنصب. وفكّرتُ أنّه قد يكون مشوّقاً.

سألتُ: "متى كنت تنوي الشروع في هذا العمل؟".

"في الحال. الملك في جدّة الآن، بطريق عودته إلى الرياض بعد الاصطياف في جبال الطائف، هو يريدك أن تنضمّ إلى فريق عمله هناك".

"أيفترض بهذه الوظيفة أن تكون دائمة، أم أنّني سأعمل بالتعاقد الثنائيّ السنين المعمول به في أرامكو؟".

"بافتراض أنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام، يريدك الملك أن تلازم وظيفتك إلى حين تفرغ من تدريب فريق عملٍ كامل من السعوديّين. حاليّاً، العاملون هم من المصريّين والسودانيّين واليمنيّين والباكستانيّين والهنود واللبنانيّين والإيطاليّين والفلسطينيّين من الأردن، والإثيوبيّين والصوماليّين، والبحرينيّين، إلى جانب بعض السعوديّين. عليك أن تدرّب السعوديّين بأسرع ما يمكنك، ليحلّوا محلّ أكبر عددٍ ممكن من الأجانب، بما فيهم أنت إذا أمكن. والآن، إن استطعت حزم أمتعتك في الوقت المحدّد، نريدك أن تسافر على متن الرحلة التالية المسافرة من الشركة إلى جدّة الأسبوع المقبل".

كان ذلك الحديث يوم الأربعاء المنصرم، واليوم يوم الأحد. وها أنذا في طريقي إلى مقابلة الملك سعود والبدء بأداء واجباتي.

انعطفت الكاديلاك بحدّة، وظهر أمامنا برجان أبيضا اللون هائلان تصل بينهما قنطرة. اتّصل بكلّ برج سورٌ أبيض من الإسمنت على علوّ أربعة أمتار ونصف المتر، ممتداً بامتداد ما أمكن لبصري أن يجمعه. ابتسم الترجمان لنظرة العجب على وجهي، قال:"هذا مدخلُ أرض قصر جدّة الخاصّ بجلالة الملك سعود. يُحيط ذاك السور بالمجمّع الممتدّ على نحو ألف متر مربّع. فيه أبراج مراقبة مشيّدة عند كلّ بضعة أمتار كتدبير أمني. مذهل، أليس كذلك؟".

كنتُ قد انذهلتُ لقصر الناصريّة في الرياض- وكان الآن يُهدم ليرتفع مكانه قصرٌ جديدٌ احتفاءً بانتقال سعود من وليّ عهد إلى ملك. مع ذلك، بدا قصر الناصريّة منزلاً بسيطًا مقارنةً بما لاح أمامي.

لم يأمرنا خَفَرُ الحراسة بالتوقّف، فيما أسرعنا عبر البوّابة الرئيسيّة. فقد عرّف بنا رمزُ السيفين المتقاطعين وشجرة النخيل على لوحات السيارات على أنّنا جزء من الحاشية الرسميّة. داخل البوّابة، بانت أمامنا جادّة مزروعة شجراً وزهراً - متنافية تنافياً شديداً مع الطريق المهملة التي عبرناها لتوّنا – والتفّت إلى اليمين، ما وراء قصر الضيوف وقصر الحريم، ومنهما إلى قصر سكن الملك سعود، الذي كان مواجهاً للبوّابة الرئيسيّة. وفصل بينهما نحو أربعمئة مترٍ من الحدائق والمروج. كان الورد في كلّ مكان: على الشجيرات، وحول مهاجع الخدم، وعلى طول البرك السطحيّة، وعلى القناطر الخشبيّة. قال الترجمان: "كلّ هذه ورود جوائز. أعلنت منظّمة في الولايات المتّحدة أنّها ستسمّي وردة بيضاء مميّزة بإسم صاحب الجلالة نسبةً إليه".

سدّت سيّارات كاديلاك وإمبيريال ولينكولن الطريق إلى المدخل. كانت السيّارات الضخمة، الكاديلاك بشكل خاصّ، علامة التبذير المفرط واللامساواة الاجتماعية في المملكة العربيّة السعوديّة. لكنّ الأمر مشابه لما في بلدان أخرى، فقلّما يُذكَر أنّ محافظ مدينة نيويورك، على سبيل المثال، وصغار السياسيّين في الولايات المتّحدة وغيرها من البلدان، يستقلّون سيّارات ليموزين على حساب الضرائب التي يدفعها الشعب.

أخيراً، ارتجّت سيّارتنا متوقّفة على بعد نحو مئة متر قبالة القصر السكني العملاق. ابتسم الترجمان قائلاً: "أهلاً بك في منزلك الجديد. آمل أن تستمتع به؛ كلّف بناؤه ثمانية ملايين دولار".

حَدَّ جانبَي الجزء الأوسط من القصر، الذي ارتفع على علوّ ثلاثة طوابق، جناحان طوليّان من طابق واحد بشُرفات خارجيّة زجاجيّة. وفي منتصفه، قامت ثلاثون درجة متتابعة من الرخام العريض مؤدّيةً إلى المدخل الرئيسي. بعد الدرجات الخارجيّة الأماميّة العريضة، أدّى ممرّ شديد الإلتواء إلى مدخلٍ خاصّ بالملك.

في طريقنا إلى السلالم، عبرنا سيّارات ليموزين تعود لأفراد من العائلة المالكة ورجال الأعمال الأغنياء. وكان عددٌ آخر من السيّارات يتوقّف بهدير كبير. بغضّ النظر عن قوّة دفع السيّارة، يبدو أنّ السائق السعودي يشعر دوماً أنّه لا يستفيد من منافعها إلى أقصى حدّ ما لم يضغط على دوّاسة الوقود حتى تلامس أرضيّة سيّارته.

تسلّقنا الدرجات الرخاميّة العريضة متّجهين إلى مدخل القصر. تراخى حرسٌ في وضعيّة استراحة أينما كان - ووقف عددٌ منهم في ثنائيّات متشابكي الأيدي. كان ثمّة جنود من الجيش السعودي الملكي، يرتدون زيّاً سميك القماش لا يناسب درجة الحرارة ولا قياساتهم، حملوا بنادق بجِرَبٍ لكنّها كانت مفرغة الرصاصات؛ طاف حرسٌ ملكيّون مدخل القصر، مرتدين عباءات بيضاء طويلة وعلى رؤوسهم كوفيّة فضفاضة يُثبّتها عقال مجدول أسود اللون. وتدلّت من أحزمتهم الجلديّة السوداء الداكنة، مسدّسات في علبٍ سوداء - علمتُ لاحقاً أنّها مفرغة الرصاصات. ثمّ، كان هناك أفراد من فيلق الحرس الشخصيّين الملكيّين التابعين للملك، اعتمروا الشماغ الأبيض والأحمر، وارتدوا مشالح طويلة حتّى الكاحل من الدمقس الأحمر والأزرق المطرّز بخيط ذهبي، وعلّقوا على جانبهم سيوفاً ذهبيّة المقبض في أغماد ذهبيّة وإلى وسط الحزام خنجراً بمقبض ذهبي فضّي (وهو سكّين قصير معقوف من عُمان) في أغماد ذهبيّة أو فضّية. تقاطع على صدورهم طاقان مهيبان لاحتواء رصاصات الرشاش، لكن كما علمتُ لاحقاً، لم تكن الرصاصات تناسب الرشّاشات الجاثمة فوق الجيبات العسكريّة المتوقّفة قبالة القصر.

لم يأبه أيٌّ من أفراد السلك العسكري الملكيّ لنا. من البداهة أنّ كلّ من وُفّق في دخول البوّابة الرئيسيّة، كان فوق أيّ ظنون. دخلنا عبر باب هائل دوّار مصفّح بالزجاج لنبلغ ردهة الملك. وإذا بدرجة الحرارة تنخفض فجأةً من ٤٣ مئويّة مشبّعة بالرطوبة في الخارج، إلى ما بدا أنّها ٢١ درجة قارسة. كان التباين مُخدّراً للحظة وأوّل ما خطر لي هو العودة إلى الخارج بأقصى سرعتي. أخذني الترجمان بيدي، قائلاً: "سعادة الشيخ فهد يودّ أن يراك أوّلاً. هو مسؤول عن المكتب الإداري للقصر"، واصطحبني بعيداً عن الردهة.

كان الشيخ فهد ودود المحيّا وعيناه تلمعان متى تكلّم. عندما دخلنا مكتبه، كان متربّعاً على وسادة على الأرض يقرأ القرآن الكريم. وقف فوراً ليصافحني، وحيّا ترجماني بكونه صديقاً قديماً. قال: "صاحب الجلالة في مقابلة هذا الصباح مع أعوانه في غرفة العرش. لا بدّ من أن ينتهي بعد قليل، وسوف تُقدّم إليه بعد انتهاء الجلسة الصباحيّة. لكن بحدّ علمي سبق أن تعرّفته منذ مدّة. أليس كذلك؟".

"نعم. التقيتُ صاحب الجلالة عندما كان وليّاً للعهد وقد توقّف لتناول الغداء في مخيّم بناء السكّة الحديديّة حيث كنت أعمل. رأيته مجدّداً بعد بضعة أيّام في قصره في الرياض، حيث أعددتُ وجبةً أخرى له".

"لعلّ جلالته سيتذكّرك. على أيّ حال، بعد أن تُقدَّم إليه اليوم، سوف أدع فرداً من أفراد فريق عملك يأخذك في جولة على القصر ويعرّفك بالأشخاص الذين سيعملون معك. أنا هنا لمساعدتك، لذا عليك إعلامي متى واجهتَ صعوبة. سيعود بك أحمد إلى الردهة، وتستطيع الانتظار فيها إلى حين يحين موعد لقائك بجلالته. أهلاً بك في عملك الجديد. الله يعافيك".

عندذاك، كنتُ قد تعوّدتُ درجة حرارة المكيّف العليلة، ووجدتُ مقعداً مريحاً في إحدى صفوف الكراسي الفائضة. كانت هائلة التصميم، لها مساند ظهر عالية مستقيمة من خشبٍ مزخرف. وتهاوى رذاذ النوافير الخفيف في الردهة برويّة في البرك الرخامية المليئة بالزهر الاصطناعي. ظلّلت كلّ زاوية أشجارُ نخيل من البلاستيك لمعت بفعل الإنارة المخفيّة من أضواء صغيرة كشّافة. وشعّت الردهة نوراً من ثلاث ثريّات كريستاليّة كبيرة منمّقة.

إن كان على الأرض الرخاميّة أو على الكراسي أو في تجوال، أحاطت بي تشكيلة من السعوديّين من كلّ الطبقات. كانت الجدران الرخاميّة الشاهقة أشبه بعملاقٍ يحملق في حرسٍ مقرفصين، حاملين بنادق أرخوها فوق ركبهم؛ وزعماء قبائل سرّحوا لحاهم المَشيبة بأصابعهم الرفيعة بادية البراجم، في حين تحلّق من حولهم عبيدهم بجداديلهم الطويلة، متأهّبين لأيّ نداء من أسيادهم؛ ورجال أعمال أثرياء من جدّة شدّوا جلوسهم على الكراسي الكبيرة، كما شدّوا وجوههم لوجودهم في وِسط الآخرين؛ ورجال بدو، بعيونهم الوحشيّة ومنظرهم الشرس وشعرهم الأسود الطويل المنسدل ما بعد أكتافهم، وظاهر أيديهم المصبوغ بالحنّاء الأحمر.

باستثناء الحرس، ارتدوا جميعاً العباءة الصحراويّة الفضفاضة البيضاء، والتي يسمّونها "الثوب"، واعتمروا الكوفيّة البيضاء – الغترة - والتي تستعمل كمنديل يد أو منديل عادي أو حاوية للرمال - يُثبّتها العقال وهو عبارة عن حلقتين سوداوين مجدولتين - مصنوعتين من الصوف أو القطن. ارتدوا في أقدامهم صنادل من الجلد القاسي، سَهُل عليهم خلعها لتنقيب الأظافر أو جُسأة كعوبهم المتصلّبة في أثناء التحادُث. كان بالمستطاع تمييز مراكزهم الحياتيّة المتفاوتة بالحكم على أثوابهم التي تباينت ما بين أنيقة ناصعة البياض، ومصفرّة باهتة، ومتّسخة غير مرتّبة.

شأنهم شأني، كانوا جميعاً ينتظرون الجلوس مع الملك سعود، وإذا لم يوفِّقوا برؤيته اليوم، سيرجعون في الغد. لم يكن من نسوة في القاعة؛ فالسعوديّات لا يغامرن قطّ في التواجد في مكان عام، بإستثناء زياراتهنّ المختلسة القصيرة إلى السوق.

حدّق البدو، الآتون من خِيَمِهم الصحراويّة، إلى النوافير والثريّات بافتتان حتّى أنّ رجلاً قصّرَ العمرُ قامته وجعّدَ بشرته، خال أنّشجر النخيل حقيقي، فاستلقى تحت إحداها في الزاوية إلى جانبي بثوبه الرثّ الرديء. ومن مقعدهما على الأرض، رشقني زعيمان على وجههما هيئة الشرّ، بنظرات أعينهما الثاقبة المكحّلة بالخشب المحروق. كانا يسبّحان بتكاسلٍ مسبحتيهما المصنوع خرزهما من العنبر، كلّ ثلاث خرزات معاً. سمعتُهما يتهامسان، وبصق أحدهما في زاوية غترته قائلاً عنّي "كافر".

تنقّل العبيد في القصر بهدوء بين الحشد، يحملون الأباريق النحاسيّة الملمّعة في يد، وكدسةً من الفناجيل في يد، يقدّمون القهوة العربيّة المُرّة للكلّ بلا استثناء. وفيما كانوا يجمعون الفناجيل وهي تَفرَغ، كانوا يملؤنها بسرعة للجالس تالياً. بين الفينة والأخرى، كان يحدثُ أمرٌ ما يزيد المشهد غرابةً على غرابة، كمجيء ممثّل من إحدى السفارات الأجنبيّة؛ بدا غير مرتاح لكنّه كان أنيق الهندام، يرتدي سروالاً مقلّماً وسترةً وربطة عنق رغم الحرّ في الخارج. أتى فرد من أفراد مكتب التشريفات لدى الملك لملاقاته ومرافقته إلى غرفة العرش.

في لحظة من اللحظات، وقف كلّ من في القاعة. قال ترجماني أحمد: "قِف من فضلك"، وشدّني لأنهض.

"أحد الأمراء من العائلة المالكة مقبل من الباب الأمامي". انحنى بعض من في الحشد ببساطة فيما عَبَر الأمير، ابن الخمس سنين، الردهة برفقة حرسه. سارع آخرون إلى تقبيل ظاهر يده اليمنى، وقبّلته القلّة التي تعرفه على جبينه. تابع الأمير سيره، غير آبه لأيٍّ من تلك اللفتات، واتّجه نحو غرفة العرش ودخلها. كادت عصفة الحماسة في أثر وصول الأمير أن تخمد، إلاّ أنّصراخاً وأصواتَ عراك علت فجأة من مدخل القصر. اندفع فتى سعودي بثياب رثّة، مُمسكاً بيد عجوز طاعن، عبر الحشد المتحلّق حول المدخل. طرق الرجل المسنّ الأرضَ الرخاميّة بعصاه المهترئة متلمّساً دربه، فيما صرخ الفتى "حذارِ! حذارِ!". كان الرجل المسنّ أعمى. حاول حارسان ردعهما عن التقدّم، فلوّح لهما الفتى بورقة مجعّدة. وإذ عجزا عن القراءة، أعطاها الحارسان إلى ضابط.

همس لي أحمد قائلاً:"إذا أفادت الورقة بأنّهما يستحقّان انتباه صاحب الجلالة، فسوف يستقبلهما، خصوصاً إذا كان الالتماس صادراً عن زعيم قبيلة. إذا كتب الزعيم أنّ حالة الرجل المسنّ سيّئة بالفعل، سيقدّم جلالته المال لرعايته. هكذا يتمّ التعامل إزاء حالات الصَّدقة عندنا".

قرأ الضابط الورقة وأعادها إلى الفتى ثمّ أرشده ومرافقه الأعمى الى الردهة ثم إلى الممرّ المجاور للمدخل المؤدّي إلى غرفة العرش. هناك جلسا لانتظار الملك.

كانت سنون عملي لدى أرامكو في الظهران وفي الصحراء قد علّمتني الصبر الشرق أوسطي. حديث شريف يقول: إنّ "العجلة من الشيطان"، ولعلّ المملكة العربيّة السعوديّة كانت الأكثر إذعاناً وإنفاذاً لهذا التعبير (باستثناءٍ مجال واحد وهو القيادة. فالسعوديّ خلف مقود سيّارة ميالٌ إلى الإسراع بأقصى قدرته أحياناً). أما الدليل على صبري، فكانت الأوقات التي صدف أن

جالستُ فيها ضيفاً أو مضيفاً سعودياً لساعات من دون أن نتبادل سوى كلمة واحدة بشكل عرضي.

لكن الآن، بعد أن تحوّل الصباح إلى بعد الظهر، ضقتُ ذرعاً بالانتظار، وتمنّيتُ بفارغ الصبر أن تنتهي جلسة الملك سعود الحاليّة. فيما راقبتُ بتراخٍ النشاط المتواصل في الردهة، تساءَلتُ عرضياً إذا كان الملك سعود سيتذكرني. فجأةً، وقف الجميع في الردهة، مُسرعين هذه المرّة إلى قاعة الجلسات الرسميّة. حثّني أحمد قائلاً: "هيّا بنا. جلالته آتٍ". شدّني ثانيةً من يدي واندفعنا بين الحشد. كان ذلك مختلفاً إلى حدٍّ ما عن طبيعة الاجتماع الذي تصوّرته. فقد تخيّلتُ مقابلة خاصّة مع الملك. صحيحٌ أنني لم أتوقّع أن تؤدّى لي التحيّة العسكريّة بالطلقات الناريّة المدفعيّة، لكنّي لم أتوقَع أيضاً أنّه سيكون عليّ التربّص فعلياً للملك كمثل متسوّل. مع هذا، لم يكن لديّ وقت لأشفق على نفسي. وقف الأعمى والفتى قبالة الملك سعود مباشرةً فيما خرج من خلف الأبواب المفتوحة الآن. مشى الملك مشيقاً على مهل خلف حارسيه الشخصيّين، وتَبِعَتهُ حاشية من أكثر من مئة وأربعين ضيفاً، ومستشارين ملكيّين، وزعماء قبائل، وأمراء، وتابعين. حمل الحرس مِبْخَرتين من ذهب عطّر الدخان المنبعث منهما الجوّ بعبق طيّب لكن خانق. توقّفت المجموعة بأكملها إلى جانب الأعمى. تحدّث ضابط أمن بإيجاز إلى الملك الذي أومأ برأسه، فاصطُحب الأعمى والفتى إليه. بعد أن تبادلا بضع كلمات مع الملك سعود، قبّلا ظاهر يده اليمنى، تراجعا خمس خطوات، وانحنيا. خربش أحد مسؤولي التشريفات رقماً على قطعة ورقة وأعطاها لحارسٍ اختفى لكي يحضر المال للأعمى. وقبل أن يتمكّن أحمد من جرّي بين الحشد لمقابلة الملك، قاربه الأمير الصغير الذي كان قد أحدث جلبة في الردهة. جرى حديثٌ موجَز من جديد، وكَتَبَ مسؤول التشريفات من جديد مرسوماً ماليّاً غير رسمي. همس لي أحمد مُلحّاً: "الآن!"، وخطونا إلى الأمام. في تلك اللحظة، هجرتني البسالة ورباطة الجأش، اللتان كنتُ، حتّى اللحظة، أترقّب لقائي بالملك على أساسهما. تنبّه كُلّ عصب في داخلي عندما

وقفتُ أمام الملك الأهيف والجليل. مدّ يده لمصافحتي، ابتسم وتكلّم بالعربيّة بلطف. قال أحمد: "يقول جلالته إنّه مسرور جدّاً لأنّك قَبلت أخيراً دعوته للعمل معه".

عَلِقَ الخطاب الموجَز الذي أعددتُه بالعربيّة في حنجرتي، وبلعتُ لعابي مرّاتٍ عدّة متتالية. بعد سلسلةٍ من المحاولات، تمكّنتُ أخيراً من أن أحرّر احتباس حلقي، مُطلِقاً صوتاً محرجاً عالياً وواضحاً. لاحظ الملك سعود بأسي، فابتسم مجدّداً وقال "الله يعافيك"، وتقدّم الموكب فيما أزاحني أحمد من الدرب. خرج الملك من الباب الأمامي متّجهاً نحو سيّارة الليموزين التي كانت بانتظاره، والحشد يتدفّق خلفه. وقفتُ وأحمد وحيدَين في الغرفة الرخاميّة الضخمة الصامتة.

سمعتُ وقعَ أقدامٍ من إحدى الممرّات. استدرتُ، فرأيتُ الشيخ فهد وشخصاً آخر لا أعرفه يقتربان.

قال فهد: "أعرّفك بجورج"، تاركاً لي مهمّة استحضار شهرة له. تابع: "هو من طاقم عمل المطبخ. سوف يُريك أقسام القصر، ويعرّفك إلى موظّفيك". رحل فهد وأحمد وتركاني برفقة جورج.

عرّف جورج بلقبه الوظيفي بالفرنسيّة، متلفّظاً به وكأنّ له رنّة مميّزة، قال "أنا maître d'hôtel لدى صاحب الجلالة" أي رئيس النُدُل. طغا شكل جورج الجميل البسيط على بساطة نَفْسه. هو لبناني الجنسيّة وظّفه أحد افراد حاشية الملك في بيروت حيث كان يعمل نادلاً في مطعم فندق.

بدا جورج، الفظّ الصريح، على غير وِفاق مع العالم الذي وجد نفسه فيه.

وتوقًا مني لرؤية باقي القصر، اقترحتُ أن نَشرَع في جولتنا. سأل جورج: "ماذا تودّ أن ترى بدايةً؟".

"أعتقد أنّه سيكون من الأفضل على الأرجح الذهاب إلى المطبخ حيث سأتمكّن من...".

"المطبخ؟ لا مطبخ هنا".

الفصل ٢

لا مطبخ

علّمتني الحياة في الصحراء أن أتقبّل كلّ شيء تقريباً لدى حدوثه. لكن، فاق هذا كلّ استعداداتي، لم يكن منّي سوى التحديق بنكرانٍ خَدِر إلى جورج الذي كرّر قوله على مسمعي، مستمتعاً بفجعي وكأنّني لم أسمعه في المرّة الأولى: "لا مطبخ هنا".

أخيراً، سألتُ بما أوتيتُ به من حِلْم: "إذاً، يا جورج كيف يقدّمون الوجبات هنا بلا مطبخ؟".

"يُحضّر الطعام في مطبخٍ مؤقّت قديم أُقيم في الطرف الآخر من البلدة إلى جانب المطار، ثُمَّ يُشحن إلى القصر في حاويات ضغط متدرّجة مُفرَغة الهواء".

"لكن لمَ لا يوجد مطبخ هنا؟ قيل لي إنّ في القصر مطبخاً هائلاً".

"يُفترض وجوده لكن كلّ ما لدينا حتّى الآن هو حفرة كبيرة. بإمكاني أن أريك إيّاها، لكن قد تودّ رؤية باقي القصر أوّلاً ثمّ سأصطحبك إلى مطبخنا الحقيقي".

بدأ الجولة الكبرى باصطحابي عبر الردهة مُشيراً إلى سلالم رخاميّة إلى زاوية شمالي شرقيّ الغرفة. افترشت السلالم سجّادة حمراء قاتمة ووقف جنديّان يحمل كلٌّ منهما بندقيّة عند أسفلها. همس جورج: "هي تؤدّي إلى الحريم. إذا كنت تودّ الحفاظ على رأسك، ابقَ بعيداً عن ذاك المكان أو احرص ألاّ يتمّ ضبطك". لم يكن من لزوم لتحذيره هذا، لكن وقع أمرٌ لاحقاً، جعلني أستذكر كلماته وأنزعج.

استدرنا يَسرة ومشينا على طول ممرّ يؤدّي إلى قاعة الولائم التي كانت في الجناح الغربي للقصر. امتدّ خطّان طويلان من الطاولات، صُنعت من خشب الورد تعلوها ألواحٌ زجاجيّة، وطُعّمت بعرق اللؤلؤ. جُمع الخطّان معاً عند أقصى الغرفة ليشكّلا حرف U عملاقاً. لمعت ستُّ ثريّات من الكريستال المنقوش ببراعة من نور الشمس الساطع الذي شعّ عبر الأبواب المتعدّدة الفرنسيّة التصميم والتي أفضت إلى مِصطبة واسعة في الخارج. على مدى الجدران، طنّت مكيّفات ضخمة مطلقة هواءً بارداً مُنعشاً. كان عددٌ من السودانيّين و الإثيوبيّين يجرون وهم يُعدّون الطاولات. اختلسوا إليّ النظر فيما كانوا يوزّعون أواني العشاء المزركشة من نوع روزينثال المؤطّرة بالذهبي والأزرق على فرشات أطباقٍ من الكتّان الأخضر. من الواضح أنّهم سبق أن سمعوا أنّ رئيساً جديداً قد وصل.

كما سبق أن اكتشفتُ في خلال تجربتي السعوديّة، إنّ الشائعات السارية في الصحراء إحدى أكثر وسائل التواصل المبتكرة فعاليّةً وسرعةً.

وُضعت كُرسي الملك سعود في الوسط عند نقطة التقاء صفّي الطاولات المديدَين. كانت بذراعين، مهيبة الشكل، مطليّة بالذهب. نُجِّد ظَهرُ الكراسي الباقية بالدِمقس (الزركش) الأخضر الفاتح فيه زخرفات ذهبيّة. وُضع إلى كلّ مقعد أربع كؤوس مختلفة الأحجام من الكريستال المنقوش كان غرضها الأساسي تزيينيّاً فقط. بما أنّ تقديم النبيذ أو أيّ مشروب كحولي كان ممنوعاً. وُزّعت شمعدانات طويلة لامعة ثلاثيّة الفروع عند وسط الطاولة تفصل بينها مسافة. قبالة مقعد الملك وُضع علم صغير للمملكة يُجانبه شمعدانان ضخمان، يحمل كلُّ منهما ثماني شموع خضراء رفيعة. فيما تمشّينا مدار حُجرة الولائم، أحصيتُ المقاعد التي أُعدّت للغداء؛ كانت ثمانيةً وتسعين. ارتفعت الأبواب الفرنسيّة التصميم بلون البيج من حافة السجّادة الخضراء الأنيقة إلى حدود السقف، وعُلّقت فوقها ستائر من المخمل الأخضر المطرّزة

بالذهب، وعلى حوافّها شرّابات من الذهب. كان بالإمكان إغلاق الستائر متى بعثت الشمس حرارة فاقت قدرة المكيّفات على تبريدها.

قلتُ: "كم أودّ لو أحصل على المال الذي صُرف على هذه القاعة".

ردّ جورج بجفاف: "وكذلك الرجال الذين شيّدوها". وعندما رأى النظرة الحائرة على وجهي، تابع: "عليك أن ترى المهندسين المعماريين المصريّين ومهندسي الديكور الفرنسيّين وكلّ المقاولين الأجانب، وهم يحاولون تقاضي ما لهم. يأتون إلى هنا ويقبعون في انتظار أن تُسدّد مستحقّاتهم، غير عارفين أنّه ما من مال نقداً في العموم. عندما يتراكم بعض النقد، يأمر الملك خزينته بدفع الفواتير، لكن يضع المستشارون المزعمون أيديهم على المال أوّلاً، وما لم يكن المقاول على استعداد لاقتطاع نسبة مئويّة دسمة لصالحهم، فإنّه يحلم برؤية ماله. سترى ذلك في خلال تواجدك هنا". يبدو أنّ جورج كان يملك نفقاً خاصاً به يؤدّي مباشرةً إلى المكان الذي تُحاك فيه مكائد القصر. كنتُ مهتماً بمعرفة المزيد، لكن تساءلتُ في الوقت نفسه ما إذا كانت ميولي السياسيّة تُمتَحَن. قرّرت أن أظلّ بمنأىً عن أيّ معركة في الوقت الحاضر، وفي الوقت نفسه، قرّرتُ أن أُبقي عينيّ مفتوحتين على جورج وأذنيّ صاغيتين إليه.

قادني جورج إلى خارج قاعة الولائم وعبر الردهة من جديد، إلى داخل غرفة العرش التي شغلت كامل الجناح الشرقي للقصر، ممتدّة على مساحة نحو نصف كيلومتر إلى حديقة الورود. طُرحت على الأرض من الحائط إلى الحائط سجّادات سميكة بالأخضر الفاتح مستوردة من فرنسا. وتدلّت ثريّات عظيمة من السقف، أصدرت حِليتها الزجاجية المصنوعة في البندقيّة رنينًا كلّما هبّ صوبها الهواء البارد المتأتّي من فتحات التبريد المخفيّة.

كان استياء جورج مني واضحاً لرغبتي في المكوث في الداخل، وعبّر عن استيائه بتسريع خطى جولتنا. أسرعنا بمرورنا إلى جانب الأعمدة الرخاميّة والكراسي المطليّة ذهباً وطاولات القهوة التي يعلوها لوح زجاجيّ، والأرائك المريحة والمقاعد العديدة المشوقة الظهر، والنوافذ الذهبيّة

الستائر، والأبواب الفرنسيّة الطراز، والورد الاصطناعي في زهريّات فضّية باهظة. غمغم جورج بنبرة بدت لي وكأنّها تنمّ عن الغيرة: "آلاف الكيلومترات من الورد الطبيعي في الخارج ولا يسعنا سوى أن نشمّ الاصطناعي منه، لمجرّد أنّ مستشاراً ما اكتشف طريقة يغتني بواسطتها". توقّفنا بغتة أمام عرش الملك سعود. كان مجرّد كرسي ضخمة منجّدة بالكامل مرفوعة على منصّة تعلو الأرض بدرجتين. مُدَّت على المنصّة سجّادة عجميّة رفيعة كانت هديّة من شاه إيران. كان جلد الفهد الذي نُجّدت به كرسي العرش العنصر الوحيد الذي أوجد ما أمكن من الجوّ الملكي. قال جورج ملاحظاً: "أوَ لم تكن جلود كهذه تُصنع لطرزان؟". من الواضح أنّه لم يخشَ أيّ شيء، أو أقلّه لم يخشَه طالما لم يكن هناك من يسترق السمع. إلى جانب العرش قامت طاولة صغيرة مطليّة بالذهب فوقها نسخة من القرآن الكريم وهاتف فرنسي قديم الطراز له كرنك. امتدّت أسلاك التوصيل على طول ساق الطاولة حيثُ رُبطت بخفّة قريباً من الأرض.

خرجنا من الباب الجانبي لغرفة العرش وشعرتُ كأنّني في سباق فيما حاولتُ أن أواكب خطى جورج الذي هرول عبر الرواق مُسمياً الغرف، فيما عَبَرنا أبوابها: بدّالة الهاتف، مكاتب الموظّفين الإداريّين، مكاتب المستشارين، مكتب الملك الخاصّ، غرف اجتماعات الأمراء، دورات المياه، غرف الحرس، غرفة الكوكا-كولا. أخيراً، فتح باباً وأشار إلى غرفة تكدّست فيها أغطية من كتّان للطاولات وصناديق من أكواب الكريستال وأوانٍ خزفيّة للمائدة بلغت حدّ السقف. قال: "مكتبك".

لم يحتوِ مكتبي، هذه الغرفة الواسعة العالية السقف، على أيّ طاولة مكتب أو خزانة للملفّات أو كرسي أو هاتف أو نوافذ. كان مكتباً بالإسم فقط. شكّلت طاولات إضافيّة من قاعة الولائم رفوفاً أمكن رصف الفائض من طقوم خدمة الطاولة عليها. ولم تخفّ وطأة يأسي بقول جورج: "حالك أفضل من حال المطبخ بكثير. أقلّه لديك جدران وأرضيّة".

فيما عبرنا الردهة من جديد، صادفنا خمسة أمراء ملكيّين، لا تتعدّى اعمارهم الستّ سنوات، يدخلون من الباب الأمامي برفقة عبيدهم الذين قادوهم ممسكين بأيديهم. عبروا الغرفة بهيبة نحو السلالم التي تفضي إلى الحريم. أدّى الجنديّان التحيّة لهم، وصعد الأمراء الخمسة السلالم وتبدّدوا خلفها. نظر إليّ جورج وعلى شفتيه كلام، ثمّ غضّ الطرف وأكملنا سيرنا متّخذين الرواق إلى اليسار بصمت.

عند نهاية الرواق، ما بعد حجرة الولائم، أفضى سلّم ضيّق إلى الطابق السفلي. كان تشييد جدار السلّم قد انتهى لتوّه. طلع السلّم ونزله مثل موكب من النمل عمّالٌ عدنيّون ويمنيّون يرتدون كمّامات ووزرات فقط، يحملون أكياساً مصنوعة من جلد الماعز فيها إسمنت رطب. عند بُسطة الدرج، لاحظت إحدى طاولات خشب الورد الجميلة من حجرة الولائم. كانت اللآلىء التي ترصّعها متشظّية متقشّرة والخشب شديد الالتواء، وُضع جرن من الماء الوسخ فوقها وتحتها كانت صوانٍ عديدة من الكؤوس الكريستاليّة من الطقم الذي كنت قد رأيته في قاعة الولائم. وفي الزاوية، وُضعت صفيحة زيت مليئة بأواني روزينثال متكسّرة.

نزلنا سلسلة أخرى من الدرجات بحذرٍ لئلّا نصبح أشكالاً في الطين، ليقع ناظرنا على أكثر مشاهد الوسخ والنتانة رعباً. قال جورج بعجرفة: "هذا مطبخك". كانت خُمّة الطعام المتعفّن والأجساد المتّسخة والزاوية التي يقضي فيها العمّال حاجتهم لا تطاق. كان مئات العمّال المُياومين يحفرون ويدهنون ويطيّنون ويثرثرون ويتحرّكون بلا وجهة. وشكّلت الفجوات في الأرض خطراً إضافيّاً. وبين الفجوات، اتّقدت افران من الفحم الحارّ.

في أحد المواضع، كانت الأرض تُرصف ببلاط أبيض فوق الإسمنت الطري بلا أيّ تصميم. رُكّبت ألواح النوافذ في فتحات، بمقاسات عشوائية. قامت سخّانات مياه من دون توصيل وبدت المقاعد الخشبيّة وطاولات التقديم وكأنها قد اصطفّت بنفسها عند الجدران غير المنجَزة. غَسَل

خدم سودانيّون أواني المائدة المذهّبة الحواف بمياه باردة رماديّة اللون. وواجه سواهم القبلة في مكّة المكرّمة وأدّوا صلاة الظهر.

لشدّة ما صعقني هذا المنظر غير المعقول، أغمضتُ عينيّ لبرهة مستذكراً كلمات رئيسي في الظهران: "ستكون مسؤولاً عن مطابخ القصر الهائلة كلّها". أخيراً، سألتُ جورج بإذعان: "كيف لكم تقديم أيّ شيء من هذا المكان؟".

"سترى"، قالها جورج، وهزّ كتفيه وابتسم، عارفاً أنّه سجّل نقطة في خانتي.

"لكن ألن يُنجزَ الملكُ القصر؟".

"يعتقد أنه أُنجِز. زُمرة الطفيليّات تلك أخبرته بأنّ القصر مكتمل. حتّى إنهم كانوا وقحين لدرجة إقامة احتفالات افتتاح، وأخذوا الملك في جولة كي يروه عظمة العمل. اصطحبوه إلى كلّ الأقسام المنجزة في الطابق العلوي، لكنّهم تغاضوا عن إظهار المطبخ. وقاموا بدلاً من ذلك بإخباره عن فخامة التجهيزات، كيف له أن يعلم إذاً أنّه ما من مطبخ؟ وجباته تُقَدَّم وقيل له إنّ كلّ شيء على ما يرام. ويتكرّر الأمر نفسه كلّما بُني قصر أو مكتب حكومي".

"لكن بالله! ألم يخبره أحدٌ عن هذه الفوضى؟"، قلتها ضارباً تحفّظاتي عرض الحائط.

"كيف لأحدٍ أن يخبره؟ للإجتماع به،عليك المرور بالأشخاص نفسهم الذين يكذبون عليه. أَوَ تعتقد أنّهم يخاطرون بأن يُفتضح أمرهم؟ لكنّك ستحصل على فرصة المحاولة، كن صبوراً لا يزال ثمّة المزيد لتراه".

"أتعني المكان الذي تُطهى فيه الوجبات؟".

"إن اكتفيتَ برؤية مطبخك للوقت الحالي، سأحضر سائقاً ليصطحبنا إلى الدفيئة. إنّها على بُعد نحو كيلومترين من البوّابة الرئيسيّة".

تمّ اصطحابنا في السيّارة. عبرنا البوّابة الرئيسيّة نزولاً نحو الشارع الأساسي في جدّة وإلى مجمّع خلفي لم يبدُ أنّه محطّة جوّيّة هذه المرّة. كانت وسيلة نقلنا سيّارة بلايماوث بغطاء ثابت. توقّفنا أمام مبنى طويل أشبه بثكنة من طابق واحد عُرِف بمخزن وزارة الأشغال العامّة. تكدّست في رواق المبنى عبوات من القمامة والصناديق الفارغة. سِرنا عبر ممرّ صغير وصولاً إلى المطبخ الملكي. في وسط الغرفة، تصاعد لهيب خفيف وتوهّج باضطراب من أربع مواقد زيت قديمة العهد.

وغطّت صفائح من الحديد الثقيل المكسور فوّهات الافران. في الافران، التي أُبقي على أبوابها المعلّقة بمفاصل متزعزعة مفتوحة بكاملها تقريباً، هسهست صوانٍ من الحبش في يخنة مُدهِنة. حرّك الوجبة الملكيّة ثلاثة طهاة أوروبيّين، ارتدوا سراويل بيضاء متّسخة وتعرّقوا بشدّة. كانت درجة الحرارة بلا شك ما فوق ٤٩ مئويّة.

عُلِّقت إلى النوافذ الصغيرة مراوح صغيرة، لكن معظمها كان قد خدم عسكريّته منذ زمن طويل. في إحدى الزوايا خلف المواقد، جلستْ مجموعة من عمّال المطبخ يقشرون البطاطس. على طول الحائط إلى جانبهم، ادّعى آخرون أنّهم يغسلون الطناجر والمقالي في مجلى مسدود مليء بالماء العَكِر. في الطرف المقابل من الغرفة. إلى جانب نافذة مفتوحة، بدا شاب يَمَني ملطّخ بالدماء منشغلاً بتقطيع ذبيحة عجل. كانت الذبيحة، المتدلّية من مسمار على ركيزة خشبيّة، سوداء تماماً لكثرة الذباب الذي غطّاها والذي افترس أيضاً قطع اللحم المتناثرة على الطاولة.

فاقت الحرارة وتلك المناظر والروائح قدرتي على تحمّلها. خرجتُ بحثاً عن نَفَسٍ من الهواء المنعش، لكنّ الهواء في الممرّ كان حارّاً لدرجة الاختناق أيضاً ولسعت هبّة ريح وجهي بجريش من الرمل. لبرهة غير قصيرة، فكّرت في التراجع عن الوظيفة طالما لا أزال في كامل قواي العقليّة، لكن لم يسبق لي أن تخلّيتُ عن عملٍ من دون أن أمنح نفسي فرصة. وعندما قدّمتُ كبريائي

على المنطق، قمعتُ حاجتي إلى التقّيوء ووجّهت خُطاي، بالأحرى روحي، عائداً إلى مطبخ الجحيم.

توقّفت شاحنتان أمام المبنى. حمل عمّال المطبخ والطهاة طناجر من الطعام ليضعوها في الحاويات مُفرغة الهواء على منصّة التحميل والرفوف المكشوفة في الشاحنتين. وُضعت الشطائر والكعك الإسفنجي على ورق صُحُف فُرشت على الرفوف المكشوفة وكانت مغارف الحساء وأشواك التقديم والملاعق قد أُلقيت فوق علبٍ من الفواكه الطازجة. خرج جورج من إحدى غرف التخزين البارد يحمل باقات من زهر الدلبوث (الجلاديولا) لزينة الطاولات. صعد إلى الشاحنة الأماميّة وبدأ الموكب رحلته باتّجاه القصر، تبعتُه في السيّارة. كان عمّال المطبخ يتلاكزون ويغنّون، مسرورين لانعتاقهم من المخزن الخانق. لوّحوا للناس في الشارع ورموا لهم ببعض الكلمات، مستمتعين باستعراض ظَفَرِهم: فقد أُعدّت وجبةٌ أخرى بنجاح. عبرت الشاحنتان بوّابة القصر بثبات، قذف أحد العمّال ببضع الشطائر إلى الحرس الذين حيّوه بالمقابل. ومن الشاحنة التي تتقدّمني، قذف أحدهم بكلامٍ نابٍ إلى جنائني كان يسقي حوض ورد جنب ممرّ السيّارات، وإذا به يوجّه خُرطوم الماء ناحية الموكب ويرشّ كلّ من على الشاحنة، وما فيها. ما لبث صراخ العمّال أن علا حتّى انكتم على صوت صفّارة صادحة وزمامير سيّارات. هدرت الدرّاجات الناريّة لرجال الشرطة من خلف آمرين الجميع بالتنحيّ للملك الذي كان عائداً إلى القصر لتناول الغداء. ولعدم وجود رصيف، اضطرّ سائق الشاحنة إلى الصعود على شجيرة العِنّاقية وانتقل سائقي بسيّارتنا إلى بقعة على العشب، فيما مرّت ليموزين الملك سعود مسرعة تتبعها جيبات على سطحها رشّاشات،وشاحنات تعجّ بجنود يحملون بنادق، ورتلاً طويلاً من السيّارات الأخرى. دنا العمّال في الشاحنتين من جانبيها ليقتربوا ما استطاعوا من قبلة الأنظار. لوّح بعضهم بمناديل المطبخ المتّسخة، وصفّق البعض الآخر باحترام.

عند الباب الخلفي للقصر حيث كان من المفترض وجود المطبخ، راح النُدُل يتحرّكون كطواحين بين غفير عمّال البناء. لوّح جورج ذراعيه باضّطراب، هاتفاً: "طلب جلالته الغداء فوراً". وفوراً تحرّك كلّ من جاء من المطبخ-المخزن. وُضعت حاويات الطعام مُفرغة الهواء على الأرض إلى جانب كومة من الرمل وبعض صفائح ماء. حمل نادل صينيّة كبيرة من السلطة متجهاً إلى الطابق العلوي، ووصل آخرون حاملين زبادي حساء فارغة. غير آبهين بالمغارف، حَنوا الحاويات انحناءَة خطرة وحاولوا سكب المرق في الزبادي مباشرةً، فاندلق معظمه على الأرض. قرفص طهاةٌ إلى جانب الحاويات وراحوا يغرفون الطعام منها ويصبّونه في أطباق روزنثال المذهّبةِ الحوافّ. أمّا حَمَلة أحواض الطين الذين كانوا يسيرون خلف النُدُل، فأخذوا يلتقطون قطعاً من الطعام من أطباق التقديم. وتساقطت من سلل العمّال قطرات من الوحل والإسمنت إلى الصواني التي حملها النُدُل إلى قاعة الولائم.

صعدتُ إلى الطابق العلوي وأنا أحشر نفسي بين حَمَلة الطين وحَمَلة الصواني. كانت قاعة الولائم جميلة. دخل جوهر، أحد الحارسين الشخصيّين الخاصَّين للملك، وأعلن جهارةً: "صاحب الجلالة مُقبل". تأهّب النُدُل مقدّمو الطعام. وقام خادم إثيوبيّ طويل، مرتدياً معطفاً قرمزيّاً طويلاً فوق قميص أبيض وسروال، وعلى رأسه عمامة بيضاء بريش، بالطرق طرقاً خفيفاً على جرسٍ بمطرقة صغيرة محدثاً رنّة تنازليّة. أقبل الملك سعود يتقدّمه ضابطَ أمن وحرسه الشخصيّون المتوشّحو السيوف، وجلس في مقعده. خَلَفهُ حشدٌ من الزوّار والموظّفين والضبّاط والتجّار والتابعين يتدافعون ويتعاركون لكسب مكان. لم يجد كثيرون مكاناً للجلوس لأنّ الجَمْعَ فاق العدد المتوقّع بكثير، وأولئك الذين يشغلون مناصب سياسيّة عالية، سارعوا إلى فرض هيبة مراتبهم على مرؤوسيهم الذين اضطرّوا إلى البحث عن مكان آخر يتغدّون فيه.

بجلوس الملك، راح النُدُل يقدّمون الطعام، غافلين عن معركة المقاعد المحترمة التي من الواضح أنّها كانت يوميّة. في أثناء الوجبة، وقف موظّف من قسم البرقيّات والاتّصالات

خلف الملك سعود وقرأ المختارات التي اقتطفها من أخبار الصباح. كان الملك يسأل بين الحين والحين سؤالاً لأحد موظّفيه الحكوميّين حول نقطة ما في التقارير. عدا ذلك، لم تجرِ أيّ أحاديث في خلال الوجبة. تناول الملك طعامه بسرعة فائقة، وما إن انتهى حتّى نهض فجأةً، كانت تلك إشارة إلى جميع الجالسين بالنهوض والمغادرة بمغادرة الملك. شقّ تطبيق هذه القاعدة على غير المتمرّسين الذين كانوا يجدون أنفسهم عالقين دوماً عند وجوب الرحيل وصحونهم مليئة بالطعام.

بعد أن انتهى يومي الأولّ في تسيق وجبة الطعام الأولى، وبعد أن انتهت مواجهتي الأولى، أحسستُ بأنّني رصدتُ أولى الإشارات على إصابتي للمرّة الأولى بتقرّح المعدة؛ وعجِزتُ عن اصطناع ابتسامة فيما فكّرتُ: "لن أخسر رأسي، لكني سأصاب بانهيارٍ عصبي".

كانت تلك الأيّام الأولى إعصاراً من الارتباكات، فقد حاولتُ أن أتآلف مع الدور المتعدّد الجوانب لمنصب مشرفٍ على خدمات الضيافة لدى جلالة الملك سعود. اكتشفتُ أنّني كنتُ مسؤولاً عن خزينة سنويّة من خمسة ملايين دولار أمريكي تغطّي نفقات تشغيل المطابخ في القصور العشرة للملك سعود، تلك المبنيّة أو قيد البناء. كان لا بُدّ من إصدار طلبيّة كلّ شهرين بقيمة مئتين وخمسين ألف دولار لقاء منتجات مستوردة من اللحم المثلّج والخضار المثلّجة والسلع المعلّبة. كانت الخضار والفواكه الطازجة واللحم ومنتجات الألبان تُستقدم من التجّار المحلّيّين ومزرعة الخرج المكفولة من الحكومة والواقعة على بعد نحو ثمانين كيلومتراً شرق الرياض. كنت أضع تقريراً كلّ شهر عن كميّات الطعام الذي كنّا نستهلكه. في شهر نموذجي، كانت اللائحة لتحتوي على ٢٨١٢ كيلوغراماً من لحم البقر، و ٨٣٩ كيلوغراماً من لحم الخروف، و٥٦٧ كيلوغراماً من لحم العجل، و ١٤٢٨ كيلوغراماً من الدجاج و ١٢٢٥ كيلوغراماً من الديك الرومي، و ٢٥٥ كيلوغراماً من الزغاليل و ١٩٥ كيلوغراماً من البط، و

١٧٢ كيلوغراماً من النخاعات والكبد، و ٤٠٨ كيلوغرامات من سمك موسى، و٢٧٢ كيلوغراماً من الجمبري، و٧٧ كيلوغراماً من محار الأسقلوب.

كان فضّ مشكلة تنظيم فريق العمل وعمليّات خدمة التقديم يتطلّب التنقّل المتواصل من قصر إلى آخر. على سبيل المثال، فيما كنتُ أعمل على تنظيم شؤون المطبخ في القصر السكني في جدّة، قرّر الملك سعود العودة إلى الرياض. استلزم كلّ انتقال نقل فريق العمل كاملاً ذلك أنّه كان أوحداً وكان لا بُدّ من أن يعمل حيثما حلّ الملك.

ومع أنّ الملك سعود كان يقضي الصيف في جبال الطائف، وموسم الحجّ في جدّة، والشتاء في البرّ (الصحراء) زائراً قبائل البدو، كان يعتبر عاصمة البلاد الرياض منزله. عام ١٩٥٥، شكّل قصرُ الحمراء القصرَ السكني للملك في الرياض، وكان قد أنجز قُبيل انضمامي إلى فريق عمل الملك. وكان القصر الوحيد من بين كلّ القصور المشيّدة والمفتتحة في حينه الذي يملك مطبخاً شغّالاً. لم يملك قصر البداية ولا حتى قصر المنصوريّة مطبخاً مناسباً رغمَ شَغْلِ الملك لهما مراراً في خلال وجوده في الرياض أمّا قصر الناصريّة، الذي كان ليصبح الأعظم بين قصور الملك والذي كان بديلاً من القصر الذي امتلكه الملك يوم كان وليّاً للعهد، فكان لا يزال في مراحل بنائه الأولى. لم يكن أمامي سوى الأمل بألاّ تتكرّر تجربتي في جدّة. حتّى القصر الجديد في الخرج الذي تعوّد الملك المكوث فيه مراراً بطريقه من الرياض.كانت مرافق إعداد الوجبات فيه بدائيّة. في الطائف، العاصمة المصيف للمملكة العربيّة السعوديّة، كان قصر الحويّة الجديد قيد التشييد وما أمكن لي سوى تخمين ما سيواجهني. بالإضافة إلى الحويّة والناصريّة، كانت قصورٌ جديدة تُبنى للملك في الخرج وجدّة. بالنظر إلى النشاط الدائم في بناء القصور وميول الملك سعود إلى التجوال، تساءلتُ إذا ما كنت سأتمكّن يوماً من بلوغ مستوىً ملائم من التنظيم في أيٍّ من القصور للحصول على خدمة فاعلة فيها.

في محاولتي لإرساء ما يشبه النظام، كنتُ أواجهُ على الدوام تفاهة المتطفّلين، هم الذين كانوا يدّعون تقديم المشورة إلى الملك سعود. كانت التهمة التي تفوّه بها جورج في خلال جولتنا على قصر جدّة دقيقة إلى حدٍ ما. لكن، حتّى جورج لم يكن مدركًا مدى فساد الجماعة المسؤولة في القصر والتي اشتملت على أعداد لا تُحصى من المدراء والانتهازيّين، والمستشارين، والنفّاجين الذين اتّخذوا من التدجيل مفتاحاً للبقاء. ومع أنّني تمتّعتُ بالحصانة لأنّ أرامكو كانت تسدّد راتبي، قاسيتُ في عملي باستمرار من جرّاءالمواجهات اليوميّة تقريباً مع الانتهازيين ذوي المكانة في بطانة الملك سعود. بدا النِفاق وكأنّه الرياضة الوطنيّة الرسميّة. كان طموح الجميع بلوغ مركز نفوذ لدى الملك سعود. وأمكن بسهولة أن يتحوّل مركز مماثل إلى منصب وجاهة ومال، هذا ما لم يخسره شاغله أمام منافِس أكثر حذاقة. فرئيس الخاصّة الملكيّة الحالي في بلاط الملك سعود، بدأ العمل كعامل تشحيم في إحدى المرائب الملكيّة. من خلال التلاعب الفذّ والمثابِر، تمكّن من الإمساك بزمام مرائب الملك كلّها، الأمر الذي منحه سلطة على كلّ ترتيبات النقل. وبتوزيع الخدمات بحصافة على هواه، تمكّن من دخول حلقة المستشارين في البلاط حيث رسّخ نفوذه. واليوم لا يسع أحدٌ أن يقابل الملك سعود إذا ردّه "مدير المرائب". هي، على الأرجح، سلطة معقولة في يد رجل عقلاني، لكن لا مكان لرجل عقلاني في محيط كهذا.

يثق الملك سعود ثقة عمياء بمستشاريه، ويجهل تماماً نفاقهم المحرّك لأهدافهم الأنانيّة، وبالتالي هو واقع تحت رحمتهم. وانطلاقًا من غريزة حفظ الذات لديهم التي تغذّي تآمرهم الشرّير عليه، هم يُبقونه على غير اطّلاع بشكل عام، لدرجة أنّهم يفرضون رقابة على أيّ انتقاد يطاله أو يطال البلاد، أكان منشوراً أو مذاعاً في خبر ما عبر مصادر أجنبيّة. الملك سعود، هذا الرجل المتّسم بالبساطة واللطف والودّ، هذا العاهل الملكي من بين قلّة العواهل في العالم هو سجين في برجه إلى حدٍ ما.

فيما شاهدتُ تلك العمليّة تتغذّى بذاتها، كوّنتُ شعوراً من التعاطف العميق تجاه هذا الحاكم الذي بات مغلوباً على أمره على يد خَوَنةٍ استرسل إليهم بثقته.

لكن، كانت لي حصّتي في المشكلات الخاصّة. قبل مغادرة جدّة والذهاب إلى الرياض للتحضير لوصول الملك، صُرِفَ جورج، رئيس النُدُل، من الخدمة وأُعيد إلى لبنان بحجّة الاتّهامات التي وجّهها إليه أفراد من طاقم العمل في المطبخ ومفادها أنه مُعادٍ للإسلام. كان الأمير مُساعد، أحد أفراد العائلة المالكة، والذي يملك صلاحيّات محدودة، قد أعطى تعليماته للشّيخ فهد بصرف جورج. كان الأمير مُساعد قد اضطلع بصلاحيّات غير محدّدة الوجه على العمليّات الجارية في القصر وكان يتنازع وفهد على السلطة. مَنَحَ صرف جورج الأمير مُساعد حصانة ضدّ فهد، فما لم يفعل فهد ذلك، أمكن للأمير اتّهامه بالتساهل في موضوع خطير: المساس بالدين. في هذه الأثناء، تُركتُ بلا رئيس نُدُل. جمعتُ الخدم الإثيوبّيين والسودانيّين. ولتفادي النزاع، طلبتُ إلى كلّ مجموعة أن تختار ممثّلاً عنها، وأعلنتُ أنّني سأُشرف على قاعة الولائم بنفسي. أثبت النظام فعاليّته وتناغمه، غير أنّ اتّصالاً هاتفيّاً تلقّيته في مكتبي بقصر الرياض، هدّد بإقلاق الترتيبات.

"مرحبًا سيّد أرنولد، أنا جورج".

"جورج مَن؟".

"رئيس النُدُل، لقد عُدت. هلاّ أتيتَ إلى المطار لاصطحابي؟".

"كيف عُدت؟".

"عندما كان الملك في بيروت الشهر الفائت، تحدّثتُ إلى عُليان – تعرفه، المسؤول عن جواهر الملك - ووظّفني في وظيفتي القديمة من جديد. ها أنذا إذاً، لكن أحتاج إلى من يقلّني إلى البلدة".

اتّصلتُ بسائقي وذهبنا إلى المطار. في طريقنا، تساءلتُ ماذا سأفعل بجورج، بما أنّ الأمير مُسعَد كان صريحاً وواضحاً في تعليماته التي قضت بعدم السماح لجورج بدخول القصر ثانيةً. قلتُ لجورج إنّه عليّ أن أنزله في فندق الرياض، الفندق الوحيد في المدينة يومها، إلى حين أتمكّن من تحديد وضعه. كان وضع المرء في القصر "مائعاً" يتغيّر يوميّاً. أسرعتُ بالعودة إلى الحمراء والتزمتُ السلّم القيادي بالاتّصال بفهد أوّلاً. قال، كما كان متوقّعاً، أنّ حلّ الأمر يعود إلى الأمير مُسعَد.

وبالطبع، أَمَرَ الأمير ألاّ يطأ جورج أرض القصر، وكان على جورج العودة إلى لبنان بأيّ وسيلة يستطيع تدبّرها. رأيته مرّة أخرى قبل رحيله، قال إنّه حاول إجراء حديث مع عُليان ليطلب إليه شرح الوضع للأمير مُسعَد. غير أنّ عُليان، الذي لم يكن فرداً من أفراد العائلة المالكة والذي كان عازماً على تفادي الخلاف مع الأمير، رفض رؤية جورج.

اكتشفتُ لاحقاً أنّ جورج كان واحداً فقط من بين سلسلة طويلة من الضحايا التي عانت من توسُّعيّة أُجَراء الملك سعود. عمليّاً، كلّ مرّة يسافر فيها الملك سعود أو مسؤولٌ مهمٌّ في الحاشية خارج المملكة العربيّة السعوديّة، ترجع معه طائفة من المختصّين ليكونوا موظّفين جدداً في القصر. عندما زار الملك سعود الهند عام ١٩٥٥، أحضر أحد أفراد حاشيته معه طاهيَين هنديَّين للعمل في مطبخ القصر. لم يُسمح لهما يوماً بإعداد ولو وجبة للملك لأنّ الطعام الهندي الحارّ، الذي اقتصر فنّهما المطبخي عليه، كان ممنوعاً على الملك بأمر من طبيبه. بعد عدّة أشهر، عادا إلى الهند، مُثبطي العزيمة ومفلسَين. عندما رجع عبدالله الشُّبيلي من الهند، وهو أحد المسؤولين التنفيذيّين في القصر والذي كان يكافح في حينه من أجل منصب لدى الشيخ فهد ومدير المرائب الملكيّة، عاد وعلى عقبه اثنا عشر جنائنيًّا هنديًّا وظّفهم للعمل في أرض القصر. كان الشُبيلي – الذي ادّثر بملابس خيطت فيها ماسات بقيمة آلاف الدولارات – قد أُرسل إلى الهند بطلب من أحد مستشاري الملك سعود، لتخمين ثمن الماسات التي كان

الملك قد ابتاعها في أثناء سفره إلى الهند. بعد عودته، وطأ الجنائنيّون أرض مطار الرياض ليكتشفوا أنّ لا أحد كان على علمٍ بوصولهم الوشيك. وجدوا أخيراً طريقهم إلى القصر حيث كان عليهم النوم على الأرض في رواق المدخل لأنّه لم يكن قد جُهّزت لهم أيّة مهاجع. حُلّت مشكلتهم بعد يومين، عندما طردهم الملك جميعاً. أُعيدوا إلى بومباي ولا يحملون سوى ذكرى نظرة خاطفة عن الحدائق الملكيّة. وكما تبيّن لاحقاً، أعلنت تلك الحادثة عن فقدان شُبيلي حُظوته في البلاط. صُرِفَ في نهاية المطاف، ونُصِّب أخوه بدلاً منه.

أينما حلّ الملك في أسفاره تقريباً، كان يجد رجل طبّ جديداً يتشبّث به ويعود معه ليضع له نظاماً صحّياً جديداً. ولم يكن بيد طبيب الملك الشخصي الدكتور حَمَد أديب، وهو مغترب سوري مضى على رفقته الملك عشرون عاماً، إلاّ أن يستشيط غيظاً وينتظر. في خريف عام ١٩٥٦، تقاضى طبيبان نمساويّان عشرة آلاف دولار (لكلٍّ) إضافة إلى المصاريف لقاء ٢٢ يوماً من الخدمة الاستشاريّة التي قدّماها للملك، وحاولا أيضاً تقاضي أتعاب إضافيّة لقاء استشارات طبيّة لأفراد آخرين من العائلة المالكة. في العام نفسه، وصف طبيبٌ نمساوي آخر كان تحت إجرة الملك المؤقّتة، نظاماً غذائيّاً للملك قائماً على النشويّات لخفض وزنه الزائد. ووصف خلَفَه السويسري عصير الجزر الطازج مع كلّ وجبة، ولقوله إنّ غذاءه هذا كفيل بإضرام لهيب الشباب من جديد، لقي رواجاً لدى جماعة البلاط. وعلى مدى عدّة أسابيع كُلِّف أحد العاملين في المطبخ بمهمّة بَشر الجزر الحصريّة وعصر العصير من اللّب. وبما أنّ المعنيين لم يُظهروا استجابة للحمية، أُوقفت العمليّات، ورحل الطبيب ليخلفه طبيب ألماني آخر بنظام غذائي آخر، يقوم هذه المرّة على اللبن الزبادي.

كان بعض هؤلاء الأطباء المتنافسين مقتنعين تماماً بأنظمتهم الغذائيّة الغربيّة. وأنا، أنا حاولت أن أتعاون، لكنّ النُظُم لم تفلح أمام عدم اكتراث الملك المستمرّ. كنتُ أقدّم وجبة تلتزم قواعد النظام بدقّة، لكن متى أوى الملك إلى الحريم مساءً، كان يأكل مهما كان من طعام أعدّه الطهاة

للنساء. كان يتعشّى مراراً أيضاً في مخيّمات زعماء القبائل حيث كان الغذاء النموذجي هو الأرزّ العربي بلحم الخروف المشوي وحليب النوق والفواكه، وكان يؤكل بكمّيات كبيرة. مع هذا، حاول كلّ طبيب جديد تغيير ذلك.

ومِسكُ هذه التشكيلة من الأنظمة الغربيّة كان النظام الذي وصفه للملك رجلٌ تركي صادفه في زيارة له إلى ألمانيا. استدعاني الملك يوم عودته وأعطاني تعليماته عبر ترجمان: "وصل طبيب أسناني الجديد اليوم. عالجني عندما كنت في "باد ناوهايم"، وسألته المجيء إلى هنا لمواصلة العلاجات. أريدك أن تتحدّث إليه لأنّه يحمل نظاماً غذائياً خاصاً بي وأريد أن أتّبعه بحرفيّته".

"متى سيحضر إلى القصر؟".

"إنّه هنا الآن، ينتظر في المجلس للقائِك".

ذهبتُ إلى المجلس وهو غرفة الانتظار الضخمة التي غالباً ما تناول فيها الملك القهوة مع زوّاره. هناك، في وسط مجموعة من البدو المنتظرين رؤية الملك، رأيتُ رجلاً قصيراً ممتلىء الجسم له وجه طفل بريء، يجلس وسط كنبة منجّدة وثيرة. عندما دنوت منه، كان يتأمّل ذبابة توقّفت عند أسلة أنفه بعينين شبه مغمضتين. فيما خطوت باتّجاهه، طارت الذبابة ورُفِعَ عنه السِحر.

وإذْ كانت المرّة الأولى التي يراني فيها، انتفض عن الكنبة ليحطّ برويّة وهدوء على الزخرفة الوسطيّة للسجادة العجميّة من كرمان.

قال مقهقهاً فيما مدّ يده للسلام: "أنا الدكتور كمال".

"كيف حالك د. كمال. إسمي أرنولد. أنا المشرف على خدمات الضيافة لدى صاحب الجلالة".

"آه. نعم، نعم، نعم. إذاً علينا العمل معاً. بإمكاننا القيام بالكثير لصاحب الجلالة ولا يلزمنا سوى بعض التركيز. أعددتُ له النظام الغذائي الخاصّ الذي سيجعله يتمتّع بصحّة جيّدة جدّاً، سوف يُعيد إليه شبابه ويُسعده. لا بُدّ من أن يكون نجاحنا كبيراً، لا بُدّ من أن نُحيي شبابه من جديد. سترى أنّ صاحب الجلالة سيتّبع النظام بلا توانٍ. بلا توانٍ!"، قال ذلك مُشدّداً على العبارة الأخيرة. وأضاف: "لا بُدّ من أن يتناول كلّ صباح عند الفطور حبّة جزر واحدة، وتفّاحة واحدة، وساق كرفس واحداً، وملعقة عسل واحدة وحبّة جوز إنجليزي واحدة".

نظرتُ إليه وقد أخذته في حلمي، منتظراً أن تكون قهقهته دليلاً على فشله في إخباري نكتة، لكنّه تابع حديثه بجدّيّة بصوت ملؤه الحماسة وبنبرة حادّة عالية:

"هذا ما أتناوله شخصيّاً كلّ صباح. انظر إليّ. أنا في الثمانية والستّين من العمر. لكن لا أحد يصدّق ذلك. أنا في الثمانية والستّين وأُعتبر ملك الفالس الأوروبي. نعم، نعم، أربح وزوجتي مباريات رقص الفالس في أوروبا على الدوام. وبفضل نظامي، سيرقص جلالته الفالس من جديد، هكذا تماماً. وراح يلفّ المجلس مؤدّياً حركات الفالس وقد تزامنت حركة ساقيه وذراعيه برشاقة فيما دندن نغم "الدانوب الأزرق". مدّ البدو أعناقهم للفُرجة وفغرت أفواهم لشدّة الانشداه. أتمّ دورته للغرفة بالحركة الختاميّة ليتوقّف أمامي ويقرص خدّي. يا ربّ السماوات! إن نقصنا الجوز، فالبديل دوماً موجود!

كان ملك الفالس الأوروبي منقطع النَفَس إلى حدٍّ ما، لكنّ ذلك لم يخفّف من حماسه، بل أبطأه فقط. قال: "قريباً، لا بُدّ أن نرى الملك يقوم بالأمر نفسه". وددتُ أن أقول له "ولا في الأحلام" لكنّي تركتُ رشيق الأطراف يحلُم.

"عيناك تقولان إنّك لا تصدّق كلامي. لكن سترى". وبما أنّ الحركة الوحيدة الشبيهة بالرقص التي أدّاها الملك يوماً، كانت نوعاً من جرّ الخُطى على الطريقة البدوية، والذي كان يشارك فيه

أحياناً بعض رجال القبائل لدى وجوده في الصحراء، جعلتني أشعر بالاطمئنان في البقاء على شكوكي.

"مع أنّك لا تصدّق الأمر الآن، فإنك عندما ترى ما سيفعله نظامي للملك، سترغب في اتّباعه أنتَ أيضاً. أترقص الڤالس؟". للحظةٍ، انتابني الذعر وخشيتُ أن يأخذني بين ذراعيه ويراقصني مدار المجلس!

قلتُ على وجه السرعة فيما تراجعتُ خطوة: "لم أفعل منذ أن كنتُ في أوروبا. وإذا كنتُ أودّ الحفاظ على عملي، فأعتقد أنّه يُستحسن بي أن أرجع إليه". توجّهتُ نحو الباب تاركاً الطبيب لفرقته البدويّة.

نَدَه عليّ فيما بلَغتُ الباب: "سيّد أرنولد، سآتي إلى المطبخ صباح الغد لأريك كيف تُعدّ الفطور لصاحب الجلالة". فيما عبرت مدخل الباب، نظرتُ خلسة إلى الخلف لتقع عيني على الطبيب الصالح يطحن جوزاً إنجليزيّاً في يده ويحاول التحدّث في الوقت نفسه إلى بدويٍّ كهلٍ ملتحٍ، بكلّ أنواع الحركات.

في الصباح التالي، كما كان قد وعد، جاء إلى المطبخ للشروع في تطبيق نظامه. في أقلّ من خمس دقائق، تحوّل المطبخ إلى هرج ومرج على أثر صوته المتفاوت النبرات بين متطلّبة، وموافِقة، وغنائيّة، وتأنيبيّة، وصارخة، وغاضبة. شاهدتُه، وما بيدي حيلة، فيما راح يبشر حبّة جزر واحدة وتفّاحة واحدة ويخلط المبشور بملعقة من العسل. ولم أحطّ من عزيمته عندما أخبرته أنّه ما من جذور كرفس لدينا فأسرّ إليّ قائلاً: "سنطلبها من سويسرا. أنا أطلب كلّ مؤني من هناك. الأرجح أنّه ليس لديكم أيّ جوزٍ إنجليزيٍّ أيضاً، لكنّني أحمل بعضاً منه معي على الدوام، إنّه غذاء مذهل للصحّة. ضروريٌّ أن يتناول الكلّ الجوز". ومدّ يده إلى جيبه وأخرج حبتّين. أعطاني واحدة مقهقهاً، وكسر الثانية وفَرَم اللبّ ونثره فوق فطور الملك. "هاك"، قالها

بتنهيدة مُعطياً الطبق إلى نادل. أخذ النادل الطبق وقد حمله على بعد مسافة منه بعينٍ من الريبة، وتوجّه به إلى غرفة الملك.

قال لي د. كمال: "هيّا هيّا هيّا، علينا أن نرسل البرقيّة إلى جنيف، نحن في حاجة فوريّة إلى كثيرٍ من الأمور". أرشدتُه إلى مكتبي وهممتُ بالقول: "اعتقدتُ أنّك طبيب أسنان، مع أنّ اعتقادي لا يهمّ. فقد قال الملك...".

"لكنّني كذلك. أنا كذلك". مدّ يده إلى جيبه وأخرج حفنة لفافات. وعندما فردها، تكشّفت عن وجبة أسنان كاملة. أمسكها بيده، ورفعها كي أراها. ثمّ، طقطق الجزءين على بعضهما مثل صناجات راقصة، وقال: "هذه للشيخ آل ثاني، حاكم قطر. سيصبح عجوزاً عن قريب لأنّه لا يتناول الجوز. طبّ الأسنان عملي لكنّ النظام الغذائي حياتي. لهذا أنا هنا، عندما أصلحتُ أسنان جلالته في ألمانيا، اذهل شبابي مستشاريه. أنا في الثمانية والستّين، أتصدّق؟ فأخبرتهم عن نظامي الغذائي الفريد وأقنعوا جلالته بوجوب أن أفعل له ما أفعله لنفسي. لهذا أنا هنا، لأُعيد الشباب إلى صاحب الجلالة". ثمّ، سألني بنبرة قَلِقة: "أتشكو من خطب في أسنانك؟".

"لا!".

"آه، يا أسفي. أنا طبيب ممتاز. أعالج أصحاب الملايين فقط، لكن بما أنّنا شريكان، فيسرّني أن أصلح أسنانك". وقبل أن يتمكّن من طرح مزيد من الأسئلة، اقترحتُ أنّه علينا تنظيم البرقيّة لطلب المؤن.

"نعم، نعم، نعم. علينا ذلك، فالنظام الغذائي مهمّ جدّاً، أوّلاً علينا الحصول على جذور الكرفس لخلطها مع التفّاح والجزر، والجوز الإنجليزي. ثمّ، سوف نحتاج إلى الجُبن المصنوع من حليب الماعز، والبسكويت الهشّ غير المملّح، ورقاقات الشوفان المدعومة بالفيتامينات، وشاي الزيزفون. ولا بُدّ من أن نضيف إليها بعض اللحم من مخزن مؤنك. سأدوّن الكمّيّات،

وسوياً سنعيد الشباب إلى صاحب الجلالة". مدّ لي بحبّة جوز أخرى، وبها قَشَرنا عن عمرنا بضعة أسابيع.

أرسل سكرتير الملك البرقيّة إلى سويسرا، وواصل الطهاة إعداد الفطور، وانتظرتُ أنا حدوث الانفجار، الذي وقع بعد يومين. دخل ريتشي، رئيس الطهاة الإيطالي مكتبي منتفضاً يده تسابق صوته لشدّ انتباهي، وصرخ قائلاً: "الملك يستشيط غيظاً!".

"ما الأمر؟".

"اليوم، ردّ وجبة الفطور إلى المطبخ وقال للنادل إنّ الفطور ذاته يتكرّر للمرة الثالثة، وإنّه لا يريد رؤية الطبق بتاتاً مرّة ثانيةً. يقول إنّنا نحاول تجويعه، وأَمَرَ النادل أن يحضر له ما يأكله".

"هل أعدتَ إرسال النادل إليه ليخبره بأنّه النظام الغذائي الخاصّ بالدكتور كمال؟".

"نعم، لكنّه قال للنادل إنّه يريد فطوراً يؤكَل".

"مع احترامنا للدكتور كمال، هلمّ بإعداد كوب من عصير البرتقال للملك ، وبيضتين مقليتّين خلطاً، وقطعتي خبز محمّص، وشوفان وكوب حليب ساخن. لكن أخبره أنّه لن يتمكّن من رقص الفالس بعد اليوم".

نظر ريتشي إليّ ملتبساً، وألقى بيديه فوق رأسه في حركةٍ معبّرة عن تشوّش ذهنه وغادر وهو يتمتم بالإيطاليّة. لم يعد الطبيب، الواثق من أنّ نظامه الغذائي كان فعّالاً، إلى المطبخ من جديد، مع ذلك، واصل إمطار الملك سعود بالجوز. في محاولة للهروب منه، أعلم الملك سعود سكرتيره بالإبلاغ عن عدم وجوده متى حَضَرَ د. كمال إلى القصر. غادر طبيب الأسنان المخلوع وزوجته الرياض في الأسبوع التالي للمشاركة في مهرجان لرقص الفالس في لينز.

وصلت طلبيّة الطعام الصحّي من سويسرا إلى الرياض بعد عدّة شهور. كلُّ شيء ما عدا الجوز الإنجليزي كان قد شهد على قساوة الرحلة والتعرّض لظروف مُناخيّة متطرّفة من ثلج وشمس وملوحة مياه. وآنذاك، لم يعد الجوز الإنجليزي مرغوباً فيه بسبب الخصام الذي كان قائماً في حينه بين بريطانيا العظمى والسعوديّة على حدود ولاية البُريمي. لذا، أُقصي الجوز إلى زاوية حياديّة في غرفة مؤن المطبخ، خلف علب المهلّبيّة الإنجليزيّة من يوركشاير.

في خريف عام ١٩٥٦، كان قصر الناصريّة الجديد على وشك الإكتمال. من حيث التصميم، كان الأبعد عظمة وهيبة، وكانت الناصريّة ستشكّل العاصمة الحكوميّة الرسميّة للملك سعود. امتدّ السور المسيّج للقصر، من الإسمنت البرتقالي الزهري، على طول أحد عشر كيلومتراً، وارتفع على علو ستّة أمتار وسُمك مترٍ تقريباً .داخل السور قام مجمّع كبير ومستقلّ النشاط، احتوى على قصر استقبال ضخم من الإسمنت البرتقالي الزهري كالسور، وقصر سكني مهيب من الرخام الأبيض، وقصر حريم مُترَف تحيطه حدائق مُذهلة الجمال، ومستشفى بسِعة مئتي سرير، وجامعة سُميّت بإسم الملك مخصّصة لأبناء العائلات الملكيّة وعبيدهم، ومنازل واسعة ومريحة لعائلات الحريم، وتجمّعات خطّية من الثكنات العسكريّة، والمرائب الملكيّة، ومساحات شاسعة من الأحراج والحدائق.

كانت غرف التخزين في الطابق السفلي من قصر الإستقبال ستحوي على ما يكفي من الطعام ليسدّ حاجات سكّان المجمّع على مدى سنتين.

خشيتُ أن يكون المطبخ، كما هي الحال هنا، آخرَ همّ بالنسبة إلى الجميع باستثنائي. وبما أنّ أعمال البناء في قصر الاستقبال حيث سيتمّ إعداد الوجبات كانت توشك على الانتهاء، كنتُ أزور المنطقة كلّ يوم.

كان لديّ أسبابي لأقلق. كما في جدّة، اهتمّ المقاولون بأقسام القصر التي ستُعرض على الملك فقط في خلال حفل الافتتاح الرسمي. ومع إنجاز قاعة الولائم والمجلس ومكاتب الملك الخاصّة

والواجهة المذهلة لقصر الاستقبال، كان المطبخ جاهزاً لإعداد مجرّد طبق واحد من فطائر الوحل. بالنسبة إلى المقاولين، كانت الوليمة التي ستلي حفل افتتاح القصر من مسؤوليّة شخص آخر... أنا!

أحرز الوضع في القصر الجديد نقطة على قصر جدّة بوصول جزء من تجهيزات المطبخ إلى الرياض، لكن لم يكن لدى أيّ من العمال أدنى فكرة عن كيفيّة تركيب التوصيلات الكهربائيّة في المطبخ لتشغيل التجهيزات الكهربائيّة. ولتتويج هذا العائق، تبيّن أنّ التجهيزات - التي طُلبت قبل عدّة شهور على وصولي - جاءت بجزءٍ من إنجلترا وبجزءٍ آخر من الولايات المتّحدة، فاستوجبت بالتالي نظامَين كهربائيَّين منفصلين. كلّفتُ سعد، مساعدي السعودي، مهمّة تنظيم الترتيبات الخاصّة بالتجهيزات، فيما غُصتُ كلّ ليلة على مدى أسابيع في كُتيّب التعليمات الذي كنتُ قد وجدته في الأفران الإنجليزيّة والبرّادات الأمريكيّة.

تخلّيتُ عن روايات أغاثا كريستي من أجل غوامض التيّارات المتناوبة، والمباشرة، والمعترضة، وفَرق الصدمة الكهربائيّة بين ١١٠ فولط و ٢٢٠. أنا، الذي انحصر انخراطه من قبل في مجال الكهرباء بمجرّد وضع آلة الحلاقة في القابس، وجدتُ نفسي فجأةً منغمساً - لا بل متبحّراً - في فيضٍ من الإلكترونات والبروتونات والأيونات وما يدور في فلكها. ولتجنّب ضغط النشاط الحاصل في القصر، كنت أقضي لياليَّ في العموم في مجمّع عند الطرف الشمال شرقي من الرياض، حيث قام خمسة أمريكيّين بتشغيل مِرفق تابع لأرامكو يُعنى بتوزيع منتجات النفط. وفيما كان أصدقائي ينسحبون ليلاً إلى جلسة البوكر المعتادة، كنتُ أنسحب إلى غرفتي للتعامل مع غفيرٍ كامل من الكُتيّبات والمنشورات والكرّاسات والأوراق والمجلّات الدوريّة حول الكهرباء، وأحاول التوفيق بين تضاربات ما يُزعَم أنّها لغة مشتركة بين إنجليزيّة بريطانيّة وإنجليزيّة أمريكيّة. طرح وصول تجهيزات المطبخ وأواني الطاولات لقاعة الولائم مشكلات جديدة. كانت الفتحات المخصّصة للنوافذ والأبواب، مجرّد أُطر فارغة في الجدران. ومنعًا لاختفاء التجهيزات

المُصَندقة، عيّنتُ حارسًا عند كلّ فتحة وعلى الرغم من هذا الاحتياط، عندما قمتُ بإحصاء جردة التجهيزات بعد تركيبها، تبيّن أنّه لدينا ما يوازيمئتي ألف دولار أمريكي فقط من أصل الطلبيّة التي بلغت خمسمئةَ ألفٍ. أبلغني سعد أنّ وزير الماليّة، وهو عبدٌ سابق، طلب ذات مرّة عدّة صناديق من أوانٍ خزفيّة من ماركة هاڤيلاند من منطقة ليموج بفرنسا، على أن يتمّ توصيلها إلى مسكنه. لم تصل قصره أبدًا.

في أثناء عمليّة نقل الموجودات من قصر الحمراء إلى الناصريّة، اختفت طقوم روزنثال الخزفيّة التي تساوي ما يفوق مئة ألف دولار أمريكي. أبلغتُ عن فقدانها مديري القصر، ولم يتمّ فتح الموضوع ثانيةً. إلى هذا، كان قد سُدّد ثمن آلتين لصنع المثلّجات للوازم القصر الجديد، ولم يبلغ المطبخ الجديد سوى واحدة منهما. بعد افتتاح القصر بعدّة شهور، لَزِم تصليح هذه الآلة. لكنّ التاجر الذي أتى ليحلّ المشكلة لم يكن يأبه لإجراء التصليحات، بدلاً من ذلك، جلب معه آلة جديدة أراد أن يبيعني إيّاها. كانت الآلة، التي لا تزال في صندوقها، مطابقة للآلة التي كنّا نستعملها. سَلَكَ معظم التجهيزات المفقودة طريق التوصيل ذاته إذْ عَمَدَ تجّار أثرياء الى تدبير استلام المواد عبر رشوة ضبّاط في الجمارك وموظّفين في القصر قاموا من ثمّ بإعادة بيعها إلى القصر أو إلى أفرادٍ من العائلة المالكة. لم أكن مخوّلاً فرض أيّ ضوابط على ممارسات مشابهة إلاّ إذا حدث أن تعامل أحد التجّار معي مباشرةً، مثل حالة آلة المثلّجات.

بالطبع رفضت مساعدتهم في ضروب الاحتيال التي أقدموا عليها، لكن تلك اللفتات من جانبي لم تُجدِ لأنّهم كانوا ببساطة سيبحثون عن متآمر ما في مكان آخر في القصر. في خلال تجهيز الناصريّة، عرض عليّ تاجرٌ سوري "إكراميّة" بقيمة ألفي دولار أمريكي إذا حرّرتُ له طلبيّة بقيمة اثني عشر ألف دولار أمريكي من الأواني الزجاجيّة التي كانت تساوي أربعة آلاف دولار. ابتسم إزاء رفضي. بعد عدّة أشهر قليلة، وصلت الأواني الزجاجيّة، ومن الواضح أنّ أحداً ما في القصر سيُرحّل إلى بيروت أو القاهرة. لم يكن توجيهي إصبع الاتّهام إلى أيّ من التجّار ذا طائل،

لأنّه بصفتي مسيحيّاً وبالتالي كافراً، كانت كلمتي في مسائل مماثلة أدنى شأناً من نقطة ماء في محيط. لذا اعتمدتُ مقولة "لاأرى شراً ولا أسمع شراً ولاأتكلم شراً"، وقرّرتُ أن أنشغل بعملي فقط.

ومع افتتاح قصر الناصريّة الذي أمر على أثره الملك سعود بإقامة مأدبة احتفاليّة، بعد أسبوع فقط على الافتتاح، أدركتُ أنّنا لن نتمكّن البتّة من إنجاز التحضيرات في الموعد المحدّد بالنظر إلى وتيرة تقدّم الأعمال الحاليّة.

بَقِيَ المقاولون على تعنّتهم في عدم إيلاء المطبخ أيّ اهتمام، وعندما رفعتُ ندائي إلى إدارة القصر، لم ألقَ سوى حركة هزّ الكتفين المعتادة، حتّى السلالم المؤدّية من المطبخ إلى قاعة الولائم كانت مجرّد رسمٍ على خارطة سعد. وفي نوبة غيظ، خربشتُ على جدار السلالم بالدهان الأحمر "ابنوا سلالم هنا من فضلكم". ولتخطّي حاجز اللغة، أعاد سعد خربشتها بالعربيّة.

وضع سعد مخطّطاً بمشاركة رئيس الطهاة لتنسيق أمكنة تجهيزات المطبخ، راسماً قِسم الطبخ، وقِسم الخَبز، وقِسم السَلطات، وقِسم المثلّجات، وقِسم غسل الأواني، وقسم غسل الملابس والأقمشة، وقِسم غرف التخزين، وقِسم غرف نوم الطهاة ودورات المياه الخاصّة بهم. عندما عرضنا الرسم على المقاول، أعطاها لأحد العمّال لديه قائلاً له أن يُنهي العمل عليها متى سنح له الوقت. هزّ العامل كتفيه وتمتم "إن شاء الله"، وهي العبارة العربيّة الجَبريّة التي تفي كلّ الأغراض والتي تطرح عذراً جاهزاً ينمّ عن القصور، فإذا قصّر امرؤٌ في مهمّة، فذلك لأنّ مشيئة الله قضت بإخفاقه. كان ذلك كفالة بأنّ المطبخ لن يكون جاهزاً وقت الافتتاح وعلى الأرجح وقت الإغلاق، طالما الأمر رهن المقاول.

قصدتُ فهد الذي قال لي في لقائنا الأوّل في جدّة أن أقصده متى واجهتُ صعوبة في القصر. سبق لفهد أن جمع ما أراد من ثروة. إلى هذا كان نفوذه في القصر ينحسر. تعاطف معي، هزّ

كتفيه واقترح عليّ أن أقابل الأمير مُسعَد. وافقني الأمير مُسعَد الرأي بشأن الفظاعة التي سنشهدها ما لم يُنجَز المطبخ بحلول مأدبة الاحتفال، لكن عندما طلبتُ إليه مساعدتي فيأمر المقاولين، هزّ كتفيه، قال إنّها ليست مسؤوليّته، واقترح عليّ أن أتحدّث إلى عيد بن سالم، رئيس مرائب سيّارات الملك.

سألتُ عيد، الذي بدأ يستخدم بعض النفوذ، الذي كان سيستغلّه لاحقاً، إذا كان بإمكانه شرح الوضع شخصياً للملك سعود.

ردّ عيد: "لا يجوز إزعاج الملك بأمور كهذه".

"أعلم ذلك، لكن لا أحد في القصر يبالي بإنجاز الأشغال".

"لمَ تخبرني أنا بذلك؟ عليك التحدّث إلى المسؤولين عن العمل".

"حسنٌ، قلْ لي مَنْ بالضبط هو المسؤول؟ الجميع يقولون لي الأمر ذاته. وفجأةً لا أحد في القصر يكون مسؤولاً عن أيّ شيء، ما عداي، ومسؤوليّتي أن أقدّم خدمة مأدبة لثلاثمئة ضيف في أقلّ من أسبوع. ألا تعتقد أن صاحب الجلالة يفضّل أن يتمّ إزعاجه الآن على أن يكتشف لاحقاً أنّ عليه أن يُلغي افتتاح القصر؟".

هزّ عيد كتفيه، قال: "ربّما، لكنّني مسؤول عن المرائب وحسب".

حينذاك، كنت بدأت أحنق إزاء انعدام الاهتمام العام. سارعتُ إلى الخروج من مكتب عيد قبل أن يخرج حنقي عن السيطرة. بلا تفكير، توجّهتُ مباشرةً إلى غرفة العرش، فتحتُ الباب من دون انتظار الرسميّات، واقتحمتُ جلسة الملك سعود اليوميّة. التفت الحشد محدّقين إليّ وكأنّك بهم واحد إزاء اقتحامي الفجائي، وتبدوا مندهشين من سفاهة هذا "الكافر" من طاقم المطبخ. في تلك اللحظة، كان عقلي متقدّماً على خطى رجليّ وعندما أدركتُ كم أنّ تصرّفي كان غير مقبول، أغمصتُ جفنيّ وبي أمل طفوليّ في أن نختفي جميعاً. عندما

فتحتهما، كنّا لا نزال حيث نحن، لم نكن قد اختفينا. تحرّك حارسان بسرعة إلى جانبيّ وللحظة، غمرتني قناعة بأنّ إنجاز المطبخ لم يعد ذا أهمّيّة قطّ. فيما أمسك الحارسان بي، تقدّم ترجمان الملك سعود منّي. "يودّ صاحب الجلالة أن يعرف إذا ما كنت جئت للتحدّث إليه".

أفلت الحارسان قبضتهما، ومشيتُ نحو المنصّة مع الترجمان. ابتسم الملك سعود وقال: "ما الخطب الذي جعل من سويسرينا يبدو منزعجاً لهذه الدرجة؟". دَرَج الملك على دعوتي بهذا الإسم الملطّف، بعدما عَلِمَ عن خلفيّتي السويسريّة في لقاءاتي الأولى به.

اعتذرتُ عن مقاطعة الجلسة ثمّ شرحتُ الوضع السائد في قصر الناصريّة. بدا الاستياء واضحاً عليه عندما أخبرته عن حالة المطبخ. أمر أحد أعوانه باستدعاء كلّ المقاولين في قصر الناصريّة دفعة واحدة. بعدئذٍ، شكرني على رفع المسألة إليه وقال فيما أَذِنَ لي بالرحيل: "أعدَّ أفخر ولائمنا؛ سيتمّ إنجاز الأشغال". وعُدت إلى مكتبي متزعزع الخطى.

في اليوم التالي، عندما وصلتُ إلى قصر الناصريّة، كان المطبخ محور الانتباه. تطوّع فهد والأمير مُسعَد وعيد بن سالم وباقي الفريق الإداري في القصر لتقديم المساعدة. فجأةً، أصبح الاهتمام ببناء المطبخ فعلاً إلزامياً. بدأ مخطّط سعد البياني يتّخذ شكلاً مادّيّاً، وتألّق سعد اعتزازاً نَدَر أن رأيتُ مثيلاً له في هذه الأرض القائمة على الإيمان بالقضاء والقَدَر. وصل كهربائيٌّ وقُمنا سويّاً بتمديد حُزَمٍ من الأسلاك في الفتحات وأنجزنا غير المُنجَز. وفي النهاية، وضعنا نظاماً كهربائيّاً شغّالاً، وفريداً ربّما. طَمَسَ فيضٌ من الإسمنت شعارنا الجداري بالدهان الأحمر، وانبثقت سلالم من الأرض.

تواصل العمل على هذه الوتيرة لمدّة ثلاثة أيّامٍ علمتُ خلالها عبر سعد، الذي سمع من أحد القهوجيين، الذي أخبره أحد عبيد الملك الشخصيّين أنّ الملك حذّر المقاولين لدى اجتماعه بهم في غرفة العرش أنّهم لن يروا فلساً واحداً ما لم يتمّ إنجاز المطبخ بما يرضيه، وفي الوقت

المتّفق عليه سابقاً. مع انقضاء اليوم الثالث من حمّى الأجور هذه، تمكّنتُ من إرسال طاقم من العاملين في الحمراء لفرك الأرضيّة البيضاء وتنظيف النوافذ واختبار المكيّف وتلميع التجهيزات الجديدة. دُعي الملك سعود من ثمّ إلى تفقّد المطبخ الأضخم والأكثر تجهيزاً وحداثة والأعلى تكلفة في الشرق الأوسط. في اليوم السابق للافتتاح الرسمي، حَضَر الملك في الموعد المحدّد عند مدخلِ المطبخ.

وللتوّ ظهر في وجهه فهد والأمير مُسعَد وعيد بن سالم بملامحهم المتهلّلة، وتَبِعتهُ كالعادة تشكيلةٌ من الحرس والعبيد والمرافقين. رحّبتُ به وأرشدتُ خطاه في الأقسام، حيث مررنا أولاً بعمّال المطبخ الذين وقفوا في تشكيلٍ عسكري معدَّل، جاسئين في زيّهم الأبيض المكوي، وثانياً مررنا بالتحف الفنّية من صنع جنرال إلكتريك. عاين الملك سعود كلّ موضع عن كثب بقدر ما سمح له ضعف بصره، مُمازحاً الطهاة ومبتسماً لتوتّرهم.

بانتهاء الجولة، التفتَ إليّ وسأل: "أنحن على جهوزيّة لوليمة الغد؟".

"نعم، فالمطبخ مُنجَز".

"وهل سويسرينا راضٍ عن المطبخ الآن؟".

ابتسمتُ عرض فكيَّ وهززتُ رأسي إيجاباً.

"إذًا أنا راضٍ".

صافحني، وأضاف: "لكن، آمل ألّا يكون سويسرينا راضٍ عن المطبخ لدرجةٍ تمنعه من مغادرته".

شاهدتُه وهو يخرج، متسائلاً ماذا إذا يُشعل فتيل الإنذار بطردي.

الفصل ٣

بدوٌ وبقشيشٌ وعرائسُ بالمقايضة

كان افتتاح قصر الناصريّة الذي كلّف بناؤه خمسةً وعشرين مليون دولار أمريكي فُرجةً استعراضيّة مُذهلة أمكن لها أنتحرّك حتّى خيال مخرج الأفلام الراحل سيسيل ب. دوميل.

شكّلت الباحة الأماميّة لقصر الاستقبال مركز الاحتفالات، وسطعت واجهته كلّها، بأنوار المصابيح الضخمة التي نُسّقت على شكل ورود على ارتفاع تسعةِ أمتار، وعلى طول المصطبة الأماميّة للبناء الشاسع. أمّا المدخل الرئيسي المصمّم بأسلوبٍ شرق أوسطي تقليدي من القناطر الثلاثيّة الجميلة أُطّرت فتحاتها بزخارف متشابكة مجبولة بالإسمنت، فقد برق أكثر إثر الأضواء الكشّافة التي خُبّئت داخل الحديقة المثلّثة الشكل في وسط الرَحبة. ووجّهتِ الحديقةُ أيضاً - وإن سُدىً - حركة السيّارات المتدفّقة التي حملت الضيوف. ضجَّ مدخل القصر بهديرٍ رتلٍ من سيّارات الليموزين، من نوع كاديلاك وكرايسلر ولينكولن ومرسيدس، توقفّت مُسرعةً بحيث صَدَمَ رفرافُ الواحدة منها رفرافَ الأخرى.

عند عتبة الدرجات المؤدّية إلى القصر، أفرغت السيّارات حمولتها، وخرج منها تجّار الرياض الأثرياء وأفرادٌ من العائلة المالكة وفريقُ الديوان الملكي، وصعدوا السلالم برشاقة وسرعة، فيما برزت أثوابهم البيضاء وبشوتهم السوداء الفضفاضة تحت الضوء الساطع.

بعد مراسيم تقديم القهوة كالعادة في المجلس، تَبِعَ الضيوف الملك سعود إلى قاعة الولائم التي تلألأت بأنوار ثريّاتها الموشوريّة الهائلة. حيث، انضمّوا إليه لشرب نخب إنجاز القصر، من

عصير البرتقال. وبدأت الوليمة. كانت نجاحاً ساحقاً، وعلى الرغم من كثرة الحشد، كانت الخدمة سَلِسَة وسريعة. في منتصف الوليمة، أشار الملك سعود عليّ بالدنو منه وهمس لي: "لقد أسعدنا سويسرينا الليلة جداً بهذه الوليمة، و..."، ابتسم مُضيفاً، "نأمل أن يكون هو سعيداً أيضاً".

فيما وقفت خلف الملك أراقب المشهد، شعرتُ بالنِعم تغمرني بما يكفيني لأفكّر بأنّ مشكلاتي قد انتهت أخيراً وأنّه أصبح بمستطاعي أن أتطلّع إلى بضعة أشهر من السلام والنظام.

بعد الوليمة، توجّهت، متعباً ولكن سعيداً، إلى مكتبي المتواضع (كان فيه ثريّة واحدة). فيما أغلقتُ الباب، لاحظتُ صندوقاً كرتونيّاً كبيراً على طاولة مكتبي. اجتاحني الهَول. وهالني محتواه أكثر عندما فتحته. احتوى الصندوق على طقمين كاملين من اللباس العربي: ثوب، غترة، عقال، صندل، بشت، وحتى كوفيّة (القحفيّة) - وهي طاقيّة تُلبس تحت الغترة. إضافة إليها، كان ثمّة مشلح، وهو نسيج ملوّن سميك من جلد الغنم يُشبه المشالح المكسيكيّة ويُلبَس في ليالي الشتاء الباردة في الصحراء.

حضر سعد إلى الباب ليتمنّى لي ليلة سعيدة، فدعوته للتحقّق من أمرحِلّتي الجديدة. سألته: "أتعرف لمَ هذا كلّه؟".

أجاب سعد: "أحضر جوهر، الحارس الشخصي للملك الصندوق أوّل المساء قال إنّك ستحتاج إلى الملابس لرحلة الصحراء".

"أي رحلة؟".

"بعد غد سيغادر جلالته الرياض لمدّة شهر لزيارة قبائله في الصحراء، وسوف ترافقه".

وفي ثانية، انجلى سحر الأمسية.

صرختُ قائلاً: "أتقصد من كلامك أنّه بعد شهر جفّت فيه دماؤنا كي نُنجز العمل على هذا القصر، سنقدّم فيه وجبة واحدة ثمّ نهجره لمدّة شهر آخر كي نجوّل بلا هدى على كثبان الرمل ونلعب الغمّيضة مع مجموعة من البدو؟".

"في الواقع، سيتناول جلالته الطعام غداً ظهراً، ومساءً، ما يجعل من الوجبات المقدَّمة هنا ثلاثاً".

هدّأتْ إجابة سعد البريئة من غضبي، وقلتُ بهدوءٍ تامٍ تقريباً: "أفترض أنّه علينا إعداد ما علينا للطبخ في الهواء الطلق لثلاثين يوماً".

"نستطيع أن نُجهّز المؤن للغد".

ثارت ثائرتي من جديد.

"نعم" للغد ولعدّة أيّام غد من بعده. وكيف لنا أن ننقل ما يكفي من الأغراض لتسدّ الحاجة حتى نهاية الرحلة؟".

"ثمّة الكثير من مقطورات التخزين وشاحنات المؤن".

ويُفترض بنا أن نجعل من كلّ شيء جاهزاً ليوم ما بعد الغد؟".

"لا بُدّ من أن نتمكّن من تحميل المؤن في الشاحنات الصغيرة غداً من دون صعوبة".

هززت كتفيّ وتمتمتُ "إن شاءالله". في تلك اللحظة، ومن دون أيّ مقدّمات وشكليّات، أمسيتُ عضواً في نادي القدريّين. ابتسم سعد مُرحّباً بانضمامي.

في اليوم التالي، تدبّر طاقم عمل المطبخ بطريقة من الطرق حزم ما يكفي من المؤن، باستثناء الفواكه والخُضَر الطازجة التي ستُحمل إلى القافلة يوميّاً، كما واللحم الطازج، الذي سنبتاعه من البدو. كانت المؤن تكفي ثلاثين يوماً لثلاثمئة شخص تقريباً! فقد تخلّلت حاشية الملك

مستشاريه المباشرين كما والكثير من المحسوبين عليه وخدّامهم. بالإضافة إلى المؤن الخاصّة بحاشية الملك، كُدّست كمّيّات من البطّانيات والخِيَم والملابس في مقطورات التخزين لتوزيعها على البدو.

وفي الموعد المحدّد، كانت القافلة الشاسعة المُمَكنَنَة – التي تضمّ ما يفوق خمسين مركبة مُجهّزة جميعها بعجلات شاحنات – جاهزة للإنطلاق. سافرت القافلة في ثلاثة أقسام. تقدّم فريق صغير، كما هي الحال على مدى الرحلة، لاختيار مكان مناسب للتخييم. تَبِعتها سلسلة طويلة من شاحنات التخزين الصغيرة، والشاحنات، والمطابخ الجوّالة، وعربات صهريجيّة مليئة بالماء، وحُجرة طعام كبيرة مكيّفة بالهواء البارد، وعربات للنوم، والمقطورة المكيّفة الضخمة التي شكّلت قصر الملك سعود المتنقّل – إضافة إلى يد عاملة كافية لتجهيز المخيّم تحضيراً لوصول الملك. وشكّل أسطول السيّارات المكيّفة التي سافر فيها الملك ومستشاروه وضيوفه، القسم الأخير من هذه البِعثة المذهلة.

في العادة كان اختيار موقع المخيّم يتمّ بحسب قربه من مخيّمات البدو أو قراهم، لكن متى توقّفنا في مكانٍ لا قبيلة فيه، نجد القبيلة قربنا في الصباح التالي إذ كانت أخبار تحرّكات الملك تنتقل بسرعة، وكذلك فعل البدو.

ما إن يتمّ اختيار المكان حتّى يبدأ الحرس والعبيد بالعمل على وتيرة محمومة. كان سيّد الموكب، وهو عبدٌ صومالي قصير القامة، سمين، يُوجّه طاقم خيمته بحماسة فائقة كانت أشبه بسوطٍ يحثّهم على العمل. وكأنّما بسِحر ساحر، ارتفعت خيمة الاستقبال الضخمة التي كانت تُنصب على الدوام أوّلاً بأوّل. طَرَقت مئة يد ويد الأوتاد الخشبيّة عميقاً في الرمل، وثبّتت الأعمدة الوسطيّة الهائلة رافعةً القصرَ القماشيَّ فوقها مربوطة بحبال. بمساعدة جهاز رَفْع رُكّب في الشاحنات التي تحرّكت بهياج على الرمل. وكان كلّ ذلك على أنغام أناشيد متواصلة.

افترشت أرض خيمة الاستقبال بُسطٌ عجميّة فاخرة من كرمان الفارسيّة. وبُطِّن داخلها بأقمشة هَدِلة من الحرير الزاهي اللون. وعُلّقت لمبات كهربائيّة حيث يجب، وحُثَّت المولّدات لتدور، وُضعت هنا وهناك سخّانات هواء لدرء برودة المساء. ونُصِبَ كرسي مزخرف ومذهّب على منصّة من السجّادات العجميّة، وإلى جانبه الهاتف الأبيض الحتمي والكرنك إلى جانبه.

شكلّت الخيمة قاعة الجلسات حيث استقبل الملك سعود زعماء القبائل وأفراداً منها. نُصبت الخيمة إلى جانب مقطورة الملك، حيثُ وُصِلَ بها معبرٌ قماشي آمن. كان هذا القصر المتنقّل، الذي صُنّع في تولسا بولاية أوكلاهوما الأمريكيّة، فخراً لِفنّ المقطورات المتنقّلة، إذ اشتمل على غرفة نوم بسرير ضخم يتعدّى حجمه الأحجام المألوفة ليتّسع للحاكم الطويل القامة، ودورة مياه بمغطس من القياس الكبير جدّاً وأدوات صحّيّة ذهبيّة، وغرفة جلوس أنيقة التصميم مزيّنة بالدمقس الأخضر الحريري المزركش بخيوط ذهبيّة متشابكة.

ضُرِبت خيمة جهاز الاتّصال ثانياً. كان لا بُدّ أن يكون الملك على اتّصال فوري مع الرياض. ثمّ، تبعها نصب الخِيَم الأخرى للمستشارين وعلية القوم من حاشية الملك. كان لكلٍّ سجّادته العجميّة وسريره وطاولته ومدفأته الكهربائيّة المحمولة وإبريق القهوة الخاصّ به. نُصبت أيضاً خِيَمٌ أخرى شكّلت مكاتب ميدانيّة لفريق العمل الإداري.

فُرشت هذه الخِيَم بمكاتب وطاولات وكراسٍ وخزاناتٍ للملفّات وآلات كاتبة وهواتف. كان العمل ينتقل بانتقال رئيسه أينما حلّ. نصب الموظّفون الأقلّ شأناً مآويهم بأنفسهم: لم يكن لديهم أيّ من التجهيزات الحديثة، وكانوا يغلون قهوتهم أو شايهم بحسب جنسيّتهم عرباً أم أفارقة أم هنوداً على نار أوقدوها في الهواء الطلق أمام خيمهم. ولِوقد نيرانهم، كانوا يجمعون ما توافر لهم من كِسْرات الفحم أو بَعر الإبل الجافّ في المخلّفات الرمليّة.

سافرتُ في قطار المؤن، وكان طاقم المطبخ مسؤولاً عن نصب خيمتي. بعد أن اخترتُ مكاناً لها، انصرفتُ إلى الإشراف على إعداد الطهاة للعشاء وتحرّك النُدُل فيما أنزلوا صناديق الأواني

الكريستاليّة والخزفيّة – وهي مهمّة تقطع الأنفاس إذ لديهم تلك العادة المُفجعة في تقاذف الصناديق وكأنّهم لاعبو كرة سلّة في وسط تمرين محاورة. ولمّا ارتفعت خيمتي ملامسةً الأفق، انسحَبتُ إلى مسكني الصحراوي هذا الذي كان مكتمل الفرش:

سجّادة عجميّة، وسرير، ومدفأة كهربائيّة، وأضواء كهربائيّة، ومبّرد ماء، وخِزانة على رفوفها كلّ شيء فوري، وطاولة، وكرسي وآلة كاتبة. فيه كنتُ أضع قوائم الطعام لليوم التالي. وبين تنقلاتي للتأكّد منأنّ تحضيرات إطعام الجمع الغفير كانت تسير قُدُماً، كُنت أُبقي مسكني مفتوحاً لسلسلة لامتناهية من الزوّار. كانت تلك الزيارات تستمّر أحياناً حتّى الليل، ومطوّلاً بعد أن يكون دوام عملي قد انتهى على ما يُفترض. كان أفرادٌ من حاشية الملك الذين صدف استقبالهم كضيوف، يرسلون خَدَمهم إليّ طلباً لخدمات خاصّة على شكل مؤنٍ إضافيّة. أما البدو، فجاؤوا خلسةً إلى خيمتي لمسارقة "الكافر" نظرة. كنت أستفيق من نومي أحياناً لأرى خيال شخصٍ عكسه الوهج المحمّر الخفيف الآتي من مواقد النار على وشك الخمود أمام الخِيَم القريبة، لأرى زائراً بلحية داكنة يحدّق مستغرباً إلى وجهي الشاحب والذي كان يشحب أكثر فور رؤيتي له. وكانت المِعاز والأغنام الهائمة تعرّج عليّ تاركةً عند مدخل خيمتي بطاقاتها التعريفيّة المعطَّرة.

بعد وقفتنا الأولى، ارتديتُ الزيّ الذي قدّمه إليّ الملك سعود، ذلك أنّ رجال القبائل الصحراويّين كانوا واضحي الانزعاج من لباسي الغربيّ. لم أتمكّن البتّة من تعوّد لباسي الجديد. كنت أوشك أن أتحوّل كرة نار مشتعلة في كلّ مرّة هبّت فيها ريح فجائيّة ولطمت وجهي بطرف الغترة مستهدفةً سيجارتي المشتعلة. كان قماش الغترة الرقيق سريع الاحتراق، فيغطّي رأسي سديمٌ من الدخان إلى حين أتمكّن من رمي الغترة أرضاً وسحقها في الرمال سافعاً على الدوام قدميّ المنتعلتين صندلاً؛ وكان البشت الطويل البهي، الذي ارتداه العرب بفخامة ينجح في طرحي أرضاً كلّما نسيتُ جلب القرآن الكريم مثلاً، وحاولتُ الحراك بسرعة. كانت أوّل خطوة

سريعة لي تُثبّت حافّته الفضفاضة في الرمل تحت قدمي، لتأتي خطوتي الثانية على طرحي أرضاً. بحلول نهاية الرحلة، كنت قد احترفتُ السقوط ولم أتقدّم سوى خطوة على درب احتراف لبس البشت.

قبل وصول الملك سعود بوقت طويل إلى موقع المخيّم في وقت متأخّر من بعد الظهر، كانت مدينة الخِيَم قد بدأت تمتلئ بالبدو الذين جاؤوا ليقدّموا احترامهم لحاكمهم وليلتمسوه العون. من بينهم كان الكُسحان والعاجزون والموقّرون والميسورون وكان من بينهم نسوة مستترات خلف حُجبهنّ السود. لكن كانت النسوة تبقين على مسافة. أحياناً فقط كان بعضهنّ يقترب من الخِيَم برفقة أولادهنّ رثّي المظهر المثيرين للشفقة متعلّقين بهنّ – وينقّبن في النفايات عن لقمات من الطعام. وكانت كثيرات منهنّ يتمركزن على الدرب الذي سيتّخذه الملك سعود في الصباح التالي لدى تحرّكه، وغالباً ما كنّ ينتظرن طول الليل إلى حين يمرّ الملك، آملات أن يقوم جوهر، حارس الملك الشخصي والذي كان مسؤولاً عن توزيع البقشيش، برمي بضع ريالات في أيديهنّ المزخرفة بالحنّاء الأحمر.

انسحب الملك إلى مقطورته لدى وصوله لأخذ استراحة قصيرة، ثمّ عقد جلسة في خيمة الاستقبال. استقبل أوّلاً الزعماء القَبَليّين، الذين بدوا من كلّ الألوان وغير مرتاحين في أثوابهم الرسمّية. أصغى إليهم بانتباه فيما أخبروه بحاجاتهم ومشكلاتهم؛ دوّن سكرتيره طلبات المؤن التي ما أمكن تأمينها من مخزون القافلة، ليتمّ لاحقاً طلبها من الرياض عبر جهاز اللاسلكي ونقل كلّ ما يلزم إلى المخيّم في الصباح التالي.

تالياً، حضر أمراءٌ من القرى المحيطة بالمنطقة للمثول أمام الملك. كانوا يخبرونه عن آخر هطول للمطر أو شحّه، ويشتكون من ندرة الطرائد البرّية في الصحراء ويطلبون بناء مسجد جديد.

أخيراً، تقدّم من الملك رجالٌ قَبَليّون كانوا قد تمكّنوا من بلوغ خيمة الاستقبال رغم التدابير الوحشيّة التي اتّخذها الحرس لإبعادهم – تدابير كانت لتثير ثائرة الملك لو عَلِمَ بها.

كان كلٌّ منهم يحمل كالعادة رسالة خربش فيها أحد كتّاب الرسائل العامّين في أحد أسواق الصحراء مصاعب حامل الرسالة وطلبه بالعون، كان معظم البدو يتسلّحون برسائل مماثلة. وكانت هذه المناشدات تمرّ على أفراد من حاشية الملك. وحدهم من اعتُبروا الأجدر بانتباه الملك، كان يُجاز لهم الوصول إليه، وكان المُستدعون المحظوظون يُمنحون مبالغ بسيطة من المال. وأولئك الذين حُرموا إذن رؤية الملك، كانوا يتقبّلون حظّهم العاثر بهزّة كتف قدريّة لعلّ دورهم سيحين المرّة المقبلة.

عند ختام الجلسة، كان شعراءُ من القبائل والقرى يُنشدون أغاني مديح ويُلقون قصائد ثناء مطوّلة على مسمع الحاكم. كان الملك سعود يُصغي بصبر، لكن أحياناً كانت عيناه المستترتان خلف نظّارته الداكنة، تُغمضان تَعَباً. وكان إلقاء القصائد يستمرّ إلى حين موعد صلاة المساء، فينهض الملك ويتقدّم الحشد خارج خيمة الإستقبال. كانت الحشود من ثمّ تواجه مكّة المكرّمة متسلسلة في صفوف خلف قامة الملك سعود المنفردة، كانوا يركعون، ينحنون إلى أمام، يقفون، ويركعون ثانيةً لتقبيل الرمل وكأنّهم واحد. حتّى النسوة الواقفات في تجمّعات بعيدة بأطيافهنّ السوداء الظليلة، كنّ يشاركن في الصلاة. للحظة، كان الجميع متساوياً في تعبّده لله.

كان المشهد مؤثّراً ودرامياً في آن. ومع أنّني رأيته مرّات كثيرة من قبل، غير أنّه حرّكني هذه المرّة.

بعد صلاة المساء، كان الملك سعود يتناول العشاء. وحده الملك والمسؤولون الأعلى شأناً كانوا يتناولون وجباتهم في حُجرة الطعام الضخمة المتنقّلة. كان الطعام يُعَدّ في مطبخ موصول بحجرة الطعام الملكيّة عبر ممرّ مسقوف، وكانت نوعية الوجبات لا تختلف عن تلك التي في الرياض. تناول أفراد الحاشية الباقون طعامهم في خِيَمهم.

وللحرص على كفاية المؤن لكامل الرحلة، أصدر الملك أوامر قضت بألاّ تتعدّى كمّيّة الطعام اليوميّة الحصص الطبيعيّة للوجبات. مع هذا، كان أحمد، مسؤول المؤن اليمني لدينا، يتعرّض لمضايقات متواصلة من خدم أفراد من حاشية الملك يطلبون أطعمة إضافيّة. وبما أنّ كمّيّة الطعام اليوميّة كانت أكثر من كثيرة، اشتبهتُ بأنّ بعض ضيوف الملك كانوا يبيعون الطعام إلى البدو أو يُقايضونه لقاء خدمات. أعطيتُ تعليماتي إلى أحمد بردّ تلك الطلبات، والإبقاء على شاحنات المؤن مقفلة في كلّ الأوقات، وبإعطاء مؤنٍ إضافيّة بناءً على إذنٍ خطّي منّي فقط. كان أحمد رجل ضمير وكان انصياعه الأعمى لأوامري سبباً أدّى إلى أشدّ مصائب جولتنا الصحراويّة.

كان أبناء الملك سعود، الذين قُدِّر عددهم الإجمالي، على اختلاف التقديرات، بأربعين ابناً إلى ستّين في خلال سنين عملي الخمس مع الملك، غالباً ما يأتون منفردين إلى الصحراء في نُزهات، هرباً من رتابة الحياة في الرياض.

مع بلوغ كلّ ابن خمس سنين من عمره، كان يتلقّى نفقة سنويّة قدرها ٧٥,٠٠٠ دولارٍ أمريكي، إضافة إلى مجموعة خاصّة من العبيد والخدم والحرس. وبما أنّ الأبناء كانوا يُخطبون للزواج قبل بلوغهم العاشرة من العمر، كان كلٌّ يحصل على قصره الخاصّ. لكن وحدهم الأمراء البالغون كانوا يغامرون بالذهاب إلى الصحراء برفقة حاشيتهم المستقلّة. وإذا علموا بأنّ الملك سعود في جولة على الصحراء، كانوا يخيّمون أحياناً في المنطقة ذاتها – لكن على بُعد مسافة كافية اجتناباً لوقوعهم في الواجبات الرسميّة القاتلة. ذات مساء، لدى عودتي إلى مخيّمنا بعد التنزّه مشياً في الصحراء، جاءني أحد الفتيان العاملين في المطبخ مضطرباً. أخبرني منفعلاً أنّ أحدهم جاء وأخذ أحمد.

"ماذا تعني أحدهم جاء وأخذه؟ مَن كان؟".

"قالوا إنّهم حرس الأمير".

"حسنٌ إذًا، لِمَ أخذوا أحمد؟".

"أوّلاً، جاء خادمٌ إلى أحمدَ وقال له إنّ أميره يريد صندوقاً من البرتقال. أخبره أحمد أنّ عليه الحصول على إذن خطّي منك. لكنّك لم تكن هنا، لذا شَتَم الرجل أحمد وقال له إنّه سيعود لأخذه وتعريضه للضرب. رحل، ثمّ عاد برفقة حارسين من حرس الأمير وشدّوا أحمد إلى سيّارتهم وقادوها مغادرين".

استدعيتُ سائقي حسّان وقلتُ له إنّ علينا إيجاد مخيّم الأمير وإنقاذ أحمد. كان الظلام قد حلّ في حينه، ولم نكن ندري مدى بُعد مخيّم الأمير. انطلقنا مع ذلك في الشاحنة الصحراويّة ذات العجلات الإثنتي عشرة، وفي الاتّجاه الذي سلكه الخاطفون. تبدّدت أنوار مخيّمنا مع تقدُّمنا، وفيما شققنا طريقنا عبر الرمال وليل الصحراء، أعلمني حسّان أنّ الأمير كان في الخامسة عشرة من عمره فقط، إنّه جامح الطباع وأفضل نصيحة هي أن أحترز في التعامل معه.أخيراً بان لنا مخيّم الأمير. انطلق حسّان بالشاحنة مُسرعاً لدى مروره بِخِيَم الحرس وقاد مباشرةً نحو الخيمة الكبرى التي استنتج أنّها خيمة الأمير. توقّفنا أمام الجهة المفتوحة من الخيمة. استلقى سموّه على الأرضيّة المفروشة بالسجّاد يلعب الورق مع رفاقه – كان لَعِبُ الورق محظوراً في المملكة. سكب خادم القهوة في الفناجيل الصغيرة للرجال المحيطين بالأمير، غير أنّ أمامه هو كان ثمّة كأس مملوءة إلى النصف بما أمِلتُ أن يكون شاياً. وقف أصدقاء الأمير فيما ترجّلتُ وحسّان من الشاحنة ومشينا نحوهم. رفع الأمير بصره إلينا متفاجئاً. استهللتُ حديثي بحدّة: "سمّو الأمير، جئتُكم بحثًا عن مسؤول المؤن لدى مولاي والذي أُخذ من مخيّمنا هذا المساء". بالطبع، لم يفهم الأمير كلامي وترجم حسّان ما قلت. على أثره، وقف الأمير ومشى نحونا في خطىً مترنّحة. وقد رسم ابتسامة جامدة على وجهه.

سأل: "هل أنت الأمريكاني؟ الذي يعتني بوالدي؟".

هززتُ رأسي إيجاباً.

قال آمراً: "قلْ لي مجدّداً، ما بالضبط جئتَ تبحث عنه هنا؟".

فيما كرّر حسّان القصّة للمرّة الثالثة، بدا لي بوضوح أنّ الأمير كان ثملاً، وكان من شأن تجشُّؤه العالي والفوّاح أن أثبت شكّي بأنّ الشاي الذي كان يتناوله قد غُلِيَ في إيرلندا أو حتى في ولاية كنتاكي الأمريكيّة. تساءلتُ كيف تدبّر ستر سرّه الصغير عن الملك سعود، الذي كان والده الملك عبد العزيز قد أصدر مرسوماً يقضي بحظر الكحول في البلاد، كانت شائعات قد تناهت إليّ في مطبخ القصر عن عادات الشُرب لدى بعض أفراد العائلة المالكة، لكن هذه الواقعة كانت لقائي الأوّل المباشر مع أمير مخمور. تمنّيتُ عندها لو لم يكن أحمد على هذا القدر من الإذعان لي.

أخيراً، استوعب الأمير ما كان حسّان يقوله، وانفجر الغيظ الملكي فيه: "أَوَ تتجرّأ المجيء إلى خيمتي واتّهامي بأنّني أمرتُ حرسي بسرق مسؤول المؤن لديك؟".

أجبتُ: "نحن لا نتّهم سموّكم بأيّ شيء. لقد نقلتُ لكم ما أُبلِغتُ به: أنّ اثنين من حرسكم أتيا وأخذا أحمد، لذا، أطلب إليكم السماح لنا بالتحدّث إلى حرسكم لنرى إذا كان هناك".

صرخ الأمير غاضباً: "فتشّ المخيّم وتعال بأحمد هذا إليّ إن وجدته! وآمل أن تجده، خدمةً لك". عاد إلى مكان استلقائه على الأرض وارتشف الشراب من الكأس وحاول العبوس بي؛ لكن بدا لي بوضوح أنّ شكلي المتمدّد كان يتحرّك بسرعة في مدى تركيزه بحيث عجز عن النظر إليّ بمجامع العين. ذهب رَجلان من رجال الأمير ليبحثا عن أحمد. رافقهما حسّان، وتركني واقفاً مكاني أفكّر في المستقبل، ومدى قِصَره على الأرجح. في خلال نصف الساعة التي لحقت ذهابهم، لم تُوجّه ولو كلمة إليّ. استأنف الأمير ورفاقه اللعب. ووقفتُ منعزلاً وسط الخيمة أُحصي العُقَد في سجادّة عجميّة مقلوبة.

أخيراً، سمعتُ أصواتاً في الخارج، وظهر حسّان والرَجلان. قال أحد أُمناء الأمير: "سموّكم، لم نجد هذا الأحمد. لم يأتِ هذا المخيّم أصلاً. قال الآخر موافقاً "نُقسم بالله"".

والآن، بات الله ضدّي، كما لو أنّ أميراً سعوديّاً مخموراً لم يكن كافياً. بعد أن قدّم الرَجلان بلاغهما علناً، تقدّما ناحية الأمير، قبّلا ظاهر يده وأخذا يتحدّثان إليه بنبرة محمومة. وفيما قاما بذلك، أمسكا بطرف غترتهما مخبّئَتين وجههما إيحاءً بحالة من السرّيّة - دَرَج السعوديّون على فعل ذلك في أكثر الأحيان رسميّةً أو عاديّة - لكن وإن عجزنا عن الرؤية، أمكن لنا مع ذلك سماع الحديث، وعرفتُ أنّ حسّان سيقدّم لي بلاغاً كاملاً لاحقاً. ضحك الأمير بصخب، ووجّه لكمة إلى بطن أحد الرَجُلَين ممازحاً.

سألتُ حسّان بعصبيّة: "ما الذي سيحدث؟".

همس حسّان: "سأخبركَ في الشاحنة".

نظر إليّ الأمير وهو على ضحكه وقال: "يقول لي رَجُلاي، ويُقسمان بالله، أنّ لا أحد من طاقم العمل لديك أُحضِر إلى مخيّمي، لذا تستطيع الآن العودة إلى مخيّمك. قرّرتُ أنّ مجيئك كان ساراً، يبدو أنّك وأحمد هذا مخلصان جدّاً لوالدي".

ورفع كأسه في نخب، فيما حاولتُ ابتلاع اندهاشي لتغيّر موقفه المفاجىء.

وإذ نحن في أمان الشاحنة، منطلقَين إلى حيث أملتُ أن يكون مبيتنا، سألتُ حسّان مجدداً عن فحوى الوشوشة.

قال حسّان:"أُخبِرنا بالحقيقة، لم يتمّ إحضار أحمد البتّة إلى مخيّمهم. ذانك الحارسان اللذان ذهبا معي هما من اختطف أحمد، قالا لي إنّهما حاولا إرغامه على إعطائهما صندوق برتقال، أرادا مفاجأة الأمير ببعض الفواكه الطازجة، لأنّ مخزون المخيّم عندهم كان قد نفد تماماً. جُنَّ

جنونهما عندما رفض أحمد إعطاءهما البرتقال، لذا أخذاه في نزهة، ضرباه وهدّداه بالقتل إذا أخبر أيّاً يكن بما حصل، ثمّ أخليا سبيله ليجد طريق عودته إلى المخيّم".

"أسيكون بخير؟".

"قالا إنّه كان بخير عندما تركاه وإنْ تَبعَ آثار عجلات السيّارة لا بُدّ من أن يستطيع إيجاد طريقة. لم يصطحباه بعيداً".

قلتُ متعجّباً: "هذا سُخف، لمَ يفعلان ذلك بأحمد ثمّ يخبرانك بالأمر بعد تهديدهما أحمد بالقتل إن تفوّه بكلمة! من المؤكّد أنّهما يعرفان بأنّك ستخبرني بما حصل. ولن يمنعنا شيء من العودة وإخبار الأمير؟".

قال حسّان: "أنت لا تفهم". ثمّ تابع حديثه بإعطائي درساً في نمط الحياة السعوديّة.

الحارسان، اللذان كانا عبدين أيضاً، لازما الأمير منذ طفولته. ومهما حصل، سيؤمّنان له الحماية، سيموتان فداءه مسرورين، لأنّ الله أراد ذلك. ومقابل وفائهما، أمّن الأمير الحماية لهما وعاملهما كجزء من عائلته. طالما يكون لأمير سعودي وكلاءُ مماثلون من حوله أكانوا عبيداً، أو أحياناً أحراراً - يكون قد كَبُرَ معهم أو اختارهم محسوبين عليه. أحياناً يصل هؤلاء الأشخاص إلى مراكز مهمّة في الحكومة. مثلاً، وزير الماليّة الأسبق لدى الملك سعود كان عبداً فيما مضى.

قال حسّان: "انظر إلى جوهر، اختاره جلالته عندما كان كلاهما فتيّاً ولازمه جوهر منذ ذلك الحين. ملايين الريالات تمرّ بين يديه لأنّه يتولّى توزيعها على الفقراء".

بحسب حسّان كانت يد جوهر لصوقة "فالكثير من المال يعلق فيها". لكن من يتفوّه بكلمة إلى الملك سعود، يجني على نفسه.

تابع حسّان:"كان رَجلا الأمير يخبران سيّدهما عمّا فعلاه وعن السبب الذي دفعهما إلى طلب البرتقال. وطبعاً، لزيادة الوضع زخماً، أخبراه أيضاً أنّهما ضربا أحمد لأنّه لم يحترم الأمير وأرادا أن يلقّناه درساً لن ينساه".

من الطبيعي أنّ الأمير كان مسروراً لتفانيهما. لن يعاقبهما مهما قلنا له. و"لِمَ سيصغي إلينا بدلاً من الإصغاء إلى أصدقائه؟".

سألت: "لكن، أليس من الخطر أن يكون الأمير قريباً الى هذا الحدّ من عبيده؟".

ماذا لو عَرَفَ الملك سعود أنّ ابنه يتناول الكحول؟ قد يقضي مرسوم بإرساله خارج البلد لأنّ قانون حظر الكحول كان جازماً جدّاً.

سأل حسّان: "لكن مَن سيقوم بإخبار جلالته؟ أو مَن له أن يُثبت أن الأمير كان يتناول الكحول؟".

أخبرني حسّان أنّ أحد الأمراء، والذي كان في الرابعة عشرة من العمر، كان "مدمن كحول". لكنّ عبيده كانوا آخر من يأتي على ذكر الأمر. وسيكونون شديدي الغباء إن فعلوا. هم يتقاضون أجراً جيّداً وبعضهم ثري، سيخسرون كلّ شيء إن قدّموا شكوى ضدّ سيّدهم. أنهى حسّان الدرس بعبارة ختاميّة مُتقَنة، قال: "قد لا يوجد عبيد في بلدك، لكن لا بُدّ من وجود أشخاص يخشون خسارة وظائفهم وليسوا على قدر الثراء الذي يملكه عبيد الملك".

لم أتفاجأ عندما علمتُ أنّ حسّان كان يطمح إلى أن يكون أحد المختارين. قال: "ربّما سيحدث ذلك يوماً ما إن شاء الله".

فيما كنّا على الدرب، سرّحنا نظرنا في الظلمة آملين سُدىً إيجاد أحمد. لدى وصولنا إلى المخيّم، كان الوقت قد تخطّى منتصف الليل، كانت مولّدات الكهرباء قد أُطفئت لئلّا تُقلق نوم الملك، والنور الوحيد الذي أضاء المكان كانت مواقد النار المشتعلة أمام بعض الخِيَم. كانت

إحداهما أسطع من الأخريات وكان ثمّة حشد متحلّق حولها. عندما أوقف حسّان الشاحنة، استطعنا سماع الكثير من الهياج، فأسرعنا إلى هناك. وقف أحمد وسط المجموعة، كان وجهه متورّماً ومخدوشاً وظهرت حلقة من السواد حول إحدى عينيه، لكنّه تباهى سعيداً بإخبار مستمعيه قصّة مفاخره، فيما استجاب مستمعوه إلى حديثه بالتهليل عند كلّ لقّة منها. أخبر أحمد، بحركات تعبيريّة، كيف ضرب مُختَطفَيْه، وكيف قفز من سيّارتهما ولاذ بالفرار. سأل أحد الطهاة، العمليّ بطبعه، لماذا يبدو وقد ضُربت بذقنه الأرض لو أنّه أشبعهم ضرباً فعلاً من دون ولو لحظة تردّد؟ أجاب أحمد أنّه سقط سقطة قوية فيما حاول الفرار.

همس لي حسّان، هازاً رأسه ومبتسماً: "أحمد رجل طيّب لكنّه كاذب ممتاز".

في صباح اليوم التالي، أيقظني أحد الحارسَين اللذين التقيتهما أمس في مخيّم الأمير. فيما رمشتُ شبه مُغمَض، رأيتُه يُلقي على الكرسي عباءة جميلة باللون الأزرق النيلي عند أطرافها تطريز بالذهبي والفضّي، ووضعَ على طاولتي كيساً قماشيّاً صغيراً. قال: "يُرسل سيّدي تحيّاته لك ويتمنّى أن تقبل العباءة هديّة منه على حُسن خدمتك لوالده. في الكيس تقدمة ودّية إلى أحمد منّي ومن صديقي، الله يعافيك". واختفى عبر فتحة الخيمة.

قفزتُ سريعاً من سريري وناديتُ أحمد. أعطيته الكيس، الذي كان مثقلاً بِالريالات الفضّيّة. قلت:"أحضرَ لك أحد الحارسَين اللذين ضربتهما أمس ديّة قتيل لكن لديّ سؤال واحد لك يا أحمد. أهي ديّة قتلك أم قتلهما؟". ارتبك، هل سأفضحه؟

ثمّ تراجع بحذرٍ شديدٍ نحو فتحة الخيمة، وقال بصوت خفيض فيما انحنى: "أنت سيّدي. القرار لك". أطرَفَ لي، وأسرع خارج الخيمة.

سُمّيت غارات الأمراء الصحراويّة رحلات صيد، لكنّ ذلك كان تلطيفاً لغويّاً؛ قَلَّ الصيد لقلّة الطرائد التي كانت وفيرة يوماً قبل قتلها. وباتت الغزلان أو حيوانات المها العرَضيّة الباقية

شديدة التيقّظ إزاء صوت المركبات والطائرات وروائحها، إذ كانت تُقتل منها. فلم تعد تُرى إلاّ نادراً. مع ذلك، استمرّ الصيد. كان أفرادٌ من حاشيتنا مجهّزين بما يكفي من الأسلحة المدفعيّة أمكن لها إسقاط طائرة حربيّة من طراز U-٢ . كانوا يخرجون ويرجعون إلى المخيّم بعد يوم كامل من المطاردة، وفي جعبتهم أرنب مهزول أو عُقاب نحيل فقط. كان الطهاة يُعدّون الأرنب وجبة للملك سعود، فيما تغذّى طاقم المطبخ على العقاب.

كان حسّان الذي رافقته في شاحنته، صيّاداً متمكّناً. وتفانياً منه للتحدّي الذي تطرحه المطاردة، كنّا نصرف معظم أوقاتنا نلحق بالقافلة. كنّا نسافر وهو يضع البندقيّة في حُضنَيْنا، وبمجرّد رؤية سرب طيور أو جرذ صحراوي أو حيّة رمليّة أو حفنة من الرمل حرّكها نسيم، كنّا نخرج عن مسار القافلة ونروح نثب فوق الجُنيبات الخفيضةالقاسية التي كانت تنبت أحياناً في رحاب الصخر والرمل. أطلق حسّان النار على كلّ ما تحرّك، لكن لحسن حظّ حيوانات المملكة، نادراً ما أصاب أيّ شيء. من جهة أخرى، كانت مهاراته في القيادة تُصيب الهدف تماماً، لم يترك بقعة رمال رخوة إلاّ ونزل فيها. وغالباً ما أودى بنا ذلك إلى أماكن عجزت عجلات سيّارتنا الضخمة عن الخروج منها. وكالعادة، كان حسّان يخرج من دون رفش، فيزحف تحت الشاحنة ويروح يجرف الرمل بيديه عن العجلات الاثنتي عشرة فيما كنت أجلس داخلها وصدري يغلي غيظاً.

في المرّة الثانية التي علقنا فيها، صرخت به:

"أين رفشك بحقّ الله؟".

"لا رفش لدينا. إنّه حيث كنّا، لكنّ الله سيُعيننا".

جيّدا! و بعد ساعة، هدأتُ فترجّلتُ لأعينه وأعين الله في مشروع إزالة الرمل. كان الأمر أشبه إلى حدٍّ ما بتفريغ الماء من قارب لا قعر له في بحيرة "سايبريور". في خلال وقفاتنا المباغتة تلك، كنّا

نصادف أقلّه لمرّة في كلّ وقفة، عقرباً أو أفعى يُسرعان في الخروج من الرمل الذي كنّا نجرفه بكفّينا. كان حسّان الواثق ثقة مطلقة بالله، لا يرفّ له جفن. فيما كنتُ أنا، المفتقر إلى الإيمان، أنسحب مسرعاً إلى مقصورة الشاحنة، متأرجحاً بين غضبي من عاداته في القيادة وحسدي له على إيمانه الثابت.

أحياناً، كانت رحلات القنص التي يقوم بها حسّان في ملاحقة أرنب أو طير تأخذنا بعيداً عن القافلة بحيث كنّا نُجبَر على قضاء الليل وحدنا في الخلاء. في ذاك القفر العقيم من كثبانٍ قولبتها الريح، ورحابٍ من الرمل المتموّج الذي ما اخترقت صمته سوى كرة شوكيّة عرضيّة، كنت أعتقد أنّ تلك الحلقة الباهتة اللمعان فوق رأسينا والأبعد من متناولنا على ما بدا، كانت كوكب الأرض المشعّ، فيما كنتُ وحسّان عالقين على القمر. كان سرير حسّان عبارة عن خندق ضيّق محفور في الرمل تحت الشاحنة.

نام نوم طفل تحت بضع بطّانيات متدفّئاً من جهات ثلاث بفضل أشعّة الشمس التي امتصّها الرمل في خلال النهار. كنتُ أنام في الشاحنة. وفي تضارب صارخٍ مع النهار، كانت ليالي الصحراء شديدة البرد شتاءً. استعملتُ مِشلح جلد الغنم الذي قدّمه الملك سعود لي أفضل استعمال، لكنّه لم يردّ الرمل وريح الصحراء الجانحة عند نوافذ الشاحنة والآتية على ما بدا، من كلّ صوب. والتي كانت تنسلّ عبر كلّ فتحة صغيرة لتضخّ عبرها حُبيبات الرمل. رغم انزعاجي، كنتُ أنام نوماً هانئاً بعد تعب الجولة الأفعوانيّة النهاريّة ولا أستيقظ إلاّ على صوت صلاة الصباح التي كان حسّان يتلوها. كان يركع على الرمل، مواجهاً مكّة المكرّمة ويصلّي،"لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله. الله أكبر..."، مقاطعاً ترتيلته الإيقاعيّة المتواترة لينحني مقبّلاً الرمل ثمّ ينهض. خلفه، تكون الشمس قد لكزت آخر بقعة من الظلام مُشكّلةً يوماً جديداً ومؤطّرةً المشهد بدفءٍ منتشر. كانت بساطة لحظات تقوى هذا الرجل في وسط قفر مطلق، ما يخلق

تجربة دينيّة عميقة جميلة مقتصرة على الأُسس الروحيّة الجوهريّة المؤلّفة من الله والطبيعة والمخلوق.

بعد أن أكون قد نفضتُ عنيّ أكوام الليل من الرمل، كنّا ننطلق عبر الصحراء بحثاً عن المخيّم والفطور. كانت القافلة تلازم الموقع ذاته أحياناً لعدّة أيّام إنْ وُجِدَ عددٌ من القبائل والقرى في المنطقة. كلّما طالت المحطّات، أتاحت للملك التواصل مع البدو بشكل أقرب وأسهل، هم الذين كان دعمهم وولاؤهم ضروريّين لاستمراريّة الحكم الملكي. كما أتاحت له أن يستريح ويتسلّى. غالباً ما كان يخرج أوّل المساء إلى الصحراء مع مربّي الصقور في جولة صيد.

كانت الحاشية تجول الرمل في سيّارة كاديلاك سوداء ضخمة. حَمَل كلّ صيّاد صقره الحادّ البراثن على كفّ سميك وهو رباط ثخين من حصير يحمي معصمه وزِنده. كان الصقر مقنّعاً وساقاه موثقتين بسير جلدي. وإذا لحسن الحظّ لُمِحَ سرب صغير من الطيور الصحراويّة، يُفكّ السير ويُزال القناع، وتحلّق الصقور في الهواء، وإذ تنقضّ من أعلى، كانت تطوّق الطيور ببراثنها المسنونة، وترجع إلى مجثمها على أيدي الصيّادين المكفّفة. كانت الطيور الصغيرة، ذاك الطعام الفاخر، يُقدّم لاحقاً للملك.

كان الملك يرجع من هذه الجولات منتعشاً. ينادي من ثمّ على بهاليله ويستمتع بتصرّفهم المرح، حتّى إنّه كان يُشارك أحياناً في تلك التمثيليّات الهزليّة الخشنة. كان مزاح البهاليل المفضّل شكلاً بريّاً من لعبة "اضرب واهرب" حيث كان الملاحِقون يحاولون ضرب المُطَارَد بجزء من حبل عُقِدَ طرفه. وكلّما كان أحد يتعب من الركض، كان يختبىء تحت كرسي الملك سعود التي كانت الملجأ المُجاز الوحيد ويختلس النظر عبر ثنيات ثوب الملك مستهزئاً بمعذّبه. أحياناً، متى خرجت اللعبة عن السيطرة، كان الملك سعود يحمل حبلاً وينضمّ إلى المطاردة ويلاحق بصرامة أكثر اللاعبين جموحاً. في أحيان أخرى، كان المزّاحون يتلون النكات ويقومون بحركات وإيماءات تمثيليّة مضحكة راوحت بين هزل وفَسق.

في أثناء تلك المحطّات المطوّلة، كانت مدينة الخِيَم تعمل على القدر ذاته من الفعاليّة كما في مجمّع الناصريّة في الرياض. كنّا على اتّصال دائم مع الرياض عبر اللاسلكي، وكنتُ أُستدعى إلى خيمة اللاسلكي أقلّه مرّة في اليوم لأُترجم برقيّة بالأسبانيّة أو الفرنسيّة أو الألمانيّة أو الإيطاليّة أُبرقت إلى الملك.

كلّ صباح، رعى رعاة بدو قطعاناً صغيرة من الأغنام إلى المخيّم. كان جوهر، رئيس عبيد الملك سعود وحارسه الشخصي، يتفحّص الأغنام ويقرّر أيّها سيُشترى للذبح، لتُساق الضحايا من ثمّ إلى خيمة الجزّارين. ارتكبتُ ذات مرّة خطأ التوقّف لمشاهدة العمليّة. غطّت الأرض بقايا ذبيحة اليوم السابق وكانت الرائحة النتنة لا توصف؛ لكن لم يبدُ الجزّارون منزعجين منها ومضوا في عملهم برباطة جأش. كانت الشاة الذبيحة تُوجَّه نحو مكّة المكرّمة وكذلك يفعل الجزّار. تُتلا صلاة قصيرة، ثمّ تُعدم الشاة بشرطة واحدة سريعة من الوريد إلى الوريد في عنقها الصوفي بسكّين حادّ كان يجعل من دمها فيضاً يتدفّق على الرمال والجزّار وأي مُشاهِد قد يكون حاضراً. في العادة، كان ليُغمى عليّ لمشهد مماثل، لكنّ الخوف من السقوط في القذارة على الأرض جعلني أتمالك نفسي وأتوجّه بها في غثيان نحو خيمتي.

في طريقي صادفتُ بدوياً كان يجرّ قطيعه الصغير خارج المخيّم. من الواضح أنّ يومه كان سيّئاً في سوق الأسهم. لم يشترِ جوهر أغنامه. حيّاني مكتئباً، وانبرى يتكلّم معي في حديثٍ لم أفهم منه سوى القليل. كانت لغتي العربيّة مقبولة في العموم، حتّى أنّني امتلكتُ مخزوناً إضافيّاً بسيطاً من عباراتٍ قلّ استخدامها مثل "ما لون الكتاب على الطاولة؟" التي حفظتها من حصص اللغة التي كانت أرامكو تدرّسها لموظّفيها. لكنّ البدوي تحدّث بلهجة خاصّة بمنطقته وكانت تلك اللهجة تحديداً محيّرة. لكن من الكلمات التي واظب على تردادها كانت الكلمة المستعملة لـ"زوجة". بعد برهة، قرّرتُ أنّه كان يخبرني بأنّ زوجته مريضة. كنت أصرف الأسبيرين بسخاء منذ بداية الرحلة وافترضتُ عندئذٍ أنّ صيتي الطبّي قد ذاع وأنّ البدوي

يطلب مساعدتي له. توقّفتُ عند خيمتي لأحضر قنّينة من العلاج الشائع. توجّهنا بعدئذٍ إلى خيمة البدوي حيث من المفترض أنّ إحدى زوجاته مريضة.

بعد أن سِرنا نحو كيلومترين، بلغنا الخيمة السوداء، أحد الفساطيط (بيوت الشَعر) المنسوجة من صوف الغنم والتي شكّلت مسكن البدو منذ الأزل. فيما اقتربنا، رأيتُ أربع نساء يعدون إلى داخل الخيمة. لقد رأينني آتياً. عندما دخلنا، لم أرهنّ. ثمّ أدركتُ أنّهن اختبأن خلف ستارٍ سميك قَسَم الخيمة. كان ذاك الفاصل منسوجاً هو أيضاً من الصوف الأسود ومزخرفاً زخرفة بدائيّة باللون الأصفر والحنّاء. على الأرض، أُلقي عشوائيّاً عددٌ من البُسط المنسوجة من ضفائر صوف الغنم وشعر الماعز. خارج الخيمة، اعتلت دلّة نحاسيّة بالية وَسَطَ موقد من حصى. سكب مُضيفي بضع قطرات ماء فيها من قربة مصنوعة من جلد الماعز، ثمّ ثبّت حوالى قاعدتها بعضاً من زبل الإبل المجفّف. كانت قطع الفحم تحت الدلّة لا تزال حامية، وتحلّقت حولها لوالب من الدّخان لبضع دقائق.

فيما كان الماء يسخن، أخذ البدوي حفنة من بذور التمر المجفّفة من كيس جلدي صغير ربطه إلى خصره. سحقها في هاون بوساطة مدقّة نحاسيّة ثقيلة ووضع المسحوق في الدَلّة. وأخذ من كيس آخر عدّة بذور هيل لفّها بلحاءٍ يشبه الشاش من إحدى الشجيرات الصحراويّة. وحَشَرَ من ثمّ الحزمة الصغيرة في بَزباز الدَلّة. فَرَدَ خِرقةً من قماش وأخذ منها فنجالَين صغيرين من بين مجموعة من الفناجيل، وفركهما بالرمل خارج الخيمة ثمّ عبّأهما. أذهلتني رشاقة حركته وسرعته. لكن فيما ارتشفتُ هذا الشّراب المخمّر بلون الزعفران، أقلقني التفكير بما قد يحمله من جراثيم. كنتُ قد أخبِرتُ غيرَ مرّة أنّ خمسين في المئة من أفراد القبائل البدويّة مصابون بمرض الزّهري. يا لحظّي العاثر أن أكون قد نجوتُ من مخاطر الأمراض في العواصم الأوروبيّة والشرق، لألتقط مرضاً "اجتماعيّاً" من شرب القهوة مع بدو!

بغية أن أشيح بفكري عن مخاوفي، حاولتُ سؤال البدوي عن زوجته المريضة. التفت إلى الخِدر الذي سَتَرَ النسوة ونادى بإسمٍ.

ظهرت امرأة عند طرف الخِدر ترتدي عباءة سوداء لا تكشف سوى عينيها وقدميها الحافيتين. تردّدت ثمّ تقدّمت ببطىء. وبدلاً من الحجاب، ارتدت بُرقعاً أسود سميكاً وغريباً أشبه بقناع له شقّين رأيتُ من خلالهما عينيها تتحرك كسهام بتوتّر من زوجها إليّ، ومنّي إليه. أشار عليها سيّدها بالجلوس على إحدى البُسط الصغيرة. اتّضح من جهودي لمعرفة ما خطب الزوجة من زوجها أنّ الموضوع موضوع مال. بدا هو بقدر حيرتي. ثمّ استدعى أخرى من الحريم. استمرت لعبة الاستغمايّة الشفويّة بيننا إلى أن اصطفّت زوجاته الأربع أمامي، وبدت كلٌّ منهنّ سليمة معافاة بحكم ما سمحت به الظروف. عند ذاك، قام البدوي بحركة شملت صف الأربعَ، صوّب إصبعاً إلى السماء، ثمّ وجّهه إليّ. فجأةً، عرفتُ ما كان لون الكتاب على الطاولة!

جفلتُ عاجزاً عن الكلام. لكن أعملتُ يديّ بكل الحركات. وعندما عاودني الكلام، تمكّنتُ من أن أشرح له أنني لا أملك منزلاً، ولا يسعني بالتالي أن أشتري إحدى زوجاته. وعليه، طمأنني بأنّه باستطاعتي أن أدفع له لقاء السيدة التي أريدها الآن، وسيكون من سروره أن يبقيها في حريمه إلى حين أدبّر لها منزلاً. عندما أعلمته أنّني لا أملك المال، خفّت حماسته بوضوح. وما إن اقتنع بأنّني لا أملك إبلاً ولا أغناماً ولا معاز، أوعز على زوجاته بالعودة إلى الحريم ونقر باستخفاف زبل الإبل غير المحترق من موقد النار. وانتهى بذلك ندائي الطبّي المنزلي الأوّل والأوحد.

عند عودتي إلى المخيّم، استُقبلتُ بخبر أنّ الملك سعود كان قد قَبِلَ تلبية دعوة من زعيم مخيّم بدوي إلى مأدبة على شرفه ويَتوَقَّع منّي الحضور. حضرتُ عدّة مأدَبات من هذا النوع ووجدتُ فيها تجارب أليمة. غير أنّ جلالته كان يحضر من الولائم ما استطاع حشره في جدول الزمني لأنّها مكّنته من التعاطي مع شعبه بإلفة.

سبق المأدبة تقليد "الشبّة" لتقديم القهوة وكذلك إلقاء القصائد المُسَهبة – كان المجلس هذه المرّة في خيمة، لكن أحياناً يُقام التقليد في الهواء الطلق. نهض الملك سعود بعدها من كرسيه في المجلس إلى خيمة المأدبة برفقة الحاضرين، حيث جلسوا على بُسط، وأرجلهم مطويّة تحتهم. لم يكن من أوانٍ أو صحون. كُوِّم الطعام – الأرزّ بلحم الإبل والعجل– في أطباق ضخمة من النحاس وُضعت على الأرض أمام الضيوف الذين تناولوه بإستمتاع ومهارة. كانت المهارة لازمة فعلاً لأكل الأرزّ على الطريقة العربيّة – أي أخذ لُقمة، وعصر الرطوبة منها وتدويرها على شكل كرة وقذفها بوساطة الإبهام إلى داخل الفم بحركة سهلة وسريعة. (يتمّ ذلك كلّه باليد اليُمنى بما أنّ اليد اليسرى لدى البدو تُنسب إلى عادات دخول الخلاء). لم أتعلّم يوماً وسيلة الأكل الفنّيّة هذه وطالما تناثر الأرزّ منّ يقبل دخوله فمي. كان الملك سعود يأكل بحماسة فيما نظر إليه طبيبه الشخصي مفجوعاً.

بعد العشاء، رجع الضيوف إلى المجلس المؤقّت لتناول القهوة. في أثناء شرب القهوة – حيث كان على الجميع تناول ثلاثة فناجيل على الأقلّ بحسب الأعراف الاجتماعيّة – أخذ أحد رجال القبيلة يقرع طبلاً قديماً من جلد الغنم المجفّف والممدود على طارة. وسرعان ما انضمّ إليه الجمع يصفّقون تصفيقاً إيقاعيّاً. كان القرع شبيهاً بالنقر الرتيب على الطبل في أدغال أفريقيا لاستدعاء القبائل. نهض بضعة رجال وأخذوا يضربون الأرض بأقدامهم فيما صفّقوا. ثمّ شبكوا الأيدي لتشكيل حلقة، مستمرّين في الخبط واتّباع الإيقاع. توسّعت الحلقة بعدما انضم مزيد من الرجال إليها، وأخذوا ينشدون أنشودة صاخبة وإيقاعيّة. كان الراقصون يرفعون أيديهم المتشابكة إلى أعلى بين الحين والحين، ويتقدّمون إلى وسط الحلقة ثمّ يتراجعون. تحوّلت الحلقة إلى حلبة دار فيها رجالٌ أخذوا يلوّحون ببنادقهم القديمة الطراز ويدوّرونها فوق رؤوسهم بحركات خطرة ما لم أقل بارعة، وأخذوا يغزلون في وتيرة مفزعة أكثر منها مسلّية. بعد هذا العرض، أسرع قارع الطبل إلى تحمية طبله فوق نار جُهّزت لذلك. يُفترض أنّ السخونة تغيّر حِدّة النغم أو تحسّنه. بعد عودته، وطأ الحلبة رجلان وقد أشهرا سيفهما وأخذا يقومان

بسلسلةٍ من المناورات المعقّدة فيما علا التصفيق بجنون. وبلغ الأمر أوجّه عندما نهض الملك بذاته، دلالة على ترحيبه بالمناورات، وانضمّ إلى الراقصين رافعاً سيفه الذهبي الرائع. تَبِعَ الإيقاع وراح الثلاثة يرقصون متظاهرين بالتبارز الشرس والمحموم. وإذا بالرقص يتوقّف فجائيّاً كما لو أنّه مخطّط لينتهي لحظتها وارتفعت السيوف الثلاثة في الهواء، وقد تلامست أسلاتها. قَبّلَ الراقصون ظاهر يد الملك وسار هو إلى كرسيه فيما علا دوّي تهليلٍ من الجمع كلّه.

تدريجاً، راح الحشد يغادر في أفواج من أربعة أو خمسة. مع ذلك، لازمت الخيمة مجموعة صغيرة ظلّت ترقص وتغنّي إلى حين مغادرة زعيم القبيلة والملك.

انتقلا من خيمة المجلس إلى خيمة أصغر بعيدة نوعاً ما عن المخيّم. كنتُ قد جئتُ مع حسّان إلى المأدبة وانضمّ من ثمّ إليّ في المجلس. همس لي فيما توارى الملك داخل الخيمة: "هذا الهدف الأساسي من المأدبة".

"ما قصدك؟".

"قدّم زعيم القبيلة من توّه إحدى بناتها إلى الملك".

قلتُ ممازحاً: "أعتقد أنّه لا بُدّ له من بعض السلوى من وقت إلى آخر".

قال حسّان: "أنتَ لم تفهم. الأمر جدّي". وراح يشرح لي. من خلال تقديم عروس شابة إلى جلالة الملك، يُظهر الزعيم البدوي ولاءه وولاء قبيلته للملك وحكومته. على الملك التعويل على قبائله لمساندته إن قام أحد منافسيه أو جماعة ثوريّة بالوقوف في وجهه. وبقبول الفتاة عروساً، يُظهر الملك ثقته بالقبيلة، ويجعلها بالتالي جزءاً من عائلته.

تابع حسّان: "يحدث هذا في كلّ مخيّم نزوره تقريباً. ألم يسبق أن لاحظتَ ذلك؟ الآن، إذا لم يكن جلالته قد أرهق نفسه بالرقص، سيعاشر عروسه الجديدة الليلة. هذا أمر مهمّ جدّاً في

نظرنا، أن ينجح الرجل في معاشرة امرأة هو المقياس الحقيقي لمقدرته، وسينتظر رجال القبيلة سماع ما يُخبِر عن مقدرة جلالته".

ولإيضاح الأهميّة السياسيّة لبراعة الملك الجسديّة، قصّ عليّ حسّان حادثة حدثت منذ عدّة شهور في الرياض. اشتدّ المرض على الملك سعود وَخُشِيَ أن يموت، كان سيُنقل جواً إلى الظهران لدخول الطوارىء في مستشفى أرامكو. قبل أن يوافق على مغادرة الرياض، أصرّ على إحضار زوجته المفضّلة، أم منصور، إلى سريره. وبمساعدة أربعة عبيد، جَامَع الملك المريض المرأة. في اليوم التالي، قبل الإعلان رسمياً عن مغادرة الملك إلى الظهران، تناقلت ألسن كتومة خبر "مقدرته" في الليلة الفائتة، واطمأن شعبه بالتالي إلى قدرته على الحكم. وبالطبع، أثبت تعافيه لاحقاً ذلك. تابع حسّان أنّه إذا سُرَّ ما يكفي الليلة بعروسه الجديدة، قد يبعث بها إلى القصر في الرياض، وبأيّ حال، سيصطحبها إلى مقطورته لما تبقّى من إقامته هنا.

إذا قرّر الملك ترك الفتاة حيث هي، سيُغدق بالهدايا على عائلتها والقبيلة. إن حَملَت ولده، سيكون ذلك ذا شأن في نظر القبيلة لأنّه يعني أنّ سيكون له حُظوة خاصّة لدى الحكومة. وكذلك بوجود طفل، ستصبح عائلة الفتاة جزءاً من عائلة الملك الرسميّة، ويُحتمل أن يُخَصَّص لهم جميعاً مسكناً في الرياض. ذكّرني حسّان بالبيوت الكثيرة في مجمّع قصر الناصريّة – منازل عائلات عرائس الملك سعود، من بينهن نسوة سوريّات ولبنانيّات ومصريّات، وبدويّات من الصحراء. سألتُ: "لكن، كيف يتّخذ عروساً له عند كلّ محطّة؟ سنكون قد زُرنا عدداً كبيراً من المناطق بانتهاء سفرنا. خِلتُ أنّه يحقّ للمسلمين باتّخاذ أربعِ زوجات فقط".

قال حسّان: "صحيح. والكثير منّا يتّخذ له امرأة واحدة في حين أنّ بمستطاعه أن ينعم بعدّة، لأنّ الأمر عمليّ أكثر، أربع أمر مكلف". وشرح أنّ المسألة مختلفة في ما يخصّ الملك. لا بُدّ له من الزواج مرّات عديدة بالنظر إلى أهميّة ذلك لمكانته. ثمّة نفور بين بعض القبائل، هو يوحّدها بجعلهم جميعاً أفراداً من عائلته. لكنّ الطلاق سهل، لذا لا يكون له أكثر من أربع كلّ مرّة.

تبقى طليقته في حريمه وتصبح زوجته من جديد متى أراد قضاء ليلة معها. بهذه الطريقة، هو يلتزم موجبات دينه، ويظهر مقدرته مع النساء، ويُبقي قبضته على البلد بالإبقاء على القبائل موحّدة ضمن عائلته".

تابع حسّان وقد هزّ كتفيه: "هذه مشيئة الله. قد لا يفهم الأجانب أسلوبنا ويعتقدون أنّه خطأ. لكنّنا لا نفهم دوماً أسلوب الأجانب ونعتقد أنّهم خطأ. ربّما علينا أن نتغيّر، ربّما عليهم أن يتغيّروا. الله يقرّر".

سِرنا نحو الشاحنة. كان قرع الطبول والغناء قد توقّفا. وكانت مواقد النار خارج الخِيَم قد تحوّلت إلى كومة من فحمٍ متوهّج. متى كنّا نغادر موقع التخييم، كان مهندسو مدينتنا الرمليّة يتحوّلون إلى فريق هدم، وكانت الخِيَم تهوي مثل أوراق في الخريف. كانت خيمة البقشيش من بين آخر الخيام التي تسقط.

داخلها، كان جوهر وفريقه من العبيد يُعدّون صرراً من المال. في الخارج، يقف رجال القبيلة في حلقة كبيرة متكاملة. متى جهزت الصرر، يتنقّل جوهر داخل الحلقة، معطياً كلّ قَبَليٍّ "شيك وفائه" من ثلاثين ريالاً (أي نحو ثلاثة دولارات إلى ستّة) بحسب أهميّة القبيلة وحجمها. كان ذلك آخر عمل رسمي على جدول تعزيز التلاحم بين الحاكم وشعبه. لكن، فيما تتحرّك القافلة، يُلقي جوهر من مقطورته صرراً من المال ونقوداً إلى المتسوّلات على دربنا. (كانت طريقة الزكاة هذه صعبة أحياناً، إلى حين استُبدل بالنقود الحجريّة الفضّيّة الثقيلة نقدٌ ورقيٌّ عام ١٩٥٧).

في أثناء الرحلة، كنتُ قد علمتُ أنّ مكّة المكرّمة ستكون آخر محطّة لنا. وبالطبع، لم يكن ليُسمح لي بدخولها. فأُبلِغتُ أنّني قد أُرسل على الأرجح إلى الرياض في طائرة لدى بلوغنا المحطّة قبل مكّة. وفيما أوشكت الزيارات على الإنتهاء، ترافق جهد الانخراط المتواصل في كلّ زيارة مع نوبات من الغضب وبعض التذمّر، وفقدتْ طرافة عدم الاستحمام على مدى شهر بريقها

عندما استُنفد مخزون ماء الورد. باتت غرابة المشي في الظلمة للبحث عن حمّام خصوصي على الطبيعة واستعمال مجرّد حفنة من الرمل كمنديل ورقي، شَطَطاً زادَ عن حدّه.

بعد نحو شهر على التخييم في الصحراء، كنتُ أتطلّع شوقاً إلى الرياض ووسائل الراحة فيها. لكن، عندما كانت القافلة لا تزال على بعد خمسة أيّام من مكّة المكرّمة، تلقّى الملك برقيّة خرّبت خطّتي في صرف بضعة أيّام من الهناء في العاصمة.

الفصل ٤

نداءٌ من واشنطن

ذات صباح، عندما شارفت جولتنا على الانتهاء، جلستُ على الرمل قبالة خيمتي أغسل- نقعاً- سراويلي التحتيّة التي كانت يوماً بيضاء، في علبةٍ فارغة لطعامٍ معلّب بالحجم العائلي والتي شكّلت غسّالتي على مدى الأسابيع الثلاثة الماضية.

بغيابِ مرافقَ ملائمة لغسل الثياب، تعيّنَ على كلٍّ من أراد ارتداءَ ثيابٍ نظيفة أن يغسلها بنفسه، باستثناء الملك سعود الذي كان يتلقّاها يوميّاً من الرياض. استغرقتُ في التفكير بشوقٍ إلى آخر دُشٍ لي في الرياض، وتُقتُ لذاك الذي سأغتسل به بعد أيّام قليلة. قاطع عمليّة غسلي السراويل أحد الكتّاب لدى الملك سعود والذي أخذ يتلخبط بتوترٍ ليقول أخيراً وبفخرٍ بالإنجليزيّة: "يودّ سعادة الشيخ يوسف ياسين رؤيتك في خيمته حالاً!".

كان المرحوم الشيخ يوسف، الذي توفي في مارس من عام ١٩٦٢، أحد المقيمين الفلسطينيّين العديدين في السعوديّة ممّن كسبوا نفوذاً تحت جناح الملك سعود. لامتلاكه الفطنة وقساوة القلب اللتين أسهمتا في تحاشيه غيرَ مرّة الصرف الدوري من الخدمة. أصبح في الواقع أحد أكثر مستشاري الملك أهلاً للثقة. ولوعيه الصارخ لمكانته، كان يُبقي الفريق العامل لدى الملك في حالة دائمة من التوتّر. لكن بما أنّه تعوّد التعويل على غرف تخزين المؤن في القصر لتلبية حاجات أُسرته الخاصّة، كان متسامحاً تجاهي، حتّى أنّه كان ودوداً.

غادر الكاتب مُسرعاً، وربطتُ سراويلي إلى حبل الخيمة متسائلاً ما نوع تلك البرقيّة السرّيّة للغاية المبعوثة من حكومة أجنبيّة ما، والتي تحتاج إلى ترجمة هذه المرّة. عندما اقتربتُ من خيمة الشيخ يوسف بعد بضع دقائق، التقيتُ الكاتب الذي كان مغتاظاً وهو في طريقه إلى

معرفة ما الذي أخّرني. دخلنا الخيمة حيث استلقى الشيخ يوسف على سريره يرتشف الشاي. ربض كتّاب على الأرض المفروشة بالبُسط، يدوّنون الكلمات المتفرّقة التي تفوّه بها الشيخ. لدى ملاحظته وجودي بعد قليل، أشار عليّ بالجلوس إلى جانبه وأَذِنَ للمرسال بالإنصراف.

سكب لي أحد الكتّاب كأساً صغيراً من الشاي المُحلّى وانطلقتُ والشيخ يوسف في تبادل التحيّة المطوّلة التي تسبق المحادثة لدى العرب.

بدأ:

"السلام عليكم".

"وعليكم السلام".

"أهلاً بك".

"شكراً على هذا الشرف".

"إنّه لمن سروري أن تُشرّفنا".

"ورؤيتك تسرّني".

"كيف صحتّك اليوم؟".

"تمام. وصحّتك؟".

"تمام، الحمد لله".

"الحمد لله!".

صمتٌ.

"أتودّ مزيداً من الشاي؟".

"لا، شكراً. لا بأس".

"تسرّني رؤيتك من جديد".

"شكراً. هذا من سروري".

"أتودّ بعض القهوة؟".

"لا، شكراً، أنا مسرور بالشاي".

"كيف حالك؟".

"الحمد لله!".

"الحمد لله!".

صمتٌ، باستثناء صوت خربشة أقلام الكتّاب.

بعد ارتشاف الشاي بصخب، استأنف الشيخ يوسف الحديث:

"ما الأخبار اليوم؟".

"لم أسمع شيئاً اليوم".

صمتٌ.

"أتودّ بعضاً من مشروب الپيپسي؟".

"لا، شكراً، أنا مسرور جدّاً بالشاي".

"أتودُّ مزيداً من الشاي؟".

"لا، شكراً، لا بأس".

صمتٌ.

"هل كلّ أمورك بخير؟".

"جيّدة جدّاً".

"الحمد لله!".

"الحمد لله!".

"يرغب صاحب الجلالة في أن ترافقه وحاشيته إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة".

أجبتُ آليّاً: "الحمد لله!"، لأدرك متأخّراً ما قاله الشيخ يوسف من توّه.

وإنتهت مراسم الترحيب.

"إلى... الـ..الـ.. الولايات المتّحدة؟".

تدبّرتُ قول ما قلتُ متلعثماً، من دون أن أظهر دهشتي بالقدر الذي اختلج فيَّ.

"نعم. تلقّى جلالته برقيّة الليلة الماضية من رئيسك أيزنهاور يؤكّد فيها تواريخ دعوة وصلت إلى الملك منذ عدّة أسابيع. والآن، إن أعطيتني جواز السفر الخاصّ بك سأحرص على تجهيز التدابير اللازمة للتأشيرة".

"جواز السفر؟".

"نعم، سنحتاج إلى جواز السفر الخاصّ بك فوراً لأنّه علينا مغادرة جدّة بعد غد. سيتوقّف جلالته أيضاً في مصر وإيطاليا ثمّ يسافر إلى نيويورك بحراً، لذا الوقت ضيّق".

كان جواز السفر من بين المقتنيات التي تركتها في العاصمة لثقتي بأنّه لا الحاجة إليه في أثناء رحلة الصحراء سيكون أمراً بعيد الاحتمال.

قلتُ، وقد خشيتُ أن يُشطَب إسمي عن اللائحة:

"جواز السفر الخاصّ بي موجود في غرفتي في الرياض".

"علينا أن نبعث بتعليمات عبر جهاز الإرسال إلى الرياض لكي يذهب أحدٌ إلى غرفتك وجلبه. سيسافر صاحب الجلالة إلى المدينة المنوّرة صباح الغد، بدلاً من الذهاب إلى مكّة المكرّمة، وستذهب في الرحلة ذاتها. سيزور جلالته المسجد النبوي في مكّة، لكن عليك ملازمة المطار وانتظار الرحلة الآتية من الرياض التي ستحمل جواز السفر، إن شاء الله. ستتابع من ثمّ طريقك إلى جدّة وتنتظر وصولنا لنغادر جدّة جميعاً إلى مصر. لكن تذكّر أنّه عليك المكوث في مطار المدينة بانتظار الرحلة الآتية من الرياض. إن غادرتَ المطار، ستُحدث مشكلة كبيرة مع رجال الدين، لأنّك غير مسلم".

سألني عن مكان وجود جواز السفر، وبعث بكاتبٍ إلى خيمة الاتّصالات لكي يُرسل المعلومات لاسلكيّاً إلى الرياض.

رجعتُ إلى خيمتي، وشطبتُ بإبتهاج الأيّام الخمسة المقبلة عن رزنامتي. وإذ رُحتُ أحزم أمتعتي استعداداً للمغادرة في الصباح التالي، أدركتُ أنّني كنت أفتقر إلى أكثر من جواز السفر: لم أملك مالاً ولا ثياباً، باستثناء اللباسَين العربيّين اللذين تركت عليهما النار بصمتها، وسروال رسميّ، وجزمة للصحراء.

في النهار، توجّه أسطولٌ من السيّارات وحرس الملك إلى المدينة المنوّرة، وفي وقت باكر من صباح اليوم التالي، أقلعنا في إحدى طائرات "الكونفير" الخاصّة التابعة للملك. وعلى غرار كلّ من المحطّات السابقة لنا في الصحراء، تمّ تحديد مدرج في منطقة مستوية من الصخر الصلب

والرمل قرب مخيّمنا. أقلع الربّان الأمريكي، وهو أحد الربابنة العديدين الذين كانوا يقودون الطائرات التابعة للخطوط السعوديّة الملكيّة، على مهل في الجوّ، في حين سارع البدو المرتاعين إلى حماية خيمهم لدى سماع دويّ المحرّكات. كان الكلّ على متن الطائرة متشوّقاً وسعيداً لما ستحمله الرحلة إلى الولايات المتّحدة.

في المدينة، استعدّ الكلّ ما عداي لمرافقة الملك سعود إلى المسجد النبوي حيث يوجد قبر النبي محمد.

كانت الطائرة الآتية من الرياض قد حطّت، لكن لم يكن أيّ من أفراد الطاقم على عِلم بمسألة الجواز. وإذْ نسيتُ أنّه لا يفترض بي مغادرة مبنى المطار، هرعتُ للّحاق بحاشية الملك سعود التي همّت بدخول السيّارات من أجل الذهاب إلى المدينة المنوّرة. وفي اللحظة التي كنتُ أشقّ فيها طريقي عبر الحشد الذي تجمّع لرؤية الملك سعود، أمسك بي اثنان من حرس الملك ممّن كانوا يحاولون ضبط الحشد. لحسن الحظّ، التفت الملك سعود لإلقاء التحيّة على الناس وهو يدخل السيّارة، فرآني، وخلّصني من قبضة الحارسَين وقد أمرهما بالابتعاد، وسألني ما الخطب.

عندما أعلمته أنّني لم أحصل على الجواز بعد وبالتالي لن أتمكّن من السفر إلى الولايات المتّحدة، قال: "سوف تذهب معنا، يفترض بك السفر إلى جدّة مباشرةً الآن وانتظارنا هناك. وفي أثناء انتظارك، ستذهب إلى مقابلة صديقي السفير الأمريكي [الراحل جورج وادسورث]. سيسافر معنا هو أيضاً. سيتدبّر أمر إصدار جواز سفر جديد لك. الله يعافيك". وسار راجعاً إلى سيّارته الليموزين في انتظاره، ملوّحاً للحشد من جديد، ودخلها. رجعتُ على عَقِبي إلى مبنى المطار. انشقّ ممرّ بين الحشد ومشيتُ عبره متبختراً بما تفرضه وجاهتي الجديدة فيما رفرف ثوبي المهترىء خلفي.

في جدّة، إقتحمتُ مكتب أرامكو ولا أزال في لباسي الصحراوي التمويهي. بما أنّني لم أملك مالاً، كان عليّ تدبُّر سلفة لسفرة الولايات المتّحدة. جلستُ لعدّة دقائق من دون أن أعرّف عن نفسي أو أن يتمّ تعرُّفي في أثناء استراحة القهوة الصباحيّة الثانية. عندما قاربتُ أخيراً سكرتيرة مدير المكتب والتي كنتُ أعرفها تمام المعرفة قبل انضمامي إلى فريق عمل الملك، وقلتُ لها إنّني أريد خمسمئة دولارٍ أمريكي، صرخت مذعورة لاعتقادها بأنّها كانت تتعرّض للنهب بلا شك. أخاف ذلك كلّ الفريق العامل في المكتب، وهرعوا من حُجيراتهم المكتبيّة لمعرفة السبب وراء الصرخة. خلعتُ العباءة فأطلقتْ صرخةً أخرى لتعرُّفها هويّتي، ودعا ذلك إلى جولة أخرى من القهوة. بعد أن أخذتُ المال، انطلقتُ إلى إعادة تأهيل نفسي. توقّفتُ أوّلاً عند حلاّق حيث أعَمَلَ بطلٌ سابقٌ في جزّ صوف الغنم المقصّ في كومة الشعر على رأسي. على الكرسي إلى جانبي، جلس سعوديٌّ، ورحتُ أشاهد بذهول مروّع كيف تناول الحلاّق عَلقَتين وثبّتهما عند قاعدة جمجمته لامتصاص دمه بعد أن حلق شعره بالكامل. ما إن انتهى حلاّقي من جزّ شعري، نهضتُ بسرعة ودفعتُ الخمسة وعشرين سنتاً المتوجّبة عليّ، من دون الانتظار ريثما أعرف إذا كان العَلَق جزءاً من الخدمة المعتادة.

لم يُفلح بحثي عن ملابس جديدة سوى بالحصول على سروال فضفاض وسترة لا بُدّ أنّهما جاءا ضمن صندوق إعاشة ما. كان عليّ الانتظار ريثما أبلغ مصر لكي أتسوّق. وتمكّنتُ أخيراً من الاستحمام، ومسح الشهر الماضي عنّي، في المجمّع السكني الصغير التابع لأرامكو خارج جدّة.

كان الملك سعود قد أرسل خبراً عبر جهاز اللاسلكي إلى السفارة الأمريكيّة في جدّة، طالباً إلى السفير إصدار جواز سفر جديد لي. بعد مطاردة مُرهِقة من السفارة إلى متجر التصوير الأوحد في جدّة والذي كان مقفلاً، إلى منزل مالك المتجر، ثمّ إلى المستشفى لأخذ الحقن، ومنها إلى السفارة، استلمتُ جواز السفر ليلاً. وفي نهاية المطاف، أُصدِرت التأشيرة اللازمة بعد وقفة في

السفارة المصريّة حيث جَاهَد موظّف نَعِس ليفهمني. وعند الثانية فجراً كنتُ على استعداد للمغادرة.

لاحقاً ذاك الصباح، تلقيّتُ تعليماتٍ للتوجّه إلى القاهرة في الحال بغية الانضمام إلى الباقين هناك. وُجّهت التعليمات ذاتها إلى السفير الأمريكي ومراسِلة إخباريّة من واشنطن. أسهمت زوجة أحد الركّاب السعوديّين التي كانت مسافرة مع طفلها في تخليد ذكرى هذه الرحلة إلى القاهرة. كان مقعدها في مقدّمة الطائرة، ونهضت منه أربع مرّات، حاملةً مِبولةً تأرجحت على رأسها، واجتازت بها طول الطائرة لبلوغ حجرة دورة المياه. ومع كلّ ارتجاجٍ للطائرة، كان الركّاب الآخرون ينكمشون في مقاعدهم، خوفاً من أن يترشّشوا بالبول. غير أنّ السيّدة الغافلة تماماً عن ذلك لم تحمل ذاك التُويج المعدني على رأسها بكلّ ثقة عبر الممرّ فحسب، بل قُبيل أن نحطّ في القاهرة، رفعت أداءها إلى ذروته، بالذهاب إلى دورة المياه والعودة منها ولكن هذه المرّة واضعةً ولداً في المِبولة!

حطّت طائرتنا في المهبط العسكري قرب القاهرة. كانت سيّارات ليموزين أمّنتها الحكومة المصريّة في انتظار وصولنا. أُوصِلتُ إلى فندق السميراميس، بجانب النيل، حيثُ أُبلغتُ أنّ الملك سعود سيصل في الصباح التالي. كان العصر قد حلّ فأسرعتُ إلى السوق، بعد أن تقيّدتُ في الفندق، لاستكمال تسوُّقي.

وجدتُ محلّ أحذيةٍ ودخلته فيما كان المالك يوشك على إنزال مصراع باب الحديد المثلّم لإقفاله. واستبدلتُ بصندلي حذاءً يدويَ الخياطة، والذي كان بشعاً لكنّه يفي بالغرض. اخترته من بين خطوط الأحذية المتشابهة النسق على الرفوف. فيما مددتُ صاحب المتجر بالمال، لوّح بيده مُعبّراً عن عدم جدوى المال، وقال بالإنجليزيّة: "أنتَ الزبون الأخير الذي أبيعه الأحذية هنا".

"هل ستترك هذه التجارة؟".

قال مشيراً إلى الشابة عند الصندوق: "تمّ طردي وابنتي من مصر، تلقّينا إخطاراً منذ أيّام قليلة يفيد بوجوب مغادرتنا بحلول الغد. لذا، علينا أن نتخلّى عن كلّ شيء".

أتى بحركة أخرى تنمّ عن اليأس مُصبعاً إلى الأحذية المصطفّة. "بالطبع بِعنا كلّ ما تمكّنا من بيعه، لكن لم يكن لدينا متّسع من الوقت للتخلّص من معظم مخزوننا. صرفتُ حياتي أزاول هذه التجارة هنا".

"لمَ ترحل إذًا؟".

"نحن يهود، ومنذ أن هاجم الإسرائيليّون والبريطانيّون قناة السويس منذ أربعة أشهر، أُمِر كثيرٌ من اليهود بمغادرة البلاد. كنّا نحيا هنا بسلام قبل الهجوم".

"إلى أين ستذهب الآن؟".

"فلسطين"، قالها وقد هزّ بكتفيه، ثمّ صوّب كلامه بسرعة، وقال: أعني إسرائيل".

شدّت ابنته سلك النور الموصول إلى تجويف في السقف حمل لمبة. أطبقت ظلمةٌ ربداء على حديثنا. خرجتُ من المتجر، وسمعتُ المصراع الحديدي ينزل مجلجلاً ليضرب الأرض الإسمنتيّة للمرّة الأخيرة.

في الفندق، وردني اتّصالٌ من المراسِلة الصحفيّة التي كانت قد رافقت مجموعتنا من الرياض. دعتني إلى حفل عشاء كان يقيمه أحد أفراد طاقم السفارة الأمريكيّة في القاهرة. قبلتُ الدعوة بسرور.

في خلال ساعة الاستقبال التي سبقت العشاء كنتُ أستمتع بأوّل مشروب كحولي حقيقي لي منذ ما يفوق السنة. عندما جلس إلى جانبي رجلٌ عرّف عن نفسه على أنّه ممثّل مجلّة "تايم" الشرق الأوسط وأخذ يطرح عليّ ما بدا أنّها أسئلة حميدة، عن الظروف في السعوديّة. شرح

أنّه أنجز لتوّه مقالةً رئيسيّة خاصّة للمجلّة حول الملك سعود، وأنّها ستُنشر بالتزامن مع وصول الملك إلى نيويورك. قال إنّه أراد الاستيضاح عن بعض النقاط التي لم يكن متيقّناً منها. لم نكد نبدأ حديثنا عندما اجتازت الصحافيّة الغرفة مسرعةً نحوي، صارخةً :"هوسيه، لا تتحدّث إليه! لا تقل له شيئاً! سوف يحوّر كلّ ما تقوله ثمّ سيكتب أكاذيبَ وهميّة عن السعوديّة وينسبها إليك".

حلَّ صمتٌ عجيب بين الحضور، ووقف متقاتلا "السلطة الرابعة" وجهاً لوجه، وانتظر الباقون لحظة انطلاق الرصاصة. أخيراً، أجاب رجل "التايم" بعدائيّة: "أعتقد أنّ هذا ليس من شأنكِ". ردّت الصحافيّة: "إسمع يا هذا! سيكون الشأن شأني متى رأيتك تحاول استدراج الناس الذين يجهلون أهدافك"، وشتمت أصله وفصله. هرع رجل "التايم" ناحية الباب من دون أن يتلفّظ بكلمة. أخذ معطفه ورحل. في ظلّ السُكات المحرج الذي تلا الحادثة، راح المضيف يدور في أرجاء الغرفة بحذرٍ محاولاً إنقاذ ما سَلِمَ من الحفلة.

صادفتُ مراسِل "التايم" مجدّداً في اليوم التالي عند المَشرب في فندق السميراميس. طمأنني أنّه لن يقتبس كلامي خطأ، مشيراً إلى أنّه خفّف من حدّة بعض ما كتبه بالإستناد إلى أقوالي. عندما قرأتُ المقالة في "التايم" لاحقاً في نيويورك – وكانت قصّة الغلاف – بدا لي مع أنّ الكاتب لم يطأ السعوديّة يوماً، ولم يتحدّث مع أيٍّ من المسؤولين الحكوميّين وخضع عمله للتنقيح التحريري في المجلّة، كانت المقالة تقويماً منصفاً للوضع.

في خلال وقفتنا في مصر، نزل الملك سعود في القصر الرئاسي للرئيس السابق الملك فاروق، خارج القاهرة. أشار الرئيس عبد الناصر على حرس الشرف المصريّ بتقديم التحيّة للملك سعود. كان المنظر استعراضاً من الألوان البهيّة التي ارتداها الحرس بسراويلهم البيضاء التي غطّتها حتّى الركبة جزمات لمّاعة، وستراتهم القرمزيّة بأزرار ذهبيّة وخُوَذ ذهبيّة في أعلاها شرّابات زرقاء داكنة. كان القصر لوحةً من الأناقة، وشكّل موقعاً لحفلات الحكوميّة. تميّزت

الهندسة الداخليّة فيه بسجّادات عجميّة فاخرة وثريّات ضخمة من الكريستال. استدعاني الملك سعود إلى غرفة الجلوس الشاسعة التي كان يستخدمها كقاعة الجلسات الرسميّة. شرح أنّ المجموعة ستسافر إلى نابولي في ثلاث طائرات وتغادر القاهرة بعد يومين. أبلغني أنّني سأستقلّ طائرته، لكي أساعد في رعاية الأمير مشهور إن دعت الحاجة. كان الأمير وهو أحد الأبناء المفضّلين لدى الملك سعود والمولود من زوجته المفضّلة أم منصور، كسيح الذراع اليمنى والساق اليسرى نتيجة الإصابة بشلل الأطفال. كان الملك سعود يصطحبه معه لتلقّي العلاج في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. ورافقت الأمير مشهور ممرّضته المصريّة. عُيّن مقعديهما في الجزء الخلفي من الطائرة للحفاظ على راحة باقي الركّاب. أعطاني الملك سعود تعليمات لتدبّر أمر الطعام للجميع في الطائرات الثلاث ثمّ قال لي إنّه عليّ أن آخذ يوم إجازة لأنّه سيمّر وقت طويل قبل أن أتمكّن من أخذ آخر.

كان الملك سعود على موعدٍ للقاء الرئيس المصري عبد الناصر والملك حسين الأردني في اليوم التالي من إقامتنا في القاهرة للتناقش في إتّفاقيّة لإعالة العاهل الأردني. كان الملك حسين قد أنهى المعاهدة البريطانيّة، ومعها انتهى الدعم الاقتصادي الأساسي للبلاد، وبموجب أحكام الاتّفاقيّة الجديدة، تعهّد كلٌّ من مصر والسعوديّة بتقديم الدعم للملك حسين، ووعدتا بأنّهما سيعوّضان معاً عن خسارة العون البريطانيّ. التزمت السعوديّة وعدها بتسديد الدفعة الأولى، غير أنّ مصر لم تلتزم أيّاً من موجباتها فسقطت الاتّفاقيّة. إلى هذا، كانت العلاقات الودّيّة بين عبد الناصر والملك سعود ذاهبة إلى خراب.

بمغادرتي قاعة الجلسات، بحثتُ عن مكان أكتب فيه التعليمات الخاصّة بخدمة الوجبات على الطائرات في خلال الرحلة إلى نابولي، وجدتُ عند زاوية القاعة العلويّة طاولةَ مكتبٍ صغيرة مشغولة يدويّاً بحسٍّ مرهف. غطّت الخشبَ طبقةٌ من الطلاء العاجي اللون، وزُيّنت الحافات بالذهب الناتىء وبأُطرٍ زُخرفت بأكاليل من الورد الزهري الجميل. فيما غمّستُ قلمي

في الدواة الكريستاليّة المطعّمة بالذهب التي كانت على المكتب. تساءَلتُ ما إذا كانت هذه الطاولة قد استُعْملت يوماً لأيّ غرضٍ تافه كتفاهة كتابة طلبيّة من شطائر البيض.

بما أنّ اليوم كان يوم جمعة، وهو يوم العبادة لدى المسلمين، وكلّ المتاجر مقفلة، قرّرتُ أن أزور أهرامات الجيزة الشهيرة وأبا الهول العظيم بالقرب من قرية المينا، على بعد ساعة في السيّارة من القاهرة. كانت التجربة مُربِكة. وكما سبق لملايين السيّاح أن وجدوا الأهرامات وأبا الهول مهيبة. لكن للأسف، كانت المنطقة موبوءة بالباعة المتجوّلين اللجوجين من كلّ الأشكال. كان سائقو الإبل وسائقو الحمير والباعة المتجوّلون على ظهور الاحصنة وخلف العربات يهاجمون الزائر من كلّ صوب وبأعداد هائلة بحيث يُمسي مُحتجزاً. ومتى اختار الزائر المحاصَر وسيلة نقل تنقله من الأهرامات إلى أبي الهول، على بُعد مسافة قصيرة، كان عليه أن يواجه بعدُ معاملةً مُهينة ختاميّة.

تتّخذ الطريق من هرم خوفو نحو أبو الهول انحداراً حاداً. في أعلاها، يقترح السائق أن يقدّم الزائر البقشيش له الآن، لأنّ الحرس عند أسفل الهضبة لن يسمحوا له بقبوله. وما لم يُقدَّم البقشيش في الأمتار الخمسة والأربعين الأولى، يأتي السائق بتعليقات حول العواقب المحتملة التي قد تنتج عن إمكانيّة أن يجفل الجَمل أو الحمار أو الحصان فجأةً عند طرف المنحدر. وما لم يُقدّم البقشيش على شكل نقود، يُسرِع السائق بدابّته ويوجّهها إلى الحافة لكي يتأمّل الراكب مصيره – وهي وسيلة شديدة الفاعليّة خاصّةً مع النساء من السُيّاح. إذا رفض راكبٌ الخضوع لاحتيال السائق، قد يصل إلى وجهته سالماً، لكن تكون التهجّمات والمساومات قد حطّمت قدرته على تقدير عظمة أبي الهول.

لقّت مغادرة الملك سعود وحاشيته أبّهة كبرى. نُصبت خيمة احتفالات مع بوفيه على أرض المطار وتجمّعت أفواجٌ من الناس للترحيب بالملك سعود ومُضيفه. كانت الطائرات الثلاث من الخطوط السعوديّة الحكوميّة قد جُهّزت للإقلاع. وصلت سيّارة الليموزين التي أقلّت الملك

سعود والرئيس عبد الناصر وكانت الإشارة التي انتظرتها الحشود لإطلاق تحيّة إجلال تصمّ الآذان. فيما أخذ الحشد يهلّلون وقد طارت عقولهم، ترجّل القائدان القوميّان من السيّارة، عاينا حرس الشرف، سارا نحو سُلّم الطائرة الأساسيّة، تبادلا القُبَل على الخدّين ثمّ افترقا. توزّع باقي أفراد حاشية الملك على الطائرات الثلاث، فيما تفرّق التجمّع المصري.

كانت طائراتنا فائضة الاكتظاظ وكان على بعض أفراد الحاشية الوقوف، إلى أن يغادر أحد الركّاب مقعده من دون التأمين عليه، فيغتنمه الواقف. جلس الملك سعود على المقعد الأماميّ، كالعادة، ولم يبرحه طول الرحلة. أملى على عامل جهاز الإرسال سلسلة من الرسائل لكي يبعث بها إلى مضيفه في مصر. قُدِّم الغداء الاحتفالي القائم على شطائر البيض الذي جعل الجميع يغفو تواً باستثناء الواقفين. في مطار نابولي، أُقيم حفل استقبال مقتضب قبل أن نُنقل إلى فندق إكسلسيور. كان حشدٌ كبير قد تجمّع مساءً، وأخذوا يحدّقون مشدوهين إلى موكب السيّارات التي كان ينزل منها سعوديّون بلباسهم التقليدي حاملين سيوفاً ذهبيّة. ما إن دخلنا الفندق حتّى انفجرت فوضى في البهو حيث أخذ أكثر من سبعين عربيّاً، قلّة منهم كانت تنطق بغير العربيّة، يطالبون بخدمة فوريّة من طاقم العمل في الفندق، الذي جهل كلّ أفراده العربيّة، فيما راح متفرّجون، وقد خالهم العرب من طاقم العمل، يطوفون المكان.

في خضمّ الصخب، أُدخلت الحقائب من باب خلفي وكُدِّست في البهو. أسرع خدم أفراد الحاشية العربيّة إلى إيجاد حقائب أسيادهم، وإذا بأضواء الفندق كلّها تنطفِىء. ظنّ اثنان من حرس الملك الشخصيّين أنّها إشارة إلى تنفيذ محاولة اغتيال الملك سعود، فانقضّا على المكان الذي خالا أنّ الملك كان يقف فيه وأطاحا بحاجبين، وطاولة قهوة، وعلا صُراخ نساء. أشعل الحُجّاب عيدان ثقاب ومضت إلى أن انطفأت عند الأنامل المحترقة. لحسن الحظّ، لم يستلّ أحدٌ من العرب سيفه، لكنّهم استعملوا أسلحتهم المغمّدة للنخز الذي كان يطال أهدافاً غريبة.

استمرّت البلبلة ربعَ ساعة. ثمَّ، اشتعلت الأضواء من جديد – لتُظهر بعض العرب جاثمين على مكتب الاستقبال، والحارسَين الشخصيّين للملك يحميان رجلاً قصيراً كثَّ الشعر يُشبه إلى حدٍّ لا يُصدّق دافيد بن غوريون. جلس الملك سعود بهدوء على كُرسيٍّ منجّدة وثيرة على مقربة، مُبتسماً إزاء هيئة حارسَيه المُحرجَين.

تحرّك طاقم عمل الفندق سريعاً للإمساك بزمام الأمور. بما أنّني لم أكن أحمل سوى ما ألبس، لم أواجه مشكلة البحث عن الحقيبة، لذا توجّهتُ إلى غرفتي ما إن استطعتُ أخذ رقمها. بعد أن استحممتُ سريعاً، هرعتُ إلى قاعة العشاء لأرى التحضيرات التي جُهّزت من أجل العشاء الرسمي المحدّد لتلك الأمسية.

كانت المائدة الطويلة قد جُهّزت بشكل جميل، وكان النُدُل الجدّيّي المظهر ببذّاتهم الرسميّة بما يناسب المناسبة، ينتظرون ظهور الملك سعود. حضر المأدبة مسؤولون من الوفود الرسميّة إلى نابولي من الشرق الأوسط كما وممثّلون عن الحكومة الإيطاليّة. وباستثناء القليل من الارتباك المُضحك إزاء الفضّيات الرائعة التي لم يكن البعض من حاشية الملك يألفها، شكّل العشاء حدثاً سعيداً. كانت الخدمة مبهرة وكان النُدُل ينتقلون من مهمّة إلى أخرى بعفويّة ويؤدّونها بسهولة محترفة وثقة. راقبتُهم وأنا أتمنّى بأسى لو أنّ بمقدور طاقم العمل لديّ أن يُدرك الشوط الطويل أمامه على درب الاحتراف.

في الصباح الباكر من اليوم التالي، صعدتُ إلى سفينة "إس.إس. كانستيتوشن" التي كان الملك سعود وحاشيته سيبحرون على متنها ذاك المساء بإتّجاه نيويورك.

بعد أن دبّرتُ أمر قاعة عشاء خاصّة للملك سعود وأفراد الديوان الملكي معه، تناقشتُ في أمر قوائم الطعام الخاصّة بالعرب مع رئيس الطهاة، وأعلمته بالعادات العربيّة والمحرّمات الدينيّة، وناولته النظام الغذائي الحالي الخاصّ بالملك. اصطحبني المشرف على خدمة الضيافة في جولة حول السفينة قبل رجوعي إلى الفندق.

كان الغداء وجبتنا الأخيرة في فندق إكسيلسيور وكان الملك سعود قد دعا الآغا خان ضيفاً عنده. كان الآغا شبه مُقعد في حينه وجليس كرسي مُدَولب. قبل وصول الآغا، استدعاني الملك إلى جناحه وطلب إليّ الوقوف إلى جانب الآغا ومساعدته قدر الحاجة، بدلاً من اتّخاذ مكاني المعتاد في الوقوف خلف الملك. رفعتُ ورئيس النُدُل الآغا من كرسيه ليجلس على مقعده بجانب الملك سعود إلى طاولة الغداء. عرّف الملك بي على أنّني القيّم "السويسري" على أموره. وسأل الآغا الملك إذا ما كنّا ننوي تشكيل قوّة تضاهي قوّة بابا روما.

كان التنسيق العضلي لدى الآغا مشلولاً شللاً حاداً. استدعى الأمر أن أقطع اللحم وأخلط اللبن الزبادي وأمرغ الزبدة على الخبز بالنيابة عنه. عبّر عن تقديره لمساعدتي ولم يُبدِ أي إدراك ذاتي لإعاقاته. عند انتهاء وجبة الغداء، أخذ الملك سعود وردة من المنحوتة الثلجيّة على شكل بجعة والتي كانت قد شكّلت كأساً للحلوى، وبإيماءة تعبّر عن الإعجاب، وضعها برويّة في طيّة صدر سترة الآغا. أعدتُ ورئيس النُدُل الآغا إلى كرسيه وتبادل الصديقان السلام قبل أن يفترقا.

كان معظم أفراد بطانة الملك سعود قد سبقوه إلى رصيف الميناء لركوب سفينة "كانستيتوشن". كان يومها بعد ظهر الأحد وتجمّع آلاف الناس لمشاهدة الموكب الملوّن يصعد إلى السفينة. سبق أن صعدها معظم الركّاب الآخرين واحتشدوا على طول الدرابزين بانتظار وصول الملك. ما إن ترجّل الملك سعود من سيّارته وخطا نحو رصيف الميناء حتّى أخذ الحشد يصفّق عفوياً. تَبِعَ الملك عددٌ من أبنائه ووزرائه ونَزْرٌ من المسؤولين الحكوميّين لديه. أمّا الأمير مشهور الصغير الذي حملته ممرّضته، فراح يبعث بالقُبل إلى الحشد الذي لاحظ وجوده للمرّة الأولى، فانبرى يهلّل له بحماسة مدوّية. انضمّ ثلاثةُ ممثّلين عن أرامكو إلى مجموعة المسؤولين الرسميّين من العرب، إضافةً إلى أعضاءٍ من مكتب البروتوكولات في واشنطن تحت رئاسة أيزنهاور، وأفرادٍ من حرس الشرف التابع لقوّات مُشاة البحريّة الأمريكيّة. سافر كلٌّ من في المجموعة في قسم الدرجة الأولى من السفينة، وباستثناء الصعوبات الأوّليّة الناتجة عن عدم

معرفة الواحد الآخر، استمتعتِ المجموعةُ برحلةٍ بحريّة مريحة. أنذر تقديم الوجبات الأولى على متن السفينة بوقوع كارثة. كانت القوائم مبهمة لأفراد حاشية الملك ممن لم يشاركوه العشاء في القاعة الخصوصيّة. طلب البعض بكلّ براءة كلّ بند في القائمة. واقتات آخرون على البسكويت والشطائر بالزبدة. ولعجز النُدُل عن فهم ولو حرف من كلام الضيوف، أخذوا ينفّذون باضطراب ما اعتبروه تعليماتٍ. ولخجل بعض العرب من التصريح بعجزهم عن قراءة الإنجليزيّة أو الفرنسيّة، عمدوا إلى معاينة قائمة الطعام بجدّيّة. وبعد مداولات مطوّلة، أشاروا إلى البند الأوّل فيها – وهو التاريخ – على أنّه الوجبة التي يرغبون فيها. اقترحتُ على رئيس النُدُل أن يُعلِم طاقم العمل بالإصغاء جيّداً إلى كلّ طلبيّة، ثمّ اختيار ما يجد فيه وجبة مُرضِية، متفادياً إضافة لحم الخنزير، وتقديمه لحاشية الملك. حلّ ذلك مشكلة الطعام بذاته لكنّه لم يحلّ البتّة مشكلة مكان تناول الطعام ووقته، إلى أن تخلّى المشرف عن اتّباع الجدول الزمني للوجبات وتنسيق المقاعد إلى الطاولات إزاء ممانعة العرب المستمّرة لاتّباع نمطٍ ثابت لذلك.

في ردهة الاستراحة، تجمّع كلٌّ من العرب والركّاب الآخرين في مجموعات مستقلّة، وقد أخفق الواحد منهم تماماً في محاولاته لإخفاء فضوله في الآخر. كان لفيلق القهوة التابع للملك سعود أن وضع حدّاً لذاك التظاهر الزائف.

تنقّل الفتيان بأثوابهم الطويلة والبشوت السوداء المطرّزة بخيطٍ ذهبي بين العرب والأمريكيّين من دون تردّد، يوزّعون القهوة المُرّة بطعم الهيل في الفناجيل الصغيرة. الآن، انقلب السحر على الركّاب الآخرين الذين استمتعوا بمشاهدة العرب فيما شقّت عليهم قراءة قوائم الطعام. لجهلهم العادة العربيّة في أرجحة الفنجال من جانب إلى آخر إشارةً إلى الإكتفاء من القهوة، أخذ الركّاب الآخرون يمدّون الفناجيل إلى القهوجيّين قائلين: "شكراً، لقد اكتفيت"، وقد ارتوى عطش فضولهم إلى حدّ كبير بمجرّد رشفة من ذاك السائل الأصفر. كان القهوجيّون يبتسمون،

جاهلين تماماً معنى تلك الكلمات، فيملأون من فورهم الفنجال الممدود. تفادياً لذلك، راح البعض يخفي الفناجيل في سترته أو في قبضة يده لدى اقتراب القهوجيّين، تقليداً لما فعله آخرون. كان القهوجيّون شديدي الانتباه لمن تناول فنجالاً ولمن لم يفعل، فيقفون ساكنين قبالة الركّاب ينتظرون بصبر إلى أن يُظهر الراكب فنجاله، فيملأه القهوجي سريعاً من جديد. وإذْ رأى أحد العرب التعبير المؤلم على وجه أحد الركّاب الأمريكيّين فيما كان فنجاله يُملأ للمرّة الرابعة، سار نحوه وقام بحركة تشير إلى أنّه سيشرب القهوة، التي ارتشفها جرعة واحدة، وانتظر إلى جانب الأمريكي إلى أن رجع القهوجي. مدّ العربي الفنجال ناحية القهوجي، وأرجحه في اتجاهين لما فيه صالح الأمريكي، فأخذه القهوجي. انتشرت الأرجحة مثل نارٍ في الهشيم، بعد ذاك، أصبح وقت القهوة العربيّة أحد أكثر الأنشطة شعبيّة على العَبَّارة.

وأصبحت دِلال القهوة النحاسيّة هدفاً أساسيّاً لصائدي التذكارات. في الليلة التالية لإبحارنا من نابولي، في أثناء رحلتنا الممتدّة على تسعة أيّام، جاءَني أحد الفتيان القهوجيّين مقتحماً حُجرتي وحانقاً لدرجةِ أنّ عينيه اغرورقتا بالدموع.

"لقد تعرّضتُ للسلب سيّد أرنولد!".

"ما الذي حصل؟ هل اقتحم أحدٌ حُجرتك؟".

"لا، لا! أخذت سيّدة أباريقي منّي".

قلتُ موبِّخاً: "بربّك، كيف لسيّدة أن تسلبك أباريقك؟".

"سلبتها ببساطة يا سيّد أرنولد. رافقني رجاءً واجعلها تعيدها إليّ".

"أين هي؟".

"في ردهة الاستراحة". وأمسك بذراعي لكي يسحبني من الكرسي.

"انتظرْ دقيقة. أوّلاً، أريدك أن تخبرني ما حدث بالضبط. لا أعتقد أنّه بوسع أيّ أحد أن يأخذ أباريقك ببساطة. والآن، قلْ لي كيف أخذتها تلك المرأة".

"في الواقع يا سيّد أرنولد، ليلةَ أمس كنتُ جالساً برفقة سيّدة – هي آية في الجَمال، بيضاء الشَعر– وكنّا نتأمّل النجوم على ظهر السفينة. أعجبتها أباريقي، فأعطيتها لها. لكن عندما سرتُ معها إلى حُجرتها، قالت لي: عم مساءً وحسب. أغلقت الباب وحسب. ولم تدعني أدخل حجرتها، ولم أتلقّ شيئاً مقابل الأباريق. هي آية في الجَمال، لكن لا يجدر بها أن تأخذ أباريقي إذا كانت ستغلق الباب وحسب".

بما أنّ الفتى لم يكن يتكلّم الإنجليزيّة، فلا بُدّ من أنّهُ غَفِلَ عن إشارةٍ أساسيّة في لغة المغازلة التي كان يستعملها. رافقتُه إلى الردهة وأشار إلى بيضاء الشَعر الفاتنة الجمال، والتي كانت فتاةً شقراء فائقة الجاذبيّة في العشرين من العمر تقريباً.

سجّلتُ في ذهني أنّني سأحمل الدِلال النحاسيّة في حقيبتي في الرحلة التالية، فيما شرحتُ للفتاة أنَّ سيّد الفتى سيُنزِل به عقاباً شديداً ما لم يَسْتَعِدها.

"حسنٌ، لا أنوي البتّة أن أوقعه في ورطة"، قالتها وهي تبتسم ببراءة مُغوية، وبدا القهوجي وكأنّه لا يبالي إن أعطاها كلّ حبوب الهيل في حوزته. أرشدتنا إلى حُجرتها، ودعتنا إلى الدخول، وأعادت الدِلال إلى الفتى. وأضافت بابتسامة أبرزت غمّازتيها : "لا أزال أعتقد أنّهُ جذّاب ورومنسي حتّى وإن كان راجعاً في هِبته". غادر الفتى الحُجرة على مضض ومشى نحو حجرته بصمتٍ يُخطّط لمقاربة الفاتنة بطريقة جديدة.

كان الملك سعود ومجموعته موضوع اهتمام المصوّرين الهواة، وكانوا يقبلون طوعاً وبصبرٍ أن يَلتقط صورةً لهم كلُّ حامل آلة تصوير كوداك. كان الملك يَخرجُ يوميّاً إلى سطح السفينة المشدّد الحراسة، للمشي والسلوى ولم تسبق لي رؤيته على هذا القدر من السرور

وراحة البال كما رأيته في خلال هذه الرحلة عبر الأطلسي. أقام احتفالاً لكلّ ركّاب قسم الدرجة الأولى من السفينة، وصافح بلا كللٍ يد كلّ ضيف في خلال تلك الرحلة الطويلة. رغم تمنّعه عن شرب الكحول والتدخين وفيما ارتشف هو عصير البرتقال، تقصّد بكلّ كياسة غضّ الطرف عن المشروبات المخلوطة التي كان القيّم على الحفل يقدّمها إلى الضيوف.

أُدّيت صلاة المغرب في غرفة الكتابة والمراسلات في مقدّمة السفينة – حيث ترأّس الملك سعود المجموعة تماماً كما في زياراته إلى القبائل. قام القيّم على السفينة يومياً بدخول الغرفة قبل وقت الصلاة ليُشير إلى الوجهة الدقيقة لمكّة المكرّمة برسمٍ سهم على دائرة ورقيّة كبيرة عُلّقت على الحائط، وذلك لكي يتمكّن الجميع من ضبط صلواته ناحية الوجهة الصحيحة. احتشد ركابٌ آخرون عند الأبواب والنوافذ الزجاجيّة لرؤية المشهد؛ وعندما أحضر بعضهم آلات تصوير، حُجبت غرفة الكتابة تماماً للحفاظ على خصوصيّة الصلاة.

في اليوم الأخير، تعيّن علينا الرسو في نيويورك بطلوع الفجر الضبابي البارد من شهر يناير. رسى القبطان خارج ميناء نيويورك عند منارة "أمبروز" في خليج "غرايفسِند"، ونُقل الملك سعود وأبنائه ووزراء الحكومة إلى السفينة الحربيّة "ويليس.أ.لي"، على متن أسطول من المدمّرات رافقهم حتّى رصيف السفينة. لازم باقي المجموعة السفينة التي كنّا على متنها. طاف سفينتّنا أسطولٌ صغير في وسط الضباب الكثيف، وفيما كان الملك سعود يُنقل إلى سفينة خفر السواحل "تاكاهويه" التابعة للقوّات البحريّة الأمريكيّة والتي كانت ستصحبه إلى السفينة الحربيّة. تدافعَ عددٌ من الصحفيّين الرجال على سطح "كانستيتوشن"، وقبل أن تعاود تحرّكها، حاولوا الاستحصال على أخبارٍ من كلّ عربي بقي على متنها. كان الصمت الصادق الإجابة الوحيدة التي حصلوا عليها عن وابل أسئلتهم. قال أحد المراسلين لي:"مرحباً، قالوا لي إنّك القيّم على أمور الملك. ما رأيك في العناوين الرئيسيّة في صحف اليوم؟"، ومدّ لي بعدّة صحف لمع خطّها الأسود المُبرَز العريض:

المحافظ واغنز يتنكّر لسعود؛

نيويورك لن تستقبل سعود بحفاوة؛

المحافظ يُعرِض عن سعود.

شعرتُ بالإحراج والغضب، عرفتُ أن وجهي احمرّ. تمتمتُ: "يا إلهي! أَوَ يُعقل أن يكون واغنز يائساً لهذه الدرجة من أجل الأصوات الانتخابيّة لكي يفعل هذا؟". طويتُ الصحف وأرجعتها إلى المراسِل وسِرتُ مبتعداً.

هرعتُ إلى حجرتي، مغتاظاً من المنحى السياسي التافه الذي حوّل فجأةً ما كان يُفترض به أن يكون احتفاءً إلى خَرْقٍ مُهين لأصول اللياقة المعتادة. في حجرتي التي كنتُ أتشارك فيها مع سكرتير السفير وادسوورث، وجدتُ مزيداً من الصحف التي أوصلها أحد المضيفين على السفينة له. قرأت تصاريح المحافظ واغنز العلنيّة عن الملك سعود وطُفتُ خجلاً جرّاء الوقاحة التي يتجرّأ أيّ مسؤول أمريكي على التلّفظ بها.

بالعمل ضمن صلاحيّاته وحقوقه الموجِبة، رفض المحافظ طلباً روتينيّاً من وزارة الخارجيّة الأمريكيّة منذ عدّة شهور تدعو فيه ولاية نيويورك إلى تنظيم الإستقبال التقليدي الذي يُقام ترحيباً برئيس دولة أجنبيّة زائر. كانت له سوابق أخرى في رفض طلبات مماثلة تجاه زوّار آخرين، وأخذتْ وزارة الخارجيّة الأمر بالتالي على عاتقها من دون أيّ اعتبار آخر للطلب.

لكن هذه المرّة ويوم وصول الملك سعود، شعر المحافظ واغنز بلزوم التصريح علناً عن الأسباب التي دعته إلى رفض استقبال الملك. بحسب عنوانٍ رئيسي على الصفحة الأولى من جريدة "نيويورك تايمز"، بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٥٧، يوم وصولنا، قال واغنز في الملك سعود على أنّه مُعادٍ لليهود، وللكاثوليك المسيحيّين. لعِلم المحافظ المشوَّش الذهن، بل الانتهازي، جدير

بالذكر أنّ الملك سعود – على الرغم من كونه معادياً للصهيونيّة - كما في حال كثير من اليهود البارزين في العالم، هو ليس معادياً لليهود. في الواقع، سبق أن استقبلهم في قصره في الرياض.

إلى جانب العنوان الرئيسي في "نيويورك تايمز"، اقتُبست في المقالة التابعة له أقوال عن المحافظ يقول فيها إنّ القوّات الجويّة الأمريكيّة حُظّرت من السماح لأيّ كاهن كاثوليكي بإقامة القدّاس في مَرافق القوّات الجوّيّة قرب الظهران في المملكة العربيّة السعوديّة. وهي بالطبع كذبة صارخة. يُقام القدّاس أسبوعيّاً في مرفق القوّات الجوّيّة، وإذا أراد أفراد القوّات، باستطاعتهم حضور الخدمة الأسبوعيّة التي يترأّسها كاهن كاثوليكي في كلٍّ من مجمّعات أرامكو. ومع أنّ التعاليم الكاثوليكيّة تتعارض مباشرةً مع العقائد الإسلاميّة التي ترعى حكم الملك سعود لبلاده، يتمتّع الكاثوليكيّون في السعوديّة بامتياز إقامة القدّاس وحضوره – ممّا يُظهر موقفاً أكثر تسامحاً من جهة الملك سعود يفوق موقف المحافظ واغنز.

أدّى حرس البحريّة التحيّة العسكريّة من خلال إحدى وعشرين طلقة مدفعيّة دوّت عبر "كانستيتوشن" مُعلنةً أنّ حكومة الولايات المتّحدة ترحّب ترحيب شرفٍ بالملك سعود حتّى وإن تمنّع واغنز عن ذلك. رست السفينة الحربيّة عند الرصيف ٤٥، حيث عزفت فرقة البحريّة المؤلّفة من خمسةٍ وعشرين فرداً لحناً ملكيّاً بالأبواق مع ترجّل الملك سعود من السفينة. رحّب هنري كابوت لودج الذي كان سفيراً للأمم المتّحدة في حينه بالملك سعود، قائماً مقام الرئيس أيزنهاور. أرشد لودج الملك سعود إلى خيمة خضراء وبيضاء مجتازين ستّة وعشرين فرداً من قوّات خفر السواحل البحريّة، حيث كانت وفودٌ من سفارات الشرق الأوسط بانتظار العاهل السعودي للترحيب به. رافق السفير لودج الملك سعود، حاملاً الأمير مشهور الصغير، إلى "والدورف تاورز"، حيث كانت المجموعة الزائرة ستنزل حتى الصباح التالي.

عند مدخل الفندق، تجمّعَ نحو مئة مراهقٍ، احتالوا بطريقة جديدة ما على المدرسة لتفويت حصصهم. هَدَفَ تجمّعهم إلى الاعتصام احتجاجاً على وجود الملك سعود، مطلقين نكاتٍ وضحكات فيما تحرّكوا ذهاباً وإياباً بحركة بطيئة خلف حاجز الشرطة.

تفادياً للحاجز اللغوي الذي واجهناه في فندق إكسيلسيور في نابولي، تعامل المسؤولون من مكتب البروتوكولات بإدارة السيّد ڤيكتور پُرس مع الوضع بسهولة لا توصف. أُعطي الكلّ رقمَ غرفته في "والدورف" فيما كنّا لا نزال على متن "كانستيتوشن". كانت حقيبتي قد أودعت جناحي بحلول وقت وصولي إليه. بعد دقائق قليلة على دخولي جناحي، ظهر أحد مستشاري الملك سعود عند بابي.

"أرسلني مولاي لأخبرك بأنّه سيتناول الغذاء مع السيّد هامارشلد في الأمم المتّحدة وأنّ الليلةَ سيُقام حفل استقبال ومأدبة. يودّ جلالته منك أن تنسّق أمر ترتيبات نظامه الغذائي مع إدارة الفندق".

"هل كان جلالته راضياً عن الاستقبال الذي تلقّاه من ممثّل الرئيس أيزنهاور؟".

"نعم، لقد شرّفه الاستقبال لكنّه لم يفهم ما داعي المشكلات التي سبّبها محافظ نيويورك".

"هل أزعجته الأخبار الواردة في الصحف؟".

"كان الأمر شديد الإحراج بالنسبة إلى جلالته. رئيسكم هو من دعاه إلى زيارة بلادكم، وقد جاءها بصفة صديق، لكنّه يصعب جدّاً على جلالته الإيمان بأنّ شعبكم شعباً صديقاً، لقيامهم بما قاموا به. لكن، كما تعلم، جاء مولاي إلى بلادكم لرؤية الرئيس أيزنهاور وليس محافظ نيويورك، لذا ما يفعله المحافظ لا أهميّة له".

بعد أن رجع إلى جناح الملك سعود، قاطع اتّصالٌ مزعجٌ خطّتي بالاستحمام والحلاقة جاء من عاملة الاستقبال في الردهة الرئيسيّة.

"سيّدي، أرجوك أن تعلمني إذا ما كنت تنطق بتلك اللغة التي يستعملها الملك ورجاله؟".

قلتُ:"قليلاً".

"وأنت تتكلّم الإنجليزيّة سيّدي، أليس كذلك؟".

"نعم، بالطبع، لكن ما الـ....".

"هلاّ خرجت إلى منضدة الردهة فوراً؟".

"ما الأمر؟".

"احضرْ حالاً وحسب. أحد أولئك الشبّان يجول الردهة عارياً باستثناء سرواله التحتي!".

عندما وصلتُ إلى منضدة الردهة، رأيتُ عاملة الاستقبال، قلقة مصدومة، تكلّم أحد القهوجيّين بالإشارات، وقد وقف أمامها بسرواله التحتي القصير مدهوشاً من ارتباكها. قالت متوسّلة: "ما الذي يريده بحقّ الله؟"،وقد نظرتْ إلى المصعد بتوتّر ثمّ إلى القهوجي. خرجَ من المصعد عددٌ من الناس باتّجاه الردهة، حدّقوا إلى الفتى، وقهقهوا فيما عبروا الرواق. "أرجوك خذه إلى غرفته واعرف ما يريد!".

داخل الغرفة، شرح لي أنّ الحقيبة التي احتوت المشلح التقليدي الذي يرتديه عند تقديم القهوة لم تصل وهو يحتاج إليه على الفور. اعتَقَدَ أنّه بحوزة المرأة عند منضدة الردهة. قلتُ له إنّه لا بُدّ أنّه تُرِك في البهو على الأرجح. اندفع نحو الباب وأسرع عبر الرواق إلى المصعد في الوقت الذي كان مصراعا بابه ينفتحان. ظهرت امرأة عجوز سمينة يتقدّمها كلب صغير أمسكته برسن. نظرتْ إلى العربي مصدومة للحظة، ونبح الكلب بصوت غاضب حادّ. بعد أن خرجتْ من الصدمة، استدارتْ وسارتْ بغطرسة عبر الرواق من دون أن تتلفّظ بكلمة.

قلتُ للعربي بعد أن لحقتُ به: "إسمع، عليك العودة إلى غرفتك وارتداء مزيد من الثياب. قد يكون من الملائم أن تتجوّل في القصر بسروالك التحتي لكن لا يجوز أن تفعل ذلك في فندق". ذهب إلى غرفته على مضض وعاد بعد دقيقة يرتدي ثوبه. أومأتْ المرأة عند المنضدة بحركة تنمّ من اليأس. قالت: "كم هذا ملائم. من سرواله التحتي إلى قميص نومه".

قلتُ لها: "هذا لباسه الاعتيادي".

"قد يكون كذلك، لكن لا يسعه النزول إلى البهو أو إلى أيّ مكان يريده بهذا اللباس من قطعة واحدة، حتّى وإن كان يضع أزرار أكمام ثمينة. والآن قل له أن يرجع إلى غرفته ويرتدي شيئاً آخر قبل أن أستدعي التحرّي لدينا!".

بدت متحكّمة بصوتها بالنظر إلى شبه الهستيريا التي كانت تشعّ من عينيها. قلتُ للقهوجي: "عليك ارتداء أكثر من الثوب لكي يتسنّى لك النزول إلى البهو". فهزّ كتفيه ورجع مرّة أخرى إلى غرفته.

عاود الظهور على الفور تقريباً مُزنِّراً هذه المرّة ثوبه بحزامٍ جلديٍ أسود عريضٍ، يتدلّى منه مسدّس إلى خصره. لم تلبث المرأة أن ألقت نظرة واحدة على المسدس حتّى هرعت مذعورة إلى باب الخروج ومنه إلى السلالم.

في المصعد المكتظّ، نزلنا بصمتٍ وقور ما لم نقل واجف، لِما أوحى به سلاح القهوجي. وإذْ كان الفتى عازماً على إنجاز مهمّته في استعادة أمتعته المفقودة، كان غافلاً للإحساس الذي كان يولّده في الآخرين. في البهو، سَهُلَ تعرّف حقيبته وهي صندوق حديدي مطلي بالأحمر الصارخ والأصفر والأزرق، ثُبّتت على جانبيه مرآتان صغيرتان. رفعه على كتفه، وسِرنا نحو المصعد وقد أمسينا قبلة أنظار كلّ مَن في البهو من أوّله إلى آخره.

بالطبع، رفض مشغّل المصعد السماح للفتى بحمل قوس القزح المحمول إلى الطابق العلوي في مصعد النزلاء، مُصِراً على أن يُنقل في عربة نقل الأمتعة. لم يحتمل الفتى إمكانيّة فقدان ثوبه من جديد. أنزل الصندوق عن كتفه على أرض البهو، وجلس عليه، فيما توسّلتُه أن يدع عتّال الأمتعة يأخذه إلى غرفته. بقي على إصراره إلى أن ذكّرته بالورطة التي سيقع فيها إذا لم يظهر برفقة باقي القهوجيّين لتقديم القهوة لمستشاري الملك. طمأنتُه أنّ الصندوق سيكون في غرفته لدى وصولنا إليها، وأخيراً، سلّمها، بشكٍّ كبير إلى عتّال الأمتعة، وسرنا من جديد ناحية مصعد النزلاء. لدى خروجنا من المصعد في طابقنا، رأيتُ عاملة الاستقبال في الردهة تصرخ: "ها هما! هذا هو!". تقدّم منا بحذرٍ شخصٌ ضخم القوام والذي افترضتُ أنّه التحري في الفندق وطلب إلينا تفسيراً.

أرسلتُ بالقهوجي إلى غرفته، وذررتُ الملح تدريجاً على قصة خرافيّة على ما يُحتمل، مُطمئناً الشرطي والمرأة أنّ مسدّس الفتى فارغ من الرصاص. وما إن فرغتُ من حديثي، حتّى عاود القهوجي الظهور في الردهة، وكأنّه استعراض من كلّ الألوان. كان مشلحه من اللون الأحمر القرمزي والمطرّزة أطرافه بالفضّي، كارثي التضارب مع حذائه الأصفر وغترته المتعدّدة الألوان بين بنفسجي وأزرق وبرتقالي، ثبّتها على رأسه بالعقال المزدوج. تأرجح غمد سيفه الذهبي والمطعّم بأحجار لمّاعة تحت مشلحه، وكان طويلاً لدرجة أنّه أوشك على ملامسة الأرض. وحمل بيده مِبخرة كبيرة مطليّة بالذهب وقد جاش الدخان الصاعد منها خلفه، مالئاً الرواق برمّته فيما تبدّد وهو ينعطف عند الزاوية. نظرت المرأة إليّ بطرف العين نظرة ازدراء مدروسة فيما شقّت طريقها إلى مكانها ملوّحة عبر الأدخنة وقالت غاضبة: "ما الذي ستدعه بفعل مرّة ثانية؟ أن يستحضر الجنّي ويحرق الفندق؟". انسحبتُ بصمتٍ إلى غرفتي، فقد انتهت للحظة مغامرتي في مضمار العلاقات الدوليّة.

بما أنّ ملابسي اقتصرت على السترة والبنطال من جدّة، والحذاء من القاهرة، والمعطف القصير من نابولي، طلبتُ بذّة سوداء من متجر لألبسة الرجال قرب الفندق، وعدني مدير المتجر بإيصال البذّة بحلول الساعة السادسة مساءً، الوقت الذي سأحضر فيه حفل الاستقبال والمأدبة. توقّفتُ عند مطبخ الفندق للاطّلاع من جديد على قائمة طعام المأدبة مع مدير الحفلات الخاصّة في الفندق، ثمّ عدتُ إلى غرفتي منتظراً وصول البذّة. مرّ بي صديقٌ من مكتب أرامكو في نيويورك، حاملاً زجاجة ويسكي وشربنا نخب زيارة الملك سعود، وعودتي من قحط الصحراء، وزيارته هو لفندق والدورف. أخبرتُه بأمر العمل الطائش الذي أقدم عليه القهوجي، وشربنا نخب عاملات الاستقبال. لم أكن قد تناولتُ شيئاً منذ الفطور على متن السفينة، وقبل انتهائنا من شرب الأنخاب، كان أمري قد انتهى عملياً.

عند الساعة السادسة والنصف، جاءني المدير المسؤول عن المأدبة ليطلب إليّ الذهاب إلى قاعة المأدبات والتحقّق من التجهيزات. أجبتُه، وقد انفجرتُ ضحكاً: "سأتحقّق، لكنّي سأكون مختلاً".

رسم ابتسامةً جامدة على وجهه بعد أن اكتشف متأخّراً الخطأ الذي ارتكبه في مدّي بشرف الدعوة إلى التحقّق من التجهيزات. لم تكن بذّتي قد أُوصلت بعد، لذا، عمدتُ في لحظة من الإلهام المترنّح إلى ارتداء ثوبي فوق قميصي وبنطالي وألقيتُ ببشتي فوق كتفيّ، وبشماغي وعقالي الذي مال بحدّة إلى جانب واحد ممّا حدّ من صعوبة تركيزي. جررتُ نفسي في الرواق وأنا أبدو شبه الفنّانة التعبيريّة غرترود شتاين. ساعدني رفيقي في رفع ذيل بشتي لئلّا أتعثّر وأسقط، وفيما مررنا بعاملة الاستقبال، نظرت إليّ شبه مصدومة إذْ خشيت أن أكون القهوجي من جديد.

مع بلوغنا قاعة الحفلات، كان حفل استقبال الملك سعود قد بدأ. ضاع حامل ذيل لباسي بين الحشد. أخذتُ ألفّ طيّات بشتي المتهدّلة في لفائف مُحكمة حول يدي اليسرى، فالتفّ الذيل

بإحكام حول كاحليّ. رحتُ أتبختر في القاعة، متبسماً بتوتّر، كهيئة رجل عليه قضاء حاجته على الفور. تعرّفني أحد أبناء الملك سعود، وما إن فرغ من نوبة ضحكه عليّ، أخذني إلى خلف شجرة نخيل في حوض حيثُ صوَّب شماغي والعقال، وأعاد دوران الدم إلى ساقيّ بعد أن حلّ رباط البشت ولفّه بالشكل الصحيح عند يدي. شكرته بانحناءة مبالغة ثمّ انتصبتُ مترنحاً وسقطتُ داخل سلّة من زهر الدلبوث. أمسكني بيدي وأصرّ على أن أتوجّه معه إلى أبيه لكي يتسنّى للملك سعود أن يصافح البدوي الأوحد في نيويورك.

حيّا الملك سعود كلّ من وقف في صف الضيوف الطويل بكياسة وهيبة. عندما ظهرتُ أمامه، صافحني لكنّه لم يتعرّفني إلى أن عرّف الأمير بي على أنّني السويسري من الصحراء. كسرتْ ابتسامة من التفاجؤ محيّا الملك الجدّي، واقترب هامساً في أذني: "اعتقدتُ أوّلاً أنّك المحافظ واغنر". من قاعة الحفل، توجّهتُ إلى قاعة المأدبات حيث كانت الطاولات قد جُهّزت بشكل جميل للعشاء. أقحم مصوّر ملعقة كبيرة في يدي وطلب إليّ أن أنحني مدّعياً أنّني أتذوّق الحساء فيما التقط صورتي بآلته الوامضة. ظهرت إحدى الصور لاحقاً في مجلّة "لايف" التي أكرمت عليّ بلقب شديد الابتكار: "متذوّق الطعام الملكي لدى الملك سعود". رجعتُ إلى جناحي، لكن، بحلول الوقت الذي وصلت فيه بذّتي، كانت المأدبة في أوجّها، لذا، ارتديتُ ملابس عاديّة، وتناولت عشائي في كافيتيريا لا ترقى إلى مستوى الروائع الذوقيّة للمأدبة، ورجعتُ باكراً. كان علينا مغادرة نيويورك إلى واشنطن في التاسعة من صباح اليوم التالي.

توجّهتُ إلى المطار في سيّارة أجرة برفقة سكرتيرَي الملك الناطقين بالإنجليزيّة. عندما بلغنا جسر العبور برسم، أخذ الموظّف المال من السائق وألمح بنظرة إلى داخل السيّارة ملاحظاً الثياب العربيّة التي ارتداها الرجلان. وما إن تحرّك السائق، صرخ بنا وبصق على السيّارة قال: "غادروا البلاد أيّها الأدنياء!". تلوّيتُ من العار ونظرتُ إلى السكرتيرين العربيّين وأنا أبحث عن كلمات تبرير عجزتُ عن إيجادها. نظرا محدّقين إلى أمام بلا اكتراث. وأكملنا سيرنا إلى المطار بذلٍّ صامت.

كان الرئيس أيزنهاور قد أرسل طائرته الشخصيّة لأخذ الملك سعود إلى واشنطن. حضر الرئيس عن قصد إلى المطار للترحيب بضيفه في واشنطن، وهو شرف لم يمنحه لأيّ حاكم أو رئيس دولة منذ أربع سنين. استُقبل الملك لدى وصوله بتحيّة الطلقات الناريّة الواحدة والعشرين، وخلافاً للترحيب البارد في نيويورك، قُدّم إليه مفتاح المدينة ما إن وطأ أسفل سلالم الطائرة. حَدّ آلاف الأمريكيّين المهلّلين الطريق من جانبيه، من المطار إلى "بلير هاوس". استقلّ الملك سعود، حاملاً الأمير مشهور في حضنه، السيّارة مع الرئيس أيزنهاور على طول الشوارع.

ذهبتُ مُسبقاً إلى "بلير هاوس" لكي أقابل السيّدة فيكتوريا جيناي في ترتيبات إقامة الملك سعود في منزل الضيوف الحكومي الرسمي. عُلِّق فوق مدخل المبنى علم ضخم، علم المملكة الأخضر بالآية العربيّة والسيف تحتها باللون الأبيض. فتح لي جندي من البحريّة الباب وحيّاني بحركة فائقة الرشاقة لدرجة أنّها لو لم تكن شديدة الدقّة، لاقتلعت أذنه.

داخل "بلير هاوس"، دنت منّي سيّدة جميلة المظهر وجذّابة وعرّفت عن نفسها بإسم السيّدة جيناي، تبعتها إلى الطابق السفلي حيث شقّتها، كانت جدران شقّتها مغطّاة بصورٍ لكثير من المشاهير الذين نزلوا في "بلير هاوس" وموقّعة منهم. كانت السيّدة جيناي قد سبق أن حصلت على نسخة من النظام الغذائي للملك سعود وشرحت لي أنّها أصدرت أمراً بمنع التدخين تماماً في المبنى لدى وجود الملك وحظر المشروبات الكحوليّة في المسكن دوام الزيارة، كما أنّها قد رتّبت أمر إحضار سرير طويل خاص لغرفة الملك. تحدّثت السيّدة جيناي في شؤون عملها بعفويّة من دون ولو ذرّة اعتداد بالنفس إزاء أهميّة منصبها والخطر الذي يحمله. كان سحرها الطبيعي ما جعلها مناسبة تماماً لقالب عملها.

أخذتني في جولة على منزل الضيوف وكان الأثر العام للمكان مخيّباً للأمل. خلّف "بلير هاوس" فيَّ انطباعاً كالانطباع الذي قد يخلّفه متحف متوسّط الذوق، بطابعه الذي يُشبه نزلاً ريفياً يستقبل زبائن من صائدي التحف الأثريّة. كانت السلالم الضيّقة والمتشقّقة تناسب إطار

"بليك هاوس" أكثر من منزل ضيوف رسمي مخصّص لإقامة بعض أهمّ الشخصيّات في العالم. في خلال إقامتنا في واشطن، قال لي أحد القهوجيّين أنّه لا بُدّ أنّ الرئيس أيزنهاور فقير الحال ليُنزل ضيوفه في مكان قديم كهذا.

لم يتّسع "بلير هاوس" سوى لبعضٍ من حاشية الملك سعود الهائلة. ونزل الباقون في فندق قريب. حققّت جولة الأغدية واللقاءات وحفلات الاستقبال والمأدبات وحفلات الترفيه الخاصة نجاحاً ديبلوماسياً وشعبياً كبيراً بوجود السعوديين الزائرين. غير أنّ النجاح الأكبر لزيارة الملك سعود جاء نتيجة تغيُّر في الخطط.

كان الملك سعود قد قرّر في الأساس ترك موضوع جلب الأمير مشهور إلى الولايات المتحدة من أجل العلاج أمراً سرّياً. كان الأمير سيُعالج في مستشفى مموّل من اليهود في واشنطن، وكان مستشارو الملك قد أقنعوه بأن الإعلام عن الأمر سيُسبّب له الإحراج في الشرق الأوسط. في أثناء إقامتنا في نابولي، سافر أحد مدراء العلاقات العامة في أرامكو إلى إيطاليا، وفي اجتماع له مع الملك سعود، أشار عليه بأن إبقاء أمر زيارة الأمير مشهور للمستشفى تحت طي الكتمان سيكون صعباً. لذلك، قال للملك إنّه قد يرغب في تدبير أمر علاج الأمير مشهور في مستشفى لا يستقطب الإعلام المحرج. اجتمع الملك سعود مع ممثلّين من مكتب البروتوكولات في وزارة الخارجية الأمريكيّة وأشاروا أنّه من الممكن إجراء ترتيبات لإدخال الأمير مشهور إلى مستشفى "والتر ريد" في نيويورك بما أنّ الملك سعود يزور واشنطن بدعوة من الرئيس أيزنهاور .

قرّر الملك عدم الإبقاء أمر علاج الأمير الصغير سراً، وفتح بلا قصد، باباً لتجترح به الصحافة المتقلّبة معجزة بسيطة تنمّ عن حسن النيّة.

كانت صور الأمير مشهور، من أول ظهور له في حضن أبيه في أثناء التوجّه في السيّارة إلى واشنطن، كافية لتوقظ خيال الشعب الأمريكي. حتّى أكثر الصحفيين ميلاً للانتقاد عَجِزَ عن إحباط تجاوب الشعب الأمريكي مع الفتى الصغير المشلول. شكّلت الحفلة التي أقيمت من أجله في المستشفى، حدثاً اجتماعياً عالمياً للأطفال. وكانت عيناه المستديرتان البريئتان وابتسامته العابثة، التي ظهرت في كلّ صحيفة رئيسة في الولايات المتحدة، وراء اتّخاذ الإعلام منحىً لصالح

المملكة أفادها أكثر ممّا كان لأي ترويج متعمَّدأن يحقّقه، وأحبط تماماً محاولة المحافظ واغنز في تشويه زيارة الملك سعود.

الفصل ٥

أشخاصٌ بالغو الأهميّة : نهايةٌ، بداية

قبل أيامٍ قليلة على الموعد المحدّد لمغادرة الملك سعود وحاشيته أمريكا للعودة إلى السعوديّة، إستدعاني جلالته إلى "بلير هاوس". أعلمني أن شاه إيران سيلبّي الدعوة لزيارة المملكة. كانت الزيارة ستتمّ في الأسبوع التالي لعودة الملك، لذا، أوجب عليّ السفر من فوري إلى الرياض كي أتحقّق من أنّ كلّ شيء مجهّز لزيارة الشاه. بعد يومين على مغادرتي الولايات المتحدة، عُدت من جديد إلى قصر الناصريّة.

كان المطبخ الجديد في قصر الاستقبال يعمل بفاعليّة، باستثناء أنّ سحب الروائح المتصاعدة من الأطعمة كان موجّهاً بابتكار هندسي ما، إلى مكاتب الملك الخاصّة. عولجت المشكلة بشحنة من معطّرات الهواء ومعارف مهندس ألماني. أذعتُ خبر زيارة الشاه الوشيكة فاهتزّ العاملون واستيقظوا من خمولهم الذي تعوّدوه في غياب الملك سعود. كانت زيارة الحاكم الإيراني ستشكّل الحدث المهمّ الأول في قصر الناصريّة منذ افتتاحه. وضخّت كلّ زيارة من شخصيةٍ أجنبيّة رفيعة المقام إلى البلاد الحماسة في أرجاء الرياض، لمجرّد أنّها كانت تكسر رتابة الحياة في العاصمة بسلسلة من العشاءات الباكرة والولائم، وسباقات الأحصنة ومباريات كرة القدم التي كان يُدعى إليها كثيرٌ من تجّار الرياض الأغنياء وكلّ أعضاء البلاط الملكي النافذين. كانت المناسبات تؤمّن فرصة كبيرة لتألّق الفرق في الألعاب الرياضيّة.

توقّف الملك سعود في القاهرة في طريق عودته إلى السعوديّة لإجراء مزيد من النقاشات مع الرئيس المصري عبد الناصر. رحّبت الصحافة المصريّة بهما ودعتهما بالشخصيّتين الأكثر نفوذاً في الشرق الأوسط اللتين من شأنهما تشكيل أمّة عربيّة موحّدة.

وصل الملك إلى الرياض وفي استقباله حشود من شعبه حيّته بالهتافات وافتخرت به قائداً بين العرب، وهو دورٌ لم يكن من المقدّر له أن يؤدّيه لفترة طويلة. شهدت ترتيبات زيارة الشاه محمد رضا بهلوي على التعقيدات بسبب زيارة الملكة ناريمان، الزوجة السابقة لملك مصر المخلوع فاروق الأول، والتي تزامنت مع زيارة الشاه رغم عدم ارتباطهما البتة. كان حريم الملك سعود قد دعينها للزيارة، وبما أنّ نساء القصر لا يشاركن أبداً في أي حفلات اجتماعيّة حكوميّة، لما كان لزيارة ناريمان في الأحوال العادية أن تتداخل والخطط المقرّرة لاستضافة الشاه، لكن، للأسف، كان المطبخ في قصر الحريم في الناصريّة غير شغّال وأصرّت النسوة، بما أنهنّ أرَدْنَ إقامة ضيافة استعراضية لناريمان، على السماح لطهاتهنّ باستعمال المطبخ في قصر الاستقبال.

وسرعان ما تحوّل مطبخ قصر الاستقبال إلى ميدانِ معركةٍ بين طهاتنا الإيطاليّين سريعي الغضب وطهاتهنّ العرب الذين نظر الإيطاليّون إليهم باستخفافٍ لاعتبار أنّهم لا يجيدون سوى سلق اللحم. في اليوم الأول، اقتصرت المعركة على تبادلٍ صاخب لنعوتٍ تشهيريّة تخطّت حاجز اللغة. لكن في اليوم الثاني، اكتشف الطهاة الإيطاليّون أنّ فتيان الحريم كانوا يسرقون أواني المطبخ الجديدة التي لا بديل منها في السوق المحلي؛ كان الطهاة السعوديّون يهرّبون الأواني ويدخلونها قصر الحريم بتخبئتها تحت أثوابهم. فكانت المعركة الناتجة محمومة، واعتبرها الإيطاليّون عملاً بطولياً .أُخرج الطهاة العرب ترهيباًمن المطبخ، ومنه إلى الباحة الخارجية، بعد أن طاردهم الإيطاليّون بما تبقّى لديهم من ملاعق وسكاكين ومقالٍ وأسياخ. في الباحة، وفي فورة غضب، ألقت الجبهة الإيطاليّة أسلحتها أرضاً وهاجمت باللَكم والركل . لكن سرعان ما انضمّ الجنائنيّون والحرس والبوّابون إلى صفوف الطهاة السعوديّين. فاقوا الخصم بأشواط، ما لم نقل بأوزان، وانسحب الإيطاليّون في النهاية إلى المطبخ وأقفلوا الباب، معلنين خسارتهم المعركة وأواني المطبخ التي تركوها في الميدان.

في مكتبي في الصباح التالي، تطوّعت بعثة من الطهاة الإيطاليّين لإعداد الوجبات للقصرَين، بشرط أن يبقى الطهاة السعوديّون خارج حدود المطبخ. وافق طهاة الحريم على العرض فرحين للفرصة التي سُنحت لهم بعدم العمل، وأنهوا بذلك الحملة المطبخيّة.

وصل الشاه ومجموعته المؤلفة من عشرين شخصاً في الصباح ذاته الذي تمّ فيه إحلال السلام. استُضيف الزائرون في قصر الحمراء الذي كان مقرّ سكن الملك سعود قبل الانتقال إلى مجمّع الناصريّة. كان الغداء الرسمي سيُقدّم لهم هناك، بعد إعداده في الناصريّة ثمّ نقله إلى الحمراء. ذهبتُ مسبقاً إلى الحمراء للمساعدة في الإعداد لتقديم الغداء. بعد التأكّد من جهوزيّة غرفة السفرة، رحتُ أبحث عن الشاه فوجدته في الغرفة التي شكّلت يوماً غرفة عرش الملك سعود. وقَفَ وسط سجّادة عجميّة هائلة حيث كان أفراد من بلاطه يعملون وهم راكعون على فردها وتسويتها. كان للشاه تقاسيم وجه حادّة وعينان مغرورقتان. وكان منتصب القوام، قوّي المظهر من رأسه إلى قدميه. انتزع كتلة من الخيوط من بذّته الأوروبية، نفضها بيديه، ألقى بنظرة إجماليّة على السجّادة، وقال بالفرنسية: "حسنٌ، يبدو أنها مناسبة تماماً". كانت السجادة هدية للملك سعود.

لدى دخولي إلى الغرفة، رفع الشاه نظره إليّ وابتسم ومشى نحوي. أعلمتُ أحد أعوانه بأنّ الغداء جاهز، وإذْ تناهى قولي للشاه، التفت نحو رجاله وناداهم بصوتٍ عالٍ ودود، قائلاً بالفرنسية من جديد: "هلمّوا بنا نأكل". توجّهتْ المجموعة بعفوية ومن دون شكليّات رسميّة إلى غرفة السفرة، مُحبطة بالتالي جهود حرس الملك سعود البلاطيين في مرافقة أفرادها رسمياً.

تناول الجَمع الوجبة في صمتٍ، باستثناء تردّد صوت الفضة لدى ملامسته الخزف في الصالون الخفيض الذي أحاط بمجموعة المتغدّين الصغيرة، عند انتهاء الشاه ومجموعته من تناول الطعام، هرع فتيان سعوديّون يحملون مباخر وداروا حول الطاولة. التبخير تقليد يلي تناول الطعام لدى السعوديّين، حيث يوجّهون بأيديهم دخّان البخور إلى أثوابهم وحول أعناقهم وإلى شعورهم، وهو طَقَسٌ يحلّ أحياناً محلّ الاستحمام. عندما قرّب الفتيان المِبخرة من الشاه، استنشق البخور بتردّد، وأدار وجهه سريعاً مجعّداً أنفه وجبينه بحركةٍ ساخرة. ولدى ظهور فتيان التعطير الذين تلوا حَمَلَة البخّور بهدف رش ماء الورد في الأكُفّ المتّسخة، وقف الشاه فجأةً وأسرع بمغادرة غرفة السفرة.

مساءً، احتشد خمسمئة ضيفٍ على الوليمة التي كان الملك سعود يقيمها على شرف الشاه. ضمّ الحشد زعماء قبائل من الصحراء، ومسؤولين حكوميّين سعوديّين، وأفراداً من العائلة

المالكة، وتجّاراً سعوديّين أثرياء، وكلّ التابعين المحسوبين على القصر، والمدراء التنفيذيّين من الظهران، وديبلوماسيين من السفارات الأجنبية في جدّة.

(في حين اعتمد الملك السعود الرياض عاصمة بلاده وبنى مكاتب وزاريّة كبيرة فيها بهندسة حديثة جميلة، سعياً إلى مركزة العمليّات الحكوميّة، تبقى جدّة المركز التجاري الصُوَري، ومركز السفارات الأجنبيّة بالنظر إلى قربها من عواصم الشرق الأوسط).

انتظر الملك سعود الشاه في مجلس قصر الاستقبال في الناصريّة. توزّع الحرس الملكي، بلباسهم الأحمر القرمزي والأزرق في شكلٍ غير منتظم أمام القصر. وفي الداخل، أمّاحرس الملك سعود الشخصيّون، ببشوتهم الطويلة المطرّزة بخيط ذهبي، والتي سترت جزئياً الأغماد الذهبيّة الوهّاجة التي حَوَت سيوفهم الاحتفاليّة المتدليّة من على خصورهم، فراقبوا الحشد من زعماء بدوٍ طُوال الشعر حملوا بنادق على أكتافهم؛ وسفراء بربطات عنق بيضاء وبذّات بسترات طويلة، وأميريكيين من أرامكو ببذّات داكنة.

أعلنت صفّارات المركبات اقتراب موكب سيارات الكاديلاك التي يستقلّها الشاه، ولدى وصوله، عزفت فرقة الجيش العربي السعودي الملكي الستينيّة عدداً من الألحان من النشيدَين الوطنيَّين السعودي والإيراني. كان الشاه يرتدي بنطالاً داكن اللون وسترة جلديّة تهدّل جانبها الأيسر تحت ثقل كتلة الأوسمة. نظر الشاه نظرة خاطفة جامدة إلى الحرس، وصعد درجات واجهة القصر بخفّة سريعة. تَبِعَهُ المسؤولون لديه إلى داخل القصر ومنه إلى المجلس، وهم يرتدون زياً رسمياً محمَّلاً بالأوسمة أيضاً.

نهض الملك سعود من على عرشه وتقدّم نحو الشاه. أمسك الملك بيد ضيفه وتوجّه به إلى كرسي وثيرة إلى يمين العرش. بعد أن تبادلا السلام عبر ترجمانيهما، جلسا بصمتٍ فيما قدّم خَدَمُ الملك عصير البرتقال. تلا جولة العصير، جولة القهوجيّين التي لا مفرّ منها، فيما تناهى إلى القاعة من خارج وبوضوح لحن الأغنية الشهيرة "Don’t Fence Me In"-من الواضح أنّ الفرقة قد انتهت من تأدية الجزء الرسمي من برنامجها. وقف خلف الملك سعود ثمانية من أبنائه يراوح عمرهم بين ١٤ و ٢٠ سنة، وقد دلّ لون بشرتهم والاختلافات الطفيفة في بسمات وجوههم إلى اختلاف نَسَبِهم من جهة الأم– أكان صومالياً أم سورياً أم عُمانياً أم لبنانياً.

تحدّث الملك والشاه بشكل متقطّع في وسط الأحاديث المكتومة وتنقّل الأرجل، وهسهسة الأثواب. غير أنَّ صمتاً مُطبقاً ملأ الجو عندما فتح الشاه علبة سجائر ذهبيّة واستعد للتدخين. كان التدخين محرَّماً في القصور بما أنّه كان يتعارض تماماً مع أحكام الوهّابية الإسلامية التي اعتنقها الملك سعود وعائلته. عندما وصلتُ إلى الرياض للمرة الأولى، ذُهِلتُ لرؤية رجال الشرطة الدينيّة (رجال الهيئة) يتهجّمون جسدياً على المدخّنين الرجال في الأماكن العامة ويوقِفوهم. وللشرطة الدينيّة نفوذ كبير لدرجة أنّها – بالحَصَانة التي تتمتّع بها – تعمد إلى الإغارة على المتاجر ومصادرة صناديق السجائر التي تحمل علامة جمارك الحكومة السعوديّة التي تُجيز للتجار بيع التبغ. في أحد المواقف، وبتحريضٍ من رجال هذه الشرطة، رُجمت امرأة سعودية بالحجارة حتى الموت في الشارع لرؤيتها تدخّن. مع أنّ الوضع يتغيّر على مهل، يتقيّد الملك سعود بتأويلات القادة الوهّابيين للشريعة الإسلامية ونادراً ما يتدخّل بأفعال المتديّنين لئلا يخسر دعمهم لحكمه. لا عجب إذاً إن كانت رؤية الشاه بسيجارة في فمه وبحضور رجال الهيئة والملك بنفسه قد أعمت الصمت بين الحشد.

وإذْ لاحظ الملك سيجارة الشاه، أشّر على أحد أعوانه وهمس له بتعليماته. في استعجال عونه لبلوغي، اصطدم بالبدو والبابيت وفي النهاية بي.

"سيد أرنولد، يقول جلالته أنّ ضيفه سيحتاج إلى منفضة لسيجارته. هلاّ أرسلت بطلب واحدة من المطبخ؟".

بعد أن طمأنتُ العون بأنني سأهتمّ بالمسألة، توجّهت إلى مكتبي الذي كان أيضاً بقعة تدخين للخطأة من العاملين في القصر، لأُحضر المنفضة الوحيدة في الناصريّة. كانت أداةً عمليّة وحصريّة، ما يعوّض عن قباحتها لافتقارها إلى أي لمسة جماليّة. كُتبت على حافّتها الخارجية، عبارة "ذكرى من سويسرا". أخذت المنفضة وعبوة رذاذ معطّر جوّ لعون الملك، وقبل أن أتمكّن من إعلامه بما عليه أن يفعل، كان قد أعاد عبور المجلس ووضع المنفضة على طاولة الهاتف بين الملك سعود والشاه، وتموضع مباشرةً خلف الطاولة. ابتسم الشاه لدى رؤية الكتابة الشاعريّة عندما نفض سيجارته النفضة الأولى، وعندما نفث نَفخة دخان، تبدّدت ابتسامته عندما قام عون الملك المتأهبّ للضغط على زناد العبوة، برشّ عدّة رشّات منها فوراً وإحداث

سحابة من الرذاذ القاتل الرائحة. واصل الشاه - العازم على ما يبدو على استكمال فعلته - التدخين. أغلب الظنّ أنّ هذه المرّة كانت أكثر تجاربه انزعاجاً، فمع كلّ نفخة منه، كان دُفعة مستفيضة تخرج من العبوة. جلس الملك سعود بصمت مكدَّر، منتظراً أن يَفرَغَ الشاه من سيجارته قبل التوجّه إلى قاعة الولائم.

كان منظر قاعة الولائم بهياً. برقت المقاعد الذهبيّة والكريستال تحت خطّ الثريّات المنارة لمعاناً. عُلّق على جدارين متقابلين من جانب إلى جانب علمٌ إيراني ضخم كان قد حاكه خيّاط من الرياض وأنجزه بعد ظهر هذا اليوم بعد أن نسخه عن راية صغيرة مخصّصة للمكتبح والعلم السعودي بالضخامة نفسها. كنت أحتفظ على الدوام بوردتين حمراوين في مكتبي لأنّ الملك سعود كان يحبّ أن توضع واحدة إلى جانب طبقه وأخرى إلى جانب طبق ضيفه. وحدهما الوردتان كانتا تنقصان ديكور الطاولة. فيما كان الشاه يُنهي سيجارته، كنت قد توجّهتُ إلى مكتبي لإحضارهما، ووجدتُ عند بابي ضابطين تابعين للشاه. بعد أن شهدا على المشهد في المجلس، راحا يبحثان عن مكان يدخّنان فيه وأعلمهما أحد النُدُل في قاعة الولائم أنّ مكتبي كان المكان الوحيد الذي يجرؤ أيٌّ يكن على التدخين فيه. دعوتهما إلى داخل المكتب وقدّمت سيجارة لكلٍ منهما، اللتين دخّناهما فيما تفقّدا الغرفة وأطلقا النِكات حول المحنة التي ألمّت بالشاه في المجلس. بعد أن زوّدتهما بكأس ماء بدلاً من المنفضة، أخذت الوردتين وسألتهما إذا كانا يودّان إلقاء نظرة على قاعة الولائم قبل دخول الحشد. اعتذرا قائلين إنّهما لن يلبثا إنهاء سيجارتيهما والعودة إلى المجلس.

فيما أرشد الملك سعود الشاه إلى قاعة الولائم، احتشد الضيوف خلفهما في موكب مذهل الضخامة. قُدِّمَ العشاء بكفاءة مفاجِئة. قام النُدُل، بزيّهم الأخضر والأبيض، برفع الأواني الكريستالية من خمسمئة قطعة والمخصّصة لتقديم كوكتيل الفواكه، لتقديم حساء البصل الفرنسي، الذي تلاه تباعاً طبق فيليه سمك موسى، ثمّ فراخ الحمام المشويّة بالكمأة مع الهليون المخبوز بالصلصة الهولندية، وحلوى چاتو الجبن. جرى مساعدو النُدُل الأربعة والعشرون من المطبخ إلى مدخل التقديم الخاص بقاعة الولائم، حاملين صوانٍ مليئة بكلٍ من الأطباق الثلاثة، ما جعل النُدُل بالتالي في حركة متواصلة. لاحظت، من مكاني خلف الملك

والشاه، فِرقاً من عمّال المطبخ يختلسون النظر من باب المدخل لمشاهدة العشاء والمشاركة عن بُعد في الفخامة الملكيّة. كانت الوجوه تتبدّل على دفعات، فيما سمح الطهاة لمجموعة تلو الأخرى بالصعود الى الطابق العلوي لرؤية الحدث.

مع اقتراب الوليمة إلى ختامها المثالي، تركتُ القاعة لبرهة بغية إحضار المنفضة من المجلس وإعادتها إلى مكتبي قبل أن تتحوّل إلى غرضٍ تدنيس ينتهك حرمة بيتِ مسلمٍ تقي. عندما بلغتُ مكتبي، وجدتُ وساماً على الأرض. لا بُدّ أنّه سقط من زيّ أحد الضابطَين التابعَين للشاه. فيما كنت أعاينه، اندفع أحد النُدُل على عجلة إلى الغرفة، منادياً عليّ بتوتّر: "ريّس! يا ريّس! مولاي يرسل بطلبك. أسْرِع!".

عندما وصلتُ إلى مقعد الملك سعود عند رأس الطاولة، التفتَ نحو الشاه وقال: "هذا سويسرينا السعودي".

رفع الشاه بصره إليّ، ابتسم وقال: " شرح لي جلالته من توّه أنّك مسؤول عن الإشراف على الخدمة الممتازة في حفلات قصوره. أودّ الثناء على عملك. أعتقد أنّكَ حقّقت مستوى الخدمة الأرقى في الشرق الأوسط".

كانت تلك أكثر لحظاتي فخراً، لكنّي اختزلتها إلى لحظة إحراج فحسب: "شكراً جزيلاً، سيدي"، قلتها منحنياً، ولم أُدرك إلاّ وأنا أتراجع بأنني، بعد كلّ خبرتي في هذا القصر المغمور بالبروتوكولات، توجّهتُ إلى الحاكم الذي يتربّع على العرش الأعتق في العالم بمجرد "سيدي". وكأنني أتوجّه إلى الملكة إليزابيث بقول: "كيف حالك يا حلوة". وقبل أن أتمكّن من تقديم اعتذاري، كان الملك سعود والشاه قد نهضا وغادرا قاعة الولائم إلى المجلس، بانتظار تقديم القهوة.

في اليوم التالي، فيما كان الشاه ومجموعته يتناولون الغداء في قصر الحمراء، قاربته للتعبير عن أسفي لِما شكّل بالنسبة إليّ خرقاً فاضحاً لآداب السلوك، وقلت بصوتٍ عالٍ: "جلالة الإمبراطور"، محاولاً تصويب خطأي جهارةً، "أعتذر أشدّ اعتذار عن حماقتي الليلة الفائتة بالتوجّه إليكم خطأ أثناء الوليمة".

نهض، مدّ يده ناحيتي وقال: "ليس الأمر مهماً، لم ألاحظ كيف توجّهت إليّ، لكني لاحظتُ أنّ العشاء كان رائعاً. شكراً لك"، صافحني وجلس مجدداً.

غادر الشاه الرياض عصر ذاك اليوم للسفر إلى جدة ومكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة قبل الرجوع لوقت وجيز إلى الناصريّة في طريق العودة إلى طهران. قبل مغادرة المجموعة إلى جدّة، سلّمت الوسام الذي وجدته على أرض مكتبي إلى الضابط الذي كان قد فقده. ارتاح لاستعادته لدرجة أنه أخبرني بأنّه سيطلب إلى الشاه أن يقدّم لي وسام شرف إيرانياً رسمياً رمز شكر على خدماتي للحاشية الزائرة. علمتُ لاحقاً أنّ الشاه كان قد ترك لي بالفعل الوسام مع مسؤول التشريفات لدى الملك سعود، لكنّه قُدِّم إلى موظّف آخر في القصر لأنّ مسؤول التشريفات قرّر بأنّ كافراً - كما كنتُ في نظره - يجب ألا يتلقّى وساماً من الشاه. في حينه، كنت شديد الانشغال بشؤونٍ أكثر حساسيّة من القلق بشأن أوسمة.

استضافت أمّ منصور، الزوجة المفضّلة للملك سعود، ناريمان في قصر الحريم وأرادت أن تكرّم ضيفتها بوليمة احتفالية على قَدْرِ الوليمة التي أقامها الملك سعود على شرف الشاه. كنت أودّ النزول عند طلبها، لكني واجهتُ تعقيداً. في العادة، يحظّر على أي رجل، باستثناء الفتيان السعوديين عمّال المطبخ، دخول قصر الحريم وكلّ من يُضبط هناك، فلا يسعه سوى ارتقاب لقائه بالله وتبرير نفسه. في هذه الحالة، أُجيز استثناءُ السماح لرجالي بالدخول إلى القصر لتنسيق الطاولات وتوصيل الطعام، لكن كان أمامهم ساعة من الوقت فقط وعليهم المغادرة قبل بدء الوليمة.

في الوقت المحدّد، توجّهَ رجالي إلى القصر لتنسيق الطاولات إعداداً للوليمة التي دُعيت إليها أكثر من ثلاثمئة امرأة، معظمهنّ من البلاط، إلى جانب زوجات بعض تجارّ الرياض المهمّين.

دخلت أم منصور غرفة السفرة تتبعها حاشية من عشرة مساعدين للتحقّق من الترتيبات. نُسِّق زهر الياسمين والقرنفل والدلبوث النضر في زهريّات فضيّة على الطاولات بشكل مُستفيض متعدّد الألوان، بعد أن أُرسل جواً من بيروت على متن طائرة خاصّة. كان الطهاة قد أعدّوا زينة لوسط الطاولة جميلة وهي عبارة عن مشهد مائي من السكّر المغزول يمثّل بجعات رشيقة كبيرة تسبح ووراءها خلفيّة من روائع الزهر. وضعت على الطاولة أطباق المقبلات، كما

وحاويات ضخمة فيها الطعام لتسهيل الخدمة الذاتيّة التي كانت إلزاميّة لغياب النُدُل– كانت الوليمة وجبة من أربعة أطباق. كان الطعام سيكون بارداً طبعاً وقت تناوله غير أنّ تنوّعه بدا فاخراً. ارتعدتُ لمجرد التفكير بالمنظر العام للتنسيقات بعد وصول السيدات – أشارت التقارير أنّ قواعد سلوك تناول الطعام لديهن كانت كل شيء باستثناء أنيقة. جالت أم منصور على مهل حول الطاولات، مطقطقةً لحاشيتها تعبيراً عن موافقتها على زينة وسط الطاولة والطعام والزهور. كانت أم منصور، التي اغتنت جرّاء خدمتها الملك - سعود- امرأة غير جذّابة المظهر بما يثير الدهشة، وسمينة، وتقاسيم وجهها قبيحة. كان وجهها يظهر للعيان أحياناً عندما يتراخى برقعها بدلال. الى هذا،فإنّها اتّسمت بروح لطيفة، وكانت حلوة العِشرة، وكسبت ثقة نسوة الحريم الأخريات.

أُحضرت في الأصل إلى السعوديّة من طريق سعود بن جلوي كعبدة من مَشْيَخة قطر، وهي شبه جزيرة صغيرة ناتئة على الخليج العربي. كان بن جلوي، وهو صديق حميم للملك سعود وأمير المنطقة الشرقيّة في المملكة، قد تلقّى أم منصور هديّة من حاكم قطر السابق، عبدالله بن قاسم آل ثاني، فقدّمها الأمير إلى الملك سعود عندما كان لا يزال ولياً للعهد. أصبحت زوجته المفضّلة وحملت خمسة من أبنائه. قيل إنّ الملك سعود أعطاها مليون دولارٍ أمريكي لدى ولادتها ابنها الأخير. نطقت مجوهراتها بمدى ثروتها إذ تعوّدت ارتداء ثلاثة خواتم مرصّعة بحبّات ماسٍ كبيرة، وساعة يد بماسات صغيرة وقرط مذهل من الماس أيضاً. (خلال المحطّة الوجيزة في نيويورك، كان الملك سعود قد ابتاع بما قيمته أربعمئة ألف دولارٍ أمريكي لدى محل مجوهرات بارز في نيويورك).

إلى هذا، ارتدت أم منصور، كسائر أفراد الحريم فساتين أنيقة من تصميم مصمّمي أزياء رياديّين في فرنسا. لكن عباءاتهنّ السوداء سترتها (وهو اللباس الخارجي الذي ترتديه السعوديّات كافّة).

كانت محظيّة جذّابة من لبنان ثاني النسوة الأشدّ نفوذاً بين الحريم، وأُحضرت للملك من أحد أطبّائه الزائرين الكُثُر. كان هؤلاء وسواهم من المسؤولين الحكوميّين والتجّار والضبّاط

العسكرين، وغيرهم، يجلبون محظيّة للملك أغلب الأوقات بغيةِ كسب ودّه، وكانت أحياناً نسيبة الواهب.

رغم وجود أربعين أمرأة إلى خمسين من الحريم في العادة، نادراً ما حصلت المشكلات بينهنّ. تقبّلت كلّ واحدة على ما يظهر مكانتها من دون غيرة. شكّلت الرتابة أصعب صعابهنّ، إذْ حظّرتِ القيودُ الدينيّة عليهن المشاركة في الحياة الاجتماعيّة العامّة، وكان وجودهن مقتصراً على قصر الحريم باستثناء زيارةٍ نادرة ما إلى حديقة الحيوانات في الرياض أو نزهةٍ في السيارة خارج مجمّع الناصريّة – في سيارات ليموزين بزجاج قاتم مزدوج حَالَ دون تمكّن أحدٍ من رؤيتهنّ.

كان معظمّهن أُمياً بالطبع ولا اهتمامات لديهن سوى سيّدهن وأولادهنّ، كنَّ يُنفّسن عن إحباطهن بصّبه على خدمهن طالبات الانتباه الدائم منهم. مع أنّ أم منصور حظيت بالنفوذ الأكبر بين نسوة الحريم، كان التعامل معها سهلاً. وفي المرّات التي طلبت فيها المساعدة من طاقم العمل لديّ، كانت تُظهر مراعاتها لهم، وتعبّر دوماً عن تقديرها لجهودهم.

والآن، تقدّمت نحوي وقالت لي إنّها وجدت الطاولات مثاليّة فيما أخذ أفراد حاشيتها يضحكون لرؤيتي عن كثب.

وقف عند باب غرفة السفرة حارسٌ صومالي يراقب بتمعُّن التحضيرات. بإشارة من أم منصور، أَمَرَ صادحاً الأمر بوجوب مغادرة الرجال للحريم على الفور وأعلن أنّ الأبواب ستُقفل في غضون خمس دقائق. انتظرتُ مع أم منصور إلى أن خرج كلّ النُدُل، ثمّ مشيتُ كيفما اتّفق من غرفة السفرة عبر الرواق الطويل باتّجاه الباب الأمامي الذي منه كنّا قد دخلنا، أدرتُ المقبض وأصابني الهلع.

كان الباب مقفلاً، عندئذٍ فقط تذكّرتُ أنّه كان علينا المغادرة من المدخل الخلفي للقصر. وإذ افترض حارس الحريم أنّنا غادرنا جميعاً في الوقت نفسه، تَبِعَ الحشد إلى حدّ ذاك المدخل وأقفل الباب وراءهم. اتخذت قراراً سريعاً بأنّ أَرشَدَ الرأي يكون بالعودة إلى غرفة السفرة والطلب إلى أم منصور شرح الخطأ الذي ارتكبته إلى الحارس. أسرعتُ إلى غرفة السفرة ودفعتُ بمصراعي الباب لألقى أصخب تحية من الصيحات والصرخات المذعورة. كانت

السيدات قد دخلن غرفة السفرة من قاعة الاستقبال المتّصلة بها ورفعن حُجُبهنّ. وبِتُّ الآن، أنا الرجل والكافر، مذنباً لمجرد وجودي في الحريم، ومجرماً في نظر نحو ثلاثمئة امرأة. وإذْ أدركتُ أنّ الصرخات ستُنبيء الحرس، وتخفض متوقَّع عمري بشكل حادّ، عَدَوتُ إلى الرواق من جديد. هناك، جعلني وقع خطى الحرس الثقيلة الهدّارة على السلالم الخلفيّة أهرع إلى السلالم المقابلة لباب غرفة السفرة.

جَفِلتُ على صرخات الرعب التي زعق بها ثلاثة أولاد عند أسفل الدرج كانوا يلتهمون طعاماً سرقوه من قاعة الولائم. فرّوا مذعورين متّجهين ناحية الممرّ المؤدّي إلى الطابق السفلي، فاستدرتُ عائداً أدراجي من السلالم التي نزلتها ولم ألبث صعود الدرجة الأولى حتى رأيتُ الحارس يندفع إلى غرفة السفرة وتبعه حارسان آخران. كان ردّ فعلي الأول أن أهرع عبر الممرّ إلى المدخل الخلفي والهروب. لكنّي أدركتُ أنّ الباب الخلفي سيكون قد أقفل. وبمنطقِ المتّهم المدروس، عُدت إلى أسفل السلالم لأتبع الدرب التي اتّخذها الأولاد الثلاثة.

استطعتُ رؤية مدخلِ بابٍ عند نهاية ممرّ الطابق السفلي. وإذْ كنتُ أعدو قفزاً ناحيته، ألقيتُ بثقل كتفي عليه بوحشيّة وكرّرتُ فعلتي عدّة مرّات عازماً على فتحه لأكتشف أنّه ينفتح إلى الداخل وأنّه كان غير مقفل. خرجتُ الى فناء زهري البِلاط، قام في وسطه حوض سباحة مستطيل مخصّص للحريم. أحاط بالفناء سورٌ إسمنتي مرتفع مغطىً بنبات الجُهنميّة المعترش ببراعمه الحمراء المتفتّحة. لحسن الحظ، كان الفناء والحوض خاليين. رأيتُ عند الجهة المقابلة للفناء باباً خشبياً صغيراً، وهو الفتحة الوحيدة في السور العظيم، اتجّهتُ نحوه لأجرّب حظّي من جديد. كان مفتوحاً وإذا بي أجدُ نفسي في حديقةِ الحريم التي لم يكن منّي سوى تقدير جمال بستنتها حتى في خضمّ توتّري. امتدّت مدرّجات من الزهر في رُقَع مثلّثة الشكل متّسقة تماماً، حدّت نافورة ماء وسطية هائلةً. من صرّة النافورة، انبثقت مثل عَجَلة، مماشٍ متصالبة على امتداد الحدائق الصغيرة على شكل حلزونيّات رخاميّة. ونَشَرَتْ أشجارٌ صغيرة باعدت مسافات متساوية بينها نورَ الشمس.

أدّى الممشى الأساسي والذي كان عبارة عن مدخل للسيارات إلى البوّابة الرئيسيّة لأرض قصر الحريم. خشيةَ أن أهدر الوقت بمحاولة إيجاد طريقي إلى المدخل الخلفي للقصر الذي

استعمله طاقم العمل لديّ، عدوتُ طول الممشى وصولاً إلى البوّابة الرئيسيّة ولم يكن منّي إلاّ أن توقّفتُ مباغتةً عندما تذكّرتُ أنّ حارسين اثنين يلازمان على الدوام البوّابة الخشبيّة المزيّنة بالنحاس الأصفر. بحثتُ بعصبيّة عن تفسيرٍ مقنع يبرّر للحارسين وجودي الطائش هنا. وإذا بجنون الرعب يُلهمني، قفزتُ، حرفياً، إلى عريشة ورد – وهي تجربة مؤلمة إيلاماً يعجز أي وصف عن وصفه – وقطفتُ باقة. هرعتُ من ثمّ إلى البوابّة الرئيسيّة، حرّكتُ الشَعْريّة الحديديّة التي فصلت بين المصراعين المتأرجحين والقوس الإسمنتي وناديتُ على الحارسين: "هلمّوا افتحوا البوّابة! هذه لجلالته"، رافعاً باقة الورد إلى أعلى.

ومن دون أي سؤال، أركى الحارسان بندقيّتهما المزوّدتين بحربة إلى المقعد، وفكّا قفل البوّابة، ابتسمتُ ابتسامة خاطفة لمُطلقي سراحي مُجبِراً نفسي على السير بشكل طبيعي خارج البوّابة وعبر الرحبة ومنها إلى قصر الاستقبال، مُسترِقاً النظر بسرعة للتأكّد من أنني لا أتعرّض لهجوم خلفي. وعندما التففتُ عند زاوية قصر الاستقبال وأصبحت بمنأى عن بصر الحارسين، أطلقتُ ساقيَّ للريح مُسجِلاً رقماً قياسياً جديداً في العدو عبر الفناء إلى المطبخ. ما إن أقفلتُ باب مكتبي على وقع صدى خطى أقدامي المجلجلة، سلختُ أصابعي عن عروق الورد الشائكة ورُحتُ أنسّق الورد كيفما اتّفق في حاويات، لأعيد تنسيقه مراراً وتكراراً بانتظار حلول المصير الذي كتبه لي الله.

غير أن الحادثة بقيت طي الكتمان، وتوصّلتُ إلى خلاصة أنّ حرس الحريم شعروا ببالغ الخزي لإخفاقهم في الإمساك بالدخيل ما منعهم من ذكر الأمر لرؤسائهم. مع ذلك، قرّرتُ أنني سأتنازل مستقبلاً عن العمل في الحريم وأوكلتُ مسؤولية تدبير شؤونه إلى سعد، مساعدي السعودي.

من الحكّام العالميّين والقوميّين الذين دمغوا بزياراتهم الرزنامة الاجتماعية للرياض فيما كنت أشغل منصب المشرف على خدمات الضيافة لدى الملك سعود: ملك الأردن اليافع، الحسين بن طلال؛ ملك المغرب محمد الخامس بن يوسف؛ حاكم البحرين، الشيخ الراحل سلمان بن حمد آل خليفة؛ رئيس الوزراء الهندي جواهر لالا نهرو؛ الرئيس الأسبق للجمهوريّة اللبنانية كميل شمعون؛ الرئيس الأسبق لسوريا ما قبل وحدة الجمهوريّة العربيّة المتّحدة

شكري القوتلي؛ حاكما كلٍّ من مشيخَتي الكويت وقطر؛ الأمين العام للأمم المتحدة الراحل دوغ هامارشُلد؛ أمبراطور إثيوبيا هيلا سيلاسي الأول؛ ورئيس مصر جمال عبدالناصر. ومن السفراء الأجانب الذين كانوا على اتّصال منتظم بالقصر في الرياض، وغالباً ما وجدوا حججاً تستدعي إقامة ولائم، أذكر على وجه التعيين: السفير الأمريكي جورج وادسوورث وخَلَفِه رونالد هيث؛ البارون فون ڤيتشهووفن من ألمانيا الغربية؛ السفيران الفرنسي والبريطاني– قبل العمليّة العسكرية على قناة السويس في أكتوبر ١٩٥٦.

من بين كلّ الزيارات التي قام بها حكّام الدول، كانت زيارة ملك العراق فيصل الثاني الراحل برفقة خاله ولي العهد الأمير عبد الإله بن علي زيارة لا أنساها، ولأسباب ستّتضح لاحقاً. كانت في الأسبوع الأول من شهر ديسمبر ١٩٥٧. كان الملك فيصل نسيباً للملك حسين الأردني وبالتالي كان نسبه يعود إلى آل شريف الذين طردهم والد الملك سعود من السعوديّة عام ١٩٢٠. تبادلت العائلتان العداوة على مدى ٣٦ عاماً. ثمّ، عام ١٩٥٦، حُلَّ العداء بزيارة الملك فيصل الأولى إلى الملك سعود. ردّ العاهل السعودي الزيارة بالسفر الى العراق في مايو ١٩٥٧، والآن عاد الملك فيصل لزيارة ثانية إلى المملكة العربيّة السعوديّة. كان الحاكم العراقي البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً يشكّل تبايناً ملحوظاً مع طول الملك سعود. فقد كان طوله لا يعدو ١٥٨ سنتمتراً. عندما جلسا في المجلس، لم تطل رِجلا الملك اليافع الأرض تماماً وكانت إحداهما تتأرجح بوضوح، وبدا أشبه بجندي بلاستيكي متحرك أُجلس على أريكة. وخاله الأمير عبدالإله بن علي، الذي رعاه كوالد حريص، كان طويلاً ووسيماً.

رافق الملك والأمير حاشية من أربعةٍ وعشرين فرداً من المستشارين والأعوان والحرس. باستثناء الولائم الرسميّة، كان الحاشية الزائرة تتناول الوجبات من دون خدمة في قسم الشقق المنجز حديثاً والمخصّص للزوّار في الطابق الثاني من قصر الاستقبال في الناصريّة. كانت الصداقة العفوية التي تربطهم وغياب البروتوكولات الواضح بينهم تجديداً منعشاً لجو القصر.

في اليوم السابق للوليمة المقرّرة على شرف الملك فيصل، حَضَرَ أحد أكثر الأمراء من أصحاب السموّ الملكي حيويّة إلى مكتبي وأعطاني تعليماته بوجوب أن أرتدي أفخم الملابس.

قال:"سيرتدي كلّ الضيوف الرسميين أزياءً رسمية بأوسمة من ذهب، ونريدك أن تبدو باهظ الملبس أيضاً. هذه المرّة، لا بُدّ أن نبدو على قدر الفخامة التي بدت على الإيرانيّين".

قلت له: "أفضلُ ثيابي عبارة عن السراويل والسترات التي طالما ارتديتها في الولائم المهمّة: سروال داكن وسترة داكنة في الشتاء، وسروال داكن وسترة فاتحة في الصيف، هذا كلّ ما لديّ".

"إذاً، عليك الاتصال بخيّاطي وسوف يفصّل لك زياً رسمياً كاملاً من أجل الوليمة غداً. لك أن تضع الفاتورة على حساب والدي الملك، فأموالنا تكفي لتطمّ جبالاً".

وإذْ أصدرَ الأمير أوامره، رحل.

هَاتَفَ سعد الخيّاط الذي حَضَرَ إلى مكتبي من فوره. أخذَ مقاساتي كلّها عدّة مرّات، ووعدني بأنني سأحصل على بذّة جاهزة قبل موعد الوليمة، قائلاً إنّ مساعديه الباكستانيّين الثلاثة على استعداد للعمل الليل بطوله إن اقتضى الأمر. أراني عيّنة من قماش الساتان الأسود للسروال، ومن الكتّان الفاخر الأبيض للسترة. زوّدته بصورة لسترة اقتطعتها من مجلّة، لأريه الشكل الذي أريده، وطمأنني بأنّه سيأتيني بنسخة طبق الأصل. رحل، ورُحتُ أتخيّل نفسي في هيئة أكثر المُشرفين أناقةً في الشرق الأوسط.

في الصباح التالي، جاء الخيّاط ومعه السروال، الذي ناسبني مقاسه تماماً، غير أنّ لمعان القماش كان مبهراً قليلاً. لم تكن السترة منجزة بعد. لكن أصرّ الخيّاط أنّها ستكون منجزة بحلول وقت ارتدائها في الأمسية.

في وقتٍ متأخّر من عصر ذاك اليوم، جاء الخيّاط ومعه السترة ومساعدوه الثلاثة. للأسف لم يكن مقاس الكُمّين صحيحاً، ولَزِمَ مزقهما وإعادة إخاطتهما. كان المجلس قد بدأ يمتلىء بالضيوف المدعوين إلى الوليمة وبدأت معالم القلق تبدو عليّ عندما أُبلغتُ أنّ الملك سعود وصل إلى المجلس. قلت للخيّاط إنّ عليه إعادة خياطة الكمّين فوراً بأي طريقة لأنّه كان عليّ التحقّق من التحضيرات النهائيّة للوليمة. قال إنّ الوقت لا يتّسع لإصلاح مقاس الكمّين: "سأخيطهما إلى السترة مؤقّتاً ونستطيع إصلاح مقاسهما نهائياً بعد الوليمة".

ارتديتُ السترة ووقفتُ أمام المرآة الكبيرة في مكتبي أشاهدهم وهم يخيطونني (أحسستُ أنّهم كانوا يخيطون، في خضمّ قلقهم، كمّي السترة مباشرة إلى قميصي).

ما إن انتهوا، هرعتُ إلى المجلس لأرى الوقت الذي سيستغرقه بعد تقديم القهوة. مع وصولي، كان الملك فيصل وحاشيته قد انضمّوا إلى الملك سعود. رأيتُ الأمير الذي أمرني بالظهور في الوليمة بحلّة جديدة باهظة، فسِرْتُ نحوه وعبّرتُ عن تقديري لجهوده في تدبير أمر ملابس جديدة لي. نظر إليّ برصانة للحظة وقال بجدّية: "بذّه جميلة جداً". ثمّ، مدّ يده مهنّئاً؛ وفيما مددتُ ذراعي، أحسستُ بتراخٍ فُجائي في قماش كُمّي البذّه.

بعد أن تأكّدتُ من أنّ كل شيء على ما يرام في قاعة الولائم، مرّرتُ الرسالة إلى مسؤول التشريفات لدعوة الضيوف إلى القاعة. فُتحت الأبواب، وقاد الملك سعود ضيوفه إلى صدر الطاولة حيث سحبتُ الكراسي الثقيلة، كالمعتاد، لكي يجلسوا، ومع كلّ سحبة، كنت أُحسّ أنّ القطب المشدودة حول كتفيّ تتراخى، لكنني كنتُ عاجزاً عن الذهاب إلى مكتبي وتفقّد الكُمّين. كان عليّ العودة مُسرعاً إلى الطاولة الرئيسة لاتّخاذ موقعي قبالة الملك سعود والملك فيصل بغية قطع لحم الخروف الجاثم فوق طبق الأرزّ على الطريقة البدوية. أنهت عملية القَطع مسألة التراخي التي بدأتْ عندما مددتُ ذراعي لأصافح الأمير في المجلس. فيما انحنيتُ قليلاً مادّاً الجزء العلوي من جسمي كي أضع صحناً من الأرز واللحم أمام الملك فيصل، انزلق كُمّي، من كتفي، إلى معصمي، ليغطّي يدي والصحن.

نظر الملك فيصل إليّ بطرف العين من دون أن يرفع رأسه، وقد ارتسمتْ على وجهه ابتسامة مشاكسة مُطيحة بجهوده للحفاظ على تعابير جدّية. حاولتُ أخذ الصحن لاستبداله، فأمسكه بإحكامٍ وغمزني غمزةً عابثة. سحبتُ يدي، ملتقطاً كُمّي في اللحظة المناسبة قبل سقوطه كاملاً في الأرزّ. لم يكن أمامي مجال للهروب؛ كان عليّ تقديم الطعام للملك سعود لكي يتمكّن من إعطاء الإشارة ببدء الوليمة رسمياً. بالحفاظ على ذراعي في وضعيةٍ عالية كفاية بما يحول دون انزلاق الكمّ إلى يدي من جديد، أعددتُ صحناً للملك سعود ووضعته أمامه. وبإنجاز ذلك، رفعتُ طبق اللحم والأرز الفضّي الثقيل لكي أحمله إلى مدخل غرفة التقديم وأهرب. فيما رفعتُه عن الطاولة، أحسستُ بالدّروز في كمّي الأيسر تتفتّق. وفيما سِرتُ على عجلة إلى خارج

قاعة الولائم، كان طرفا الكُمّين يرتميان عند كوعيَّ، فكتبا بذلك نهاية المُشرف الأكثر أناقةً في الشرق الأوسط. في مكتبي، ارتديتُ سترتي القطنية العادية التي صمد كمّها تماماً خلال كثير من الولائم، وعدتُ إلى القاعة.

عند انتهاء الوجبة، أشعل الأمير عبدالإله سيجارة بشكل عفوي. كان ردّ فعل الضيوف هو ذاته الذي أبدوه في المجلس عندما أشعل شاه إيران سيجارته. لم يسبق لأحدٍ أن دخّن في قاعة الولائم، وانتظر الضيوف بصمتٍ متململٍ لرؤية ما سيحدث.

من دون انتظار طلب الملك سعود بإحضار منفضة، عُدتُ إلى مكتبي ورجعتُ وفي يدي ذكراي من سويسرا. عندما وضعتها إلى جانب الأمير، نظر إليها للحظة ثمّ رفعها وقال: "ذكرى من سويسرا؟ كيف يصدف أن تملك هذه هنا؟".

" لقد أرسلتها إليّ والدتي في سويسرا لكي تذكّرني بموطني يا صاحب السموّ".

"هل أنت من سويسرا؟".

"وُلدتُ فيها لكني الآن مواطن أمريكي، لا يزال معظم أنسبائي في سويسرا مع ذلك".

"الآنسة فيغمان، مدبّرة منزلنا، من سويسرا. هي معنا منذ نحو ثلاثين عاماً. لقد ساعدت الطبيب ليلة ولادة جلالة الملك فيصل".

استمعَ الملك فيصل الذي كان يتوسّط الأمير والملك سعود إلى حديثنا المقتضب، وأضاف: "نعم، هي معنا منذ أن فتحتُ عينيّ على الدنيا، وآمل أن تلازمنا ما حيينا إن شاء الله".

قلتُ: "يبدو وكأنكم تبنّيتموها".

أجاب الملك فيصل: "لا، هي من تبنّانا. بما أنّك من سويسرا، أظنّ أنك ستُسرّ بلقائها، وسيسرّنا أن ندعوك إلى بغداد للحلول ضيفاً علينا في قصرنا. سأخبر سكرتيري عنك لكي تُستقبَل من دون عوائق إن جئت إلى بغداد يوماً".

"أشكرك جزيل الشكر يا صاحب الجلالة، دعوتكم لطيفة للغاية وآمل أن أتمكّن يوماً من زيارة بغداد ولقاء الآنسة فيغمان".

عُدتُ إلى موقعي لانتظار مغادرة الملك سعود وضيوفه. نظر كلّ من في القاعة إليّ متعجّبين لجرأتي فقد خالوا أنني كنت أنهر الأمير العراقي كلّ ذاك الوقت للتدخين في قاعة ولائم الملك سعود. عندما نهض الملك وضيوفه لمغادرة القاعة، توجّهت نحو الطاولة لأخذ المنفضة. فيما مددتُ يدي لرفعها، أمسك الأمير عبدالإله بذراعي، وأبعدها قائلاً: "ما الخطب؟ هل اعتقدتَ أنني كنتُ سآخذ منفضتك معي إلى بغداد؟".

قلت: "بالطبع لا يا صاحب السموّ. أردتُ أخذها وحسب قبل أن تختفي في المطبخ. هي المنفضة الوحيدة في القصر وأردتُ الحفاظ عليها للغد من أجلكم". وأضفتُ من دون تفكير:

"أنتم أوّل من دخّن في قاعة الولائم ".

" آه. لماذا؟".

بما أنني استدرجتُ السؤال، كان عليّ الإجابة عنه. تخبّطتُ في زلّتي قائلاً : "التدخين ممنوع في حضور صاحب الجلالة، بسبب رجال الدين، لكن أعتقد أنّه مسموح لكم بذلك".

ضحك الملك فيصل الذي كان ينتظر خاله وقال بجدّية هازئة: "عليّ أن أعاقب صاحب السموّ أشدّ العقاب، ولربما علينا إبقاءه تحت الإقامة الجبريّة لئلا يكرّر ارتكاب أيّ من هذه الجرائم الخطيرة".

ابتسم الأمير عبد الإله ابتسامة عريضة للملك، ثمّ أخذه بيده وغادرا معاً قاعة الولائم كأب وابن سعيدين.

في الصباح التالي، ذهبتُ إلى شقّتهما لكي أزوّدهما بجدول أنشطة اليوم. بوقوفي عند الباب، استطعتُ أن أرى صالة المدخل وغرفة الجلوس وغرفة النوم، حيث جلس الملك إلى طاولة كتابة صغيرة. ناديته، فاستدار وأشّر عليّ بالدخول. ثمّ، عاود العمل بأوراقه، دخلتُ صالة المدخل ومنها إلى غرفة الجلوس التي ما إن ولجتها حتى وثب حارسان عراقيّان من كرسيهما

المتقابلتين وأمسكا بذراعيّ. انتشل حارسٌ ثالث المغلّف الكبير الذي كنت أحمله للأمير وتفحّصه بعين من الريبة. بقي الكلُّ صامتاً. حاولتُ شرح وجودي، بالإنجليزية أولاً ثمّ بالفرنسية. ولم ألقَ إجابةً. أخيراً، جرّبتُ الألمانية وفهمني الحارس الثالث. أمر زميليه بفك قبضتهما عنّي، واعتذر عن عملهما الأرعن.

سمع الأمير عبدالإله الجلبة، فأتى إلى غرفة الجلوس. شرح له الحارس الذي يتكلّم الألمانيّة ما جرى ولوّح الأمير للثلاثة بالذهاب. قال: "اعذر حماسة حرّاسنا في عملهم. لقد تلقّوا الأوامر ودُرّبوا على حمايتنا من كلِّ شخصٍ وكلِّ شيء، وأحياناً يكون ضميرهم يقظاً أكثر من اللازم".

أجبتُ بإحساس: "أرى أنّ سموّكم وجلالته فيظلّ الحماية".

"نعم، نحن في أيدٍ أمينة. يأتي كلّ حرس قصرنا من جيشنا. تمّ اصطفاؤهم من نخبة جنودنا وهم فخر الخدمة في حرس الشرف. نحن نفتخر بهم أيضاً، رغم أنّهم، كما شهدت لتوّك، يُبالغون في جهودهم لحمايتنا".

كانت كلمات سأتذكّرها لاحقاً لسبب آخر.

دخل الملك فيصل، وبعد تبادل التحية، قال: "سيد أرنولد، نأمل أن تتمكّن من زيارة بغداد قريباً، ولن تحتاج إلى جلب منفضتك. أنا أكيد أنّ الآنسة فيغمان ستُسرّ للقائك وقد تتمكّنان من تبادل الحكايات عن... كيف أعبّر عن ذلك... عن رعاية الملوك وإطعامهم، لكن في حال لم تتمكّن من قبول دعوتنا، نودّ أن تعلم أنّنا نقدّر ما فعلته لكي تجعل من زيارتنا مَسَرّةً. لقد أشرتُ على سكرتيري بأن يوصل إلى مكتبك بعد ظهر اليوم سجادة احتفالية بدوية من العراق. آمل أن تبقى ذكرى سارّة من زيارتنا. أشكرك على خدمتك لنا".

صافحني، والأمير كذلك، والتجربة صعقتني. بعد بضعة شهور، كنتُ في طريقي إلى سويسرا لقضاء عطلة لمدّة أسبوعين بعيداً عن حرّ صيف الرياض. قطعت الرحلة من الظهران إلى زوريخ وقفة للتزوّد بالوقود في بغداد. فيما وقفتُ في المهبط الجويّ في بغداد، تداولتُ في ما إذا كان عليّ تغيير خُططي وقضاء أسبوع من عطلتي في قصر الملك فيصل. كنتُ أتشوّق للهروب

من البروتوكولات المتواصلة في حياة القصر وكذلك الحرّ، والاسترخاء في عفويّةِ قريةٍ جبليّة خارج زوريخ.

الآن، باستذكار اللارسميّة التي تعاطى بها الملك فيصل وحاشيته إزاء البروتوكولات في خلال زيارتهم الرياض، وكذلك دعوة الملك اليافع، تساءلت ما إذا كانت بغداد ستكون مسليّة بقدر سويسرا.

كان سكرتير الملك فيصل قد زوّدني بتعليمات خطّية حول كيفيّة التواصل معه، وكذلك بورقة عليها ختم الملك وأكّد لي تيسُّر دخولي البلاد. كانت الأوراق بحوزتي إلى جانب جواز السفر خاصّتي، وبالتالي لم أحتَج إلاّ إلى إجراء اتّصال هاتفي لأكون في القصر. كانت حقيبتي لا تزال على متن الطائرة لكن أمكن لي استرجاعها بسهولة، وكذلك إعادة استعمال تذكرة السفر ذاتها للرحلة ذاتها الأسبوع التالي. كان طقس بغداد الحارّ والرطب هو الذي رجّح كِفّة الميزان. فجاء قراري في مصلحة هواء سويسرا المنعش.

مع ذلك، فكّرتُ أنّه من اللباقة مهاتفة سكرتير الملك فيصل والسلام عليه. حصلتُ على إذنٍ باستعمال الهاتف الوحيد الذي رأيته عند مكتب المهبط الجوي. كنتُ قد طلبتُ عامل الهاتف عندما أدركتُ أنني سأقع في شباك الضيافة الشرق أوسطيّة. إن اتّصلتُ، سيُصرّ السكرتير على زيارتي القصر بما أنّ الملك دعاني رسمياً، وسيُعتَبر ردّي الضيافة الملكيّة قلّة احترام تامّة. أعدتُ وضع السمّاعة على الكرنك. علا النداء لرحلتي، فكان الحكم الفَصل. مشيتُ نحو الطائرة وأنا أفكّر في ما إذا اتّخذتُ القرار الصائب.

بعد ثلاثة أيام، كنتُ أتناول الفطور في حديقة منزل العائلة، وأتأمّل جمال الصيف في الألب، وإذا بي أتلقّى إجابة صاعقة عن تساؤلاتي. على مدى عرض الصفحة الأولى من صحيفة زوريخ كُتب العنوان الرئيسي: اغتيالُ الملك فيصل والأمير عبدالإله في الثورة العراقيّة.

كشف المقال عن أنّ تمرّداً عسكرياً أطاح ببغداد وأنّ الحرس الملكي اغتال الملك والأمير. هما اللذان ائتمنا الحرس على روحيهما. دُفنت جثة الملك فيصل في مقبرة مجهولة؛ وجُرَّت جثّة الأمير عبر شوارع بغداد وعُلّقت في النهاية على عمود إنارة. على أثر النجاح الشائن للانقلاب

العسكري، قامت عصابات الشوارع بالتهجّم على الأجانب في المدينة، وسحبوا الناس من غرفهم في الفنادق وبتروا أعضاءهم وزهقوا أرواحهم. كان جورج س.كولي نائب رئيس شركة البناء "إنترناشونال " بِشتِل بِلدرز إنكوربورايتد IBBI"، الذي زرته عدّة مرات في أثناء إقامته في الظهران، أحد الضحايا الأمريكيّين. أبلغتْ الصحيفة عن أنّ الآنسة فيغمان، المدبّرة السويسريّة، تمكّنت من الهرب ولم تتعرّض لإصابات. عندها، فكّرتُ كم كنتُ وافر الحظ على الأرجح.

في يناير عام ١٩٦٠ زار الملك سعود في الرياض، أمبراطور إثيوبيا هيلا سيلاسي الأوّل، الأسد المنتصر من سِبْطِ يهوذا، الذي زعم أنّه يتحدّر مباشرةً من سلالة ملكة سَبأ. كان الأمبراطور يردّ للعاهل السعودي الزيارة التي قام بها إلى أديس أبابا. في حينه، لم يعد هذا الأمبراطور الرافع رأسه من الكِبَرِ يتربّع على عرش هيبة العالم، هو الذي منحته مجلة الـ "تايم" لقب "رجل العام" عام ١٩٣٥ لجهوده في صون استقلال بلاده في وجه غزو الإيطاليّين. كان العمر قد أخذ منه كلّ مأخذ. مع ذلك، تحلّى هذا الرجل النحيل المربوع القامة بأبّهة عسكرية جعلته يبدو عظيماً رغم هشاشته. عندما وصل إلى القصر في الرياض، حقّق النظر إلى حرس الشرف (وهو الضيف الأوحد الذي فعل ذلك)، سائراً جيئةً وذهاباً بين صفوفهم غير المنتظمة لتفحُّص كلّ منهم فيما تسمّروا مصعوقين لهذا التنبه غير المُرتَقب.

ارتدى الأمبراطور سيلاسي زياً رسمياً احتفالياً في كلّ ظهور له. وحيثما ذهب، كان يسير بخطىً جعلت شُرّافات الكتفيّتين المصنوعة من لبدة الأسد على سترته المدجّجة بالأوسمة تقفز. عندما ذهبتُ إلى شقّته في الصباح اللاحق لوصوله بغية الإشراف على تقديم فطوره، وجدتُ مجموعة المستشارين الصغيرة لديه وحرسه، مصطفّين في تشكيل عسكري في الردهة خارج غرفة السُفرة. خرج الأمبراطور من جناحه ومشى بجدّية محاذاة جنده المتّخذين وضعيّة انحناء. عندما وضع النادل صحناً من البيض المقلي خلطاً أمام الأمبراطور، أشّر إليّ وسألني همساً بالإنجليزيّة:

"أبإمكاني الحصول على بعضٍ من لحم الخنزير المقدّد مع البيض؟".

همستُ مُجيباً : "أنا آسف يا صاحب الجلالة، لكنّنا لا نقدّم لحم الخنزير من أي نوعٍ في القصر، الدين الإسلامي يحرّمه".

قال بصوتٍ عالٍ:"آه طبعاً، أنا آسف". ثمّ أضاف بعد وقفة تأمُليّة: "آمل أن لا نكون قد قدّمنا لحم الخنزير لجلالة الملك سعود عندما زارني".

مع ذلك، انبهر الأمبراطور سيلاسي، هو الحصيف في ردوده، بالأجنحة في قصر الاستقبال في الناصريّة حيث كان الضيوف الوجهاء يُستَقبَلون. صَمَّمَ الشقق وهندسَها داخلياً مهندسون فرنسيّون نسّقوها بذوق رفيع. افترشت أرض كلّ غرفة من الغرف سجاداتٌ عجميّة فاخرة ليّنةعند الدَوْس، وأضفت لوحاتٌ زيتيّة معاصرة استُقدِمت من فرنسا حياةً من الألوان على الجدران. في غرفة النوم من الجناح الرئيسي، وُضِعَ سريرٌ ضخمٌ ومنخفض بسرداق من الحرير الأخضر، وستائر حريريّة متعدّدة الألوان تدلّت من السقف في طيّاتٍ أنيقة. وكان ثمّة خزانة ملابس ضخمة مطعّمة بعِرق اللؤلؤ وُضِعت في أعلاها زهريّة فضّية من زهر اصطناعي. حجبت ستائرُ سميكةٌ من الدِمقس البابَ الفرنسيّ الطراز الذي كان ينفتح على شُرفة تُطلّ على حدائق القصر ونوافيره. وأدّت حجرة انتظار مفروشة بصفٍ من الكراسي إلى حمّامٍ فخم. كانت كلّ الغرف في الجناح الرئيسي مفروشة بكراسٍ منجّدة بالحرير المتناغم الألوان، وبطاولات من الخشب الصلب. وخارج الجناح الرئيسي، قامت غرفتا سفرة وثماني غرف نوم، ومكاتب، وغرف جلوس، وحمّامات ومطابخ صغيرة (غير مستعملة بمعظمها) لحاجات حاشية الضيف.

ترافقت زيارة الأمبراطور بالولائم المعتادة وغيرها من الاحتفالات الرسميّة وما تبقّى منها هو ذاك المنظر للعاهل الأثيوبي القصير القامة يقف إلى جانب ملك السعوديّة فارع الطول، مع ذلك، كان لكلٍ منهما أسلوبه الملكي المؤثّر.

يوم مغادرة الأمبراطور، أبلغني مسؤول التشريفات لدى الملك سعود بأن أذهب إلى غرفة الاستقبال الصغيرة المحاذية لجناح الأمبراطور سيلاسي. لدى وصولي، كان رئيس الشرطة السعودية في الرياض، وسكرتير الملك سعود، وعددٌ من ضبّاط الجيش السعودي، وحرس الملك سعود الشخصيّين وعدد من أفراد طاقم العمل في القصر ممّن خدموا الحاشية الزائرة،

قد تجمّعوا هناك. كان قد استُدعي أيضاً ستةٌ من طاقم المطبخ، بمن فيهم أحد الطهاة الإيطاليين لديّ وذلك لتلقّي التقدير على جهودهم المبذولة لدى زيارة الأمبراطور.

استُدعيَ كلٌ منّا إلى جناح الأمبراطور سيلاسي على انفراد. عندما تمّت مناداة إسمي، رافقني رئيس تشريفات الملك سعود إلى مقابلة الأمبراطور. وقف الأمبراطور أمام طاولة طويلة مليئة بأكوام من علبٍ صغيرة، وإلى جانبيه ضبّاطه وأعوانه الذين وقفوا متأهّبين. عندما قاربتُ الملك، أمسك بيدي وصافحني بشدّة ثمَّ شكرني على العون الذي مددتهُ وحاشيته به أثناء إقامتهم الوجيزة وقدّم لي علبتين من على الطاولة. انحنيتُ معبّراً عن تقديري وتراجعتُ فيما صفَّق وحاشيته بهدوءٍ. بالعودة إلى مكتبي، صادفتُ عُمّال المطبخ يُسرعون عبر الرواق ارتقاباً للحصول على هدية من الأمبراطور.

في مكتبي، فتحتُ العلبتين، احتوت إحداهما على ساعة سويسريّة باهظة، حُفِرَ إسم الأمبراطور عليها (وبحصولي على هذه الساعة، كنت قد جمعتُ اثنتين وسبعين ساعة سويسرية فاخرة الصنع كهدايا). وفي العلبة الثانية كان وسامٌ من ذهب عليه حفرٌ ناتىء لوجه الحاكم الأثيوبي. كانت مفخرتي كبيرة. بعد دقائق قليلة، رجع طاقم المطبخ من لقائهم مع الأمبراطور سيلاسي. اقتحم الطاهي الإيطالي مكتبي، وقد فار دمه اللاتيني إلى أقصى حدّ.

صرخ: " انظر! انظر بربّك! وسام! حصلتُ على وسام من أمبراطور إثيوبيا! كافحت ضدّ ذاك الرجل على مدى سنة. قضيتُ سنتين في مخيّم اعتقال. والآن، بعد مرور عشرين سنة، يقدّم لي وساماً حديدياً! مقابل ماذا؟ الشهامة في العمل المطبخي؟ ماذا قدّم لك؟ خُصلةً من شعر الأسد لتضعها على جبينك؟".

أريتُه الساعة ووسام الذهب، واستشاط غيظاً على غيظ. "أنت تسحب له الكرسي ليجلس، وتحصل على الذهب. وأنا أملأ معدته بالطعام، وأحصل على الحديد. ما الذي جرى للعدالة الإلهيّة؟ على الأقل تستطيع الحصول على مالٍ لقاء وسامك الذهبي، أما أنا، فما عساي أحصل لقاء خُردة الحديد هذه؟..... أقدّمها لك!"، قالها بإلهامٍ فجائي، وأكمل: " وتقدّم لي أنت الساعة".

"إنتهيتَ من حربك مع إثيوبيا. لمَ لا تتقبّل الوسام كتكريم وتحتفظ به كذكرى؟".

"ستتبرّأ منّي عائلتي إن علمتْ يوماً أنّني قبلتُ منه ميداليّة. كيف يمكن لعدوّي أن يكرّمني؟".

قلتُ:"سيصل دوغ هامارشُلد إلى هنا في غضون أسابيع قليلة. تستطيع اللجوء إليه لحلّ مشكلتك".

جاءني التماساً للتعاطف، ولم يجد عندي مواساة. هرع إلى الطابق السفلي وشرارات طبعه الملتهبة تكاد تحرق زملاءه في المطبخ.

لاحقاً بعد الظهر، نزلتُ إلى المطبخ ووجدتُ الطاهي يقف أمام عدسة مصوّر سعودي. كان الوسام معلّقاً بشكل بارز على سترته البيضاء النظيفة. قال بِظَفَرٍ وابتسامة عريضة: "سأرسل الصورة إلى أصدقائي في "أسمرة" لأُظهر لهم أنّي وسيلاسي عقدنا الصلح كلاًّ من جهته".

وتوقّف أحد الفتيان السعوديّين من قسم غسل الصحون للحظة عن عمله وهو لا يزال أمام غسّالة الصابون ليشير بفخر إلى الوسام المتزعزع المعلّق على ثوبه الملطخ ببقع الطعام، قال همساً : "كلّفني خمسة ريالات فقط، وقد عرض عليّ أحد الطهاة شراءه بعشرة ".

يا لها من سوق نشطة ازدهرت الآن في مجال بيع الأوسمة الحديديّة.

باع متقلّدو الأوسمة أوسمتهم بسرعة إلى عمّال المطبخ من الفتيان الذين باعوها بدورهم إلى الطهاة الذين تخلّصوا منها بتحقيق أرباح، عبر بيعها إلى النُدُل الإثيوبيّين.

طالما أوجدت مغادرةُ شخصيّة وجيهة زائرة تشويقاً كبيراً في المطبخ. كان طاقم العمل يخمّن مقدار المال المتروك لتوزيعه إكراميّات على أفراد القوّة العاملة في القصر. ولا عجب، إذْ كان المبلغ الإجمالي يصل غالباً إلى سبعة آلاف وخمسمئة دولارٍ أمريكي. كانوا يمطرونني بالاسئلة والتعليقات حول توزيع المال. وكالعادة، مع حلول الوقت الذي يستدعي فيه مسؤول التشريفات لدى الملك سعود أفراد طاقم العمل في المطبخ، لاستلام حصصهم، يكون المبلغ الإجمالي قد شهد على انخفاض حادّ جرّاء الاقتطاعات التي تحدث في تمريره على أيدٍ مختلفة في مكتب التشريفات. وكالعادة، كانت هذه الظروف تولّد فَجَعاً صاخباً بين طاقم العمل لديّ

وكنتُ على أثر الإلحاحات المتكرّرة، أرفع استدعاءاتهم بالعطل والضرر إلى مسؤول التشريفات (بعبارات أكثر دماثةً من عباراتهم). وكالعادة، كان ردّه غير مُرضٍ بابتسامة معتدّة وهزّة رشيقة من كتفه.

كانت الوليمة التي أقيمت على شرف رئيس وزراء الهند جواهر لالا نهرو وليمةً لا تُنسى لأنّها اتّسمت إجمالاً بالكآبة. لم يتبادل الملك سعود ونهرو ولو كلمة أثناء تناول الطعام، وتدريجاً أصابَ الصمتُ على الطاولة الرئيسيّة القاعة كلّها بالعدوى. لمعرفتي بأنّ الملك سعود كان مُضيفاً أنيساً ويفعل كلّ ما في وسعه لكي يُريح زوّاره، ما كان منّي إلاّ الاستخلاص بأنّه عجز عن كسر حاجز التحفّظ لدى ضيفه. لعلّ نهرو لم يكن مناصراً للملك سعود. لعلّه أبى أن يُقاطع أحدٌ تأمّلاته. ومهما كان السبب، توشّح وجهه طوال الزيارة بالبرودة المُمانِعة، ولم يبتسم قط، ولم يلاحظ أو حتّى يقدّر جهود الملك سعود والعاملين لديه لإسعاده.

عَلِمَ الملك سعود بأنّ نهرو كان نباتياً، فأصدر أوامره بتقديم ما يتوافق مع أحكام نظامه الغذائي حصراً. حتّى أنّه أوصاني، مراعاةً لنهرو، بعدم تقديم أيّ نوعٍ من اللحم على الطاولة الرئيسيّة. وفيما استلذّ ضيوفه على باقي الطاولات بتناول لحم البط الفاخر، تناول الملك البيض المقلي خلطاً، فيما أكل نهرو بلا شهيّة طبق الخضار بالكاري الذي أُعدّ له بأسلوب خاص. قبل الوليمة، تفقّد الملك سعود ترتيبات غرفة السفرة، وأبدى إعجابه بالتحفة المنسوخة عن تاج محل التي أعدّها الطهاة الإيطاليّون من السُكّر المغزول. قال الملك: "ستروق لرئيس الوزراء. إنّها جميلة". حتّى وإن راقت لنهرو، فما أمكن لأحدٍ أن يعرف. كان، بلا منازع، أكثر الضيوف جموداً ممّن زاروا الملك سعود في خلال أعوام خدمتي الخمسة لديه.

عندما قام الرئيس اللبناني الأسبق كميل شمعون بزيارة المملكة العربيّة السعوديّة، طلب الملك سعود أن تقامَ الوليمة على شرفه في الحديقة المسوّرة في قصر الحمراء إذ لم يكن قصر الناصريّة الجديد منجزاً في حينه.

نسّق طاقم عمل المطبخ الطاولات في الإطار الملوّن الذي تميّزت به الحديقة، وجلس ثلاثمئة ضيفٍ ليشهدوا على كارثة! ما إن بدأ النُدُل بتقديم العشاء، انطفأت كلّ الأنوار في الحديقة.

هرع عمّال المطبخ، وسط طقطقة الصحون المتكسّرة على الممرّات الإسمنتية، إلى تعليق فوانيس ورقيّة مضاءة بالشموع على أغصان الشجر في محيط الطاولات.

جلس الضيوفُ ساكنين أثناء ذلك إلى أن استأنف النُدُل تقديم الطعام تحت النار- بكلّ ما للكلمة من معنى- إذ أوشكت الفوانيس الورقيّة أن تشتعل في أي لحظة وتسقط على رؤوسهم مشكّلة حلقة مشتعلة في شعرهم. تبدّد خطر الاحتراق المُحدِق أمام قطرات المطر التي راحت تتساقط على غفلة. هرع عمّال المطبخ من جديد إلى إحضار مظلاّت أمسكوا بها فوق رأس الملك سعود والرئيس شمعون، فيما وقفتُ وراء كرسيهما أعمل على طمأنة نفسي بالإحصائيّات التي تقول إنّ المطر يهطل في السعوديّة ثلاث مرّات فقط في السنة، في ديسمبر ويناير وفبراير. عند الانتهاء من تثبيت المظلاّت، أمكن لي أن أضيف أكتوبر على اللائحة، فقد تحوّلت القطراتُ إلى زخّات غزيرة.

تفرّق الضيوف باستثناء الملك سعود والرئيس شمعون للبحث عن ملجأ من المطر. انطفأت الفوانيس، واحداً بعد الواحد. أسرعتُ إلى داخل القصر لأحُضر مصباحين كبيرين على البطارية. أشرتُ على نادل رشح ماءً بالوقوف خلف الملك، وعلى آخر خلف الرئيس شمعون. ووقفتُ خلفهما وقفتي الرسميّة مُشبّعاً بالماء. راحا يتناولان الطعام، متغافلَين بكل رويّة عن الرذاذ حولهما. عند انتهاء السَيْل، مَشَيا إلى داخل القصر بجدّية – وجفاف - وانسحبتُ أنا إلى مكتبي المكيّف، لأُصاب بالزكام.

* *

في أثناء أعوام خدمتي الخمسة لدى الملك سعود، كان أكثر الأحداث روعةً، وأكثرها كارثيّةً من حيث النتيجة، زيارة الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والرئيس السوري شكري القُوتلي المملكة للمشاركة في مؤتمرٍ إلى جانب الملك سعود. حدث ذلك بُعيد إعلان عبدالناصر تأميم قناة السويس وقبل الهجوم الفرنسي - البريطاني- الإسرائيلي على مصر بأسبوعين. كان الهدف الرسمي من المؤتمر التباحث في تشكيل اتّحاد تضامن بين مصر وسوريا والسعوديّة. والغاية الأخرى غير المُعلَنة كانت اقتصاديّة. كان عبد الناصر في حاجة ماسّة إلى العون المادي- وكان دور الملك سعود الأساسي هو دعم الاتحاد مادّياً من عائدات النفط المستفيضة.

تقرّر أن يحُطّ الرئيسان في الظهران، فسافر الملك سعود وأخاه الأمير فصل ولي العهد إلى المنطقة الشرقيّة للترحيب بالضيفَين ومرافقتهما إلى الرياض. وصل الرئيس القُوتلي أوّلاً، واستُقبل الاستقبال اللائق المعتاد. كان عبدالناصر سيصل بعد ساعات قليلة. ومع أنّ بِساط زيارته للمنطقة الشرقيّة بقي مطوياً، إلاّ أنّ الخبر ذاع بطريقة من الطرق. بهبوط طائرته، كان أكثر من عشرة آلاف شخصٍ قد تجمّعوا في ساحة المطار؛ وحدّ آلافٌ آخرون الطريق السريع بين المطار والدّمام،على مسافة ٢٤ كيلومتراً تقريباً.

قضى الملك سعود هو وضيفاه الليلة في الدمّام، وهي عاصمة المنطقة الشرقيّة والمرفأ الأساسي فيها. قيل لي إنّ مستشاري الملك سعود سهروا معظم الليلة يفكّرون في سُبُلٍ لتعطيل شعبيّة عبدالناصر. في اليوم التالي، طارت المجموعة إلى الرياض. تجمهرت أعدادٌ لا تحصى من السعوديّين مرتدي الأثواب في المطار، وكان احتشادهم هو الأعظم في تاريخ المدينة. عندما حطّت طائرة عبد الناصر، اخترق آلافُ الناس، الذين كانوا يهتفون له صراخاً، صفوف الحرس واقتربوا من الطائرة. كانت حماستهم للمس عبد الناصر أبعد من حدود السيطرة، هم الذين أجلّوا عبد الناصر واعتبروه المخلّص الجديد الآتي لخلاص العالم العربي. كافح الحرس، مستخدمين أطراف بنادقهم وعِصيّهم وأسواطهم لإبعاد الحشد. أخيراً، تمكّنوا بمساعدة الشرطة من تحويق الرئيس، متجانبين، إلى أن أوصلوه إلى سيارة الليموزين. احتشد تجمُّعٌ يفوق الأوّل عدداً على طول الطريق التي تُفضي من المطار إلى الرياض وهم يُنشدون ويُصفّقون بهستيريّة. ومجدّداً، اضطرّ الحرس والشرطة إلى استعمال عِصيّهم وإطلاق الرصاص في الهواء للإفساح في المجال أمام مرور السيّارة.

في قصر الحمراء، كانت التجهيزات للوليمة على شرف عبد الناصر تُعدّ طول اليوم. ولسببٍ من الأسباب، لم نُبلّغ أنّ القُوتلي سيكون حاضراً أيضاً، الأمر الذي ولّد تعقيدات مُذهلة. في الصباح الباكر، أحضر الطاهي قائمة الطعام لي للموافقة عليها وإرسالها للطباعة. بالإضافة إلى المقبّلات المعتادة من العصير وحليب النوق، وحليب البقر، واللّبن الزبادي، اشتملت القائمة على كبد الإوزّ المسمّن على طريقة ستراسبورغ، وطبق البطّ المكبوس بالجَرَس، وطبق جَزر فيشي المُلوَّح بالزيت، وكُرات البطاطس المقليّة الباريسيّة، وسلطة نابوليون، وأرزّ بيلاف

المسلوق بمرق الدجاج، وفطيرة "فول-أو-فان" الهشّة المدوّرة المحشوّة. كان الطّباع ينتظر للاستعجال بأخذ القائمة إلى متجر الطباعة. وَعَدَني بأن يأتيني بمسوّدة منها قبل حلول الظهر، ووفى بوعده. كانت الأحرف محفورة بشكل جميل، وأطراف القائمة محدّدة بخطّ ذهبيّ، وطُبع العَلَمان السعودي والمصري بالذهبي أيضاً وبشكل ناتىء على الغلاف. أرسلتُ المسوّدة إلى الشيخ فهد، القيّم على شؤون القصر، مع ترجمة بالعربيّة للأطباق الأساسيّة. وافق عليها، وأعدنا إرسالها إلى الطبّاع لسحبها. طلبتُ مئةً وعشرين نسخة بما أنّ الوليمة كانت صغيرة نسبياً وتقتصر على مئة شخص. (جاءت الفاتورة بقيمة ستّمئة دولارٍ أمريكي).

أُوصلتْ القوائم المُنجَزة إلى القصر في وقتٍ باكر من بعد الظهر. وكانت مسحوبة بشكل جميل. أخذتها إلى فهد ليرى جودتها. مرّر إصبعه ببطء على الأحرف السوداء المطبوعة، وهو يتفحّصها. ثمّ، أخذت ملامحه تتبدّل عبوساً. سألَ مشيراً إلى طبق كرات البطاطس المقليّة الباريسيّة pommes Parisienne: "هل هذا بالإنجليزيّة؟".

أجبتُ: "لا يا سعادة الشيخ. هذا بالفرنسيّة لأنّه طبقٌ فرنسي نموذجي".

قال، وقد رمقني ببصره مقطّباً وجهه: "الفرنسيّة؟ لمَ الفرنسيّة؟ ضيفنا مصريّ، ونحن عرب. الفرنسيون يحاربوننا بمساعدتهم إسرائيل. لا يجوز أن نستعمل هذه الكتابة. ارمِ القوائم. علينا كتابتها بالعربيّة فقط! قل للطبّاع ما تنوي تقديمه في أثناء الوليمة وزوّده بأسماء عربيّة فقط للأطباق".

قلت مُحتجّاً: "لكن ما من أسماء عربيّة لهذه الأطباق. بإمكاننا كتابة القائمة بالعربيّة لكنّها لن تمتّ بِصِلةٍ إلى ما سنقدّمه. كيف لي أن أترجم pommes Parisienne أو salade Napoléon من دون أن أستعمل أسماء العلم الفرنسيّة؟".

قال آمِراً: "إخترع كلماتٍ وعباراتٍ عربيّة. الله سيُعينك".

كان سعد مُنقذي المؤقّت. بفضل سلاسة قلمه، أصبحت pommes Parisienne "بطاطس القاهرة"، وsalade Napoléon "سلطة رعمسيس"، وتحوّلت الأطباق الأخرى إلى "البط المكبوس تحت أغطية الأهرامات"، وكبد إوزّ الإسكندريّة المفروم"، و"جَزر طيبه"، و"فطائر

النيل"، لتُشكّل توليفة غريبة بين اللغة العربيّة الفصحى واللهجة المصريّة. أرسلتُ القائمة الجديدة لكي تُطبع بالعربيّة فقط ورميتُ النسخ القديمة. أوصل الطبّاع النسخ الجديدة عند الرابعة عصراً. لكن للأسف، لم تُترك لتجفّ تماماً، وتلطّخت بحبرها الأسود. رُميَتْ هذه المجموعة، وطُلبتُ مجموعة جديدة وصلت قبل عشر دقائق من الموعد المحدّد لبدء الوليمة.

كانت الطاولات منسّقة بشكلٍ جميل. أعمل طاهي الحلويات براعته الفنّية في السُكّر المغزول لصنع هرمين مصغّرين وُضعا قبالة مقعدَي الملك سعود والرئيس عبد الناصر، وقامت أشجار نخيل من السكّر على ضفّتي نهر النيل الذي شُكّل من مرايا اجتازها زورقٌ أفعواني حتى وسط الطاولة الرئيسيّة. كَثُر العَلَمان السعودي والمصري على الطاولات وعلى الجدران. وتوَّج الزهر المُستقدَم جوّاً من أسمرة، الديكور العام.

تجمّع الملك سعود وحاشيته في حديقة القصر لأداء صلاة المغرب. وتجمّع عند بوّابة مدخل قصر الحمراء حشدٌ يرتقب رؤية عبد الناصر الذي كان ينزل في قصر البديعة في خلال زيارته للرياض على بعد نحو كيلومتر ونصف. أطلق وصول عبد الناصر بعد صلاة المغرب موجةً أخرى من الهتافات والأناشيد. أسرع سائق سيّارته الليموزين عبر الحشد وإلى الممرّ الخاصّ بالسيارات عند مدخل القصر. أُرشد عبد الناصر من فوره إلى المجلس، الذي كان بدأ يمتلىء بالضيوف المدعوّين إلى الوليمة. عند هذه اللحظة، ركض سكرتير الملك سعود بانفعال إلى غرفة السفرة صارخاً: "أسرع! أسرع! لدينا مدعوّون إضافيّون. سينضمّ الرئيس القُوتلي وعشرون شخصاً من مرافقيه الرسميين إلى الملك سعود والرئيس عبد الناصر على الوليمة".

كان حشر المقاعد، والتي كانت محشورة أصلاً، الطريقة الوحيدة لتأمين مقاعد للضيوف الجُدد. عَنى ذلك أنّه سيكون على بعض السعوديّين أن يباعدوا بين أرجلهم عند أرجل الطاولات، وهذا مستحيل عملياً لكل من يرتدي ثوباً. كان لا بُدّ أيضاً من رفع النيل والهرمين وأشجار النخيل عن الطاولات لتأمين بعض المساحة لوضع الأعلام السوريّة. وأمّا مجموعة القوائم الأخيرة التي اعتقدتُ أنّها ستكون نهائية، فقد عرفتْ مصير سابقتها، إذ إنّ الغلاف لم يشتمل على العلم السوري.

انبرى الطهاة يفتحون الأطعمة المعلّبة، ولم يدقّ الحارس الشخصي للملك سعود الجرس معلناً بدء العشاء إلاّ بعد ساعة على الموعد الأصليّ المحدّد للوليمة.

أرشد الملكُ ضيفَيه إلى مقعديهما عند صدر الطاولة الرئيسيّة. في تغيير في اللحظة الأخيرة، أوعز مسؤول التشريفات لدى الملك سعود إليّ بوضع مقعد عبد الناصر إلى يسار صاحب الجلالة، وإعطاء القُوتلي مقعد الشرف إلى اليمين. أدركتُ لاحقاً أنّ هذه المناورة كان الأولى من جهّة مستشاري الملك سعود للحطّ من قدر عبد الناصر. لكنّ سعيهم ضلّ.

سارت الوليمة جيداً جداً، وعلت الضحكات مرّة على الأقل. وكالعادة، وقف موظّف الاتصالات لدى الملك سعود إلى جانبه وتلا النشرات الإخباريّة المؤخّرة بصوتٍ عالٍ: الرئيس عبد الناصر يهرب إلى السعوديّة خوفاً على حياته. حَدَثَ لاحقاً موقفٌ جعلني أستحضر هذه اللحظة.

عند نهاية الوليمة، أحضر نادلٌ حلوى "بايكد ألاسكا" خاصّة للملك والرئيسين زُيّنت بأعلام زينة صغيرة للعلم المصري والسوري والسعودي. فيما قطع النادل القطعة الأولى من القالب، سقط العلم السوري ووقع على الأرض. ولاحظ عبد الناصر العلم الساقط، نظر إليه بطرف العين، ثمّ نكّس بصره إلى طبقه. ارتسمت على زاوية شفتيه ابتسامة رفيعة سرعان ما اختفت ما إن رفع بصره.

في البداية، كان مستشارو الملك سعود قد نصحوه بأن يردّ إيجاباً على اقتراح عبد الناصر في تشكيل اتّحاد - فمن شأن ذلك أن يُظهر دعم السعوديّة لموقف عبد الناصر في مصر. إلى هذا، خال المستشارون أنّ التحكّم بالجزء المادي يعني التحكّم بالاتّحاد. ولم يستبقوا ولو عن بُعد المشاعر التي سيبعثها عبد الناصر في نفوس الشعب السعودي. كانت شعبيّة الملك سعود كبيرة لدى أعوانه، لكن هذه المرّة كانت الهتافات والأناشيد والتصفيق كلّها لعبد الناصر. هال المستشارو واقع أنّهم أعطوا القائد المصري فرصة استقطاب الحشود على حساب الملك سعود. وسرعان ما أدركوا أنّهم لا يملكون فرصة ولو ضئيلة في التحكّم بالاتّحاد المقترَح. وقرّروا ألاّ يضطلع الملك سعود بأيّ دور فيه، وعزموا على تدمير عبد الناصر.

كان الملك سعود في خضمّ هذا السعي إلى النفوذ في الشرق الأوسط وكان همّه الأساسي الحفاظ على وحدة بلاده. كان والده قد أعدّه لهذه المهمّة وحسب، مُرسياً له أسساً شاملة في حياة البدو؛ واستجاب الملك سعود لهذا الدور بنجاح فريدٍ في الحفاظ على الحكم. أما في شؤون العالم، فقد كان إلمامه بها بسيطاً، وكان يعتمد كلّياً على مستشاريه لتوجيهه فيها. وإذ كان هؤلاء مدركين لمكانتهم النافذة وحظوتهم، كانوا عازمين على الحفاظ عليها. لذا سعوا بيأس إلى إيجاد سُبُل لإحباط عبد الناصر، الذي كانوا متيقّنين بأنّه يشكّل خطراً قوياً عليهم.

أثبطت مساعيهم، العمليّة العسكريّة التي نفّذها بالتضامن كلّ من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على عبد الناصر والتي حشدت، على الأقل علناً، كلّ العرب دفاعاً عنه. ورغم عجز جيشه، خرج عبد الناصر من الأزمة بشعبية ونفوذ أكبر من قبل.

ظهرت الفرصة الأولى لإحباطه في أكتوبر ١٩٥٧ عندما شكّل النزاع على الحدود بين سوريا وتركيا خطراً باندلاع حربٍ شعواء. انتهز مستشارو الملك سعود الموقف. أملوا، باقتراحهم أن يتوسّط الملك سعود لحلّ المشكلة، أن يجعلوا منه قائداً حقيقياً ومُصالحاً بين العرب. أقنعوه بعرض خدمات مكاتبه الجيّدة ومجلسه لتسوية النزاع. دُعي رئيسا وزراء تركيا وسوريا إلى السعوديّة لإجراء محادثات سلام، لبّيا الدعوة. وصل الوفد التركي إلى السعوديّة وسط اضطراب كبير حول دور الملك سعود المصالِح لإحلال السلام. أمّا السوريّون، فتخلّفوا عن الزيارة. بدلاً من ذلك، سافر الرئيس القُوتلي سراً إلى القاهرة، ووُلدت على أثر زيارته الجمهوريّة العربيّة المتّحدة التي تضمّ سوريا ومصر. أُعلن تشكيل الجمهوريّة رسمياً بعد ثلاثة أشهر.

توقّفت الأزمة على الحدود فجأة، وبقي عبد الناصر يُنادى به أمل العرب العظيم.

ولغيظ مستشاري الملك من عجزهم عن احتواء تأثير عبد الناصر، أقنعوه بأنّ الرئيس المصري كان خطراً على السعوديّة. وبعد أن حصلوا على الإذن باعتماد تدابير احترازيّة، أمروا بتنفيذ إحدى أكثر المؤامرات غدراً وعبثيّة وهزليّة في التاريخ.

وقّع الملك سعود على شيك مصرفي بقيمة خمسة ملايين دولار وأُعطي إلى أحد أحمائه. أخذ هذا الرجل الشيك إلى سوريا حيث تقيم عائلته وطلب عون أخيه. حاولا متّحدَين تكليف

ضابط مأجور في الجيش السوري لاغتيال عبد الناصر. فضح عبدالناصر التآمر فوراً، واتّهم الملك سعود علناً بالتخطيط لاغتياله، مُظهراً الشيك الموقّع منه.

أُجبِر الملك سعود على أثر الحادث السياسي المُحرِج إلى التنازل عملياً عن صلاحيّاته إلى أخيه فيصل ولي العهد، في مارس ١٩٥٨، وبقي الملك سعود قرابة السنتين حاملاً لقبه بالإسم. مع ذلك، استعاد السلطة عام ١٩٦٠.

مُذاك، نظّم عبد الناصر حملة إذاعيّة وصحفيّة تهجّمت بلا كلل على الملك، منادياً فيها إلى إسقاط الحكم الملكي في السعوديّة.

الفصل ٦

درب النبي

يُعلِن اليوم الأول من رمضان الكريم، شهر الصوم، بدءَ الموسم الأقدس من السنة الهجريّة. بحسب العقيدة الإسلاميّة، هو الشهر الذي أنزل فيه الله القرآن على النبي محمد، وهو الشهر الوحيد المذكور في الكتاب. يبدأ رمضان رسمياً برؤية الهلال بعد اكتمال شهر شعبان في التقويم القمريّ العربيّ. بما أنّ هذا التقويم قائمٌ على الدورة القمريّة، يحلّ رمضان بحسب التقويم الشمسي قبل أحد عشر يوماً كلّ سنة. يُقال إنّ يوم بدئه المضبوط يُحدّد بهذه الطريقة: ارتقاباً لظهور الهلال، يتّخذ مُلاّ من مكّة المكرّمة موضعاً له في الصحراء؛ وعند ظهور الهلال يرفع شعرة بيضاء وأخرى سوداء مقابل نوره. في اللحظة التي يصبح فيها تمييز الشعرة البيضاء من السوداء ممكناً، يُعلن بدء رمضان. في العالم الإسلامي، يُعلَن الخبر بطرق أكثر علميّة، وتبدأ فترة الصوم.

خلال رمضان، لا يجوز للمسلمين أن يأكلوا ويشربوا بين الشروق والغروب. هم يقضون وقتهم نياماً. وتكون الرياض في النهار مدينة ساكنة، لأنّ الجميع يلازمون بيوتهم، إن امتلكوا واحداً. عند المغيب، يُطلَق مدفعٌ للإشارة إلى جواز الإفطار. وبعد أن يكون الناس قد تناولوا أوّل وجبة لهم لليوم، يتدفّقون إلى الشوارع ويُصرف باقي الليلة في تناول مزيدٍ من الطعام والاحتفال.

على مدى شهرٍ يكون تركيز الشعب بأكمله مصبوباً على التقيّد بالشعائر الدينيّة. لربما لم يكن وقف الأنشطة النهاريّة يشكّل عائقاً في زمن النبي محمد، لكنّه اليوم، يُعمِل الفوضى في النظام الحالي للأجهزة الحكوميّة والأعمال. لهذا السبب، يتلافى بعض البلدان المسلمة التقيّد حرفياً بأحكام شهر الصوم. لكن في السعوديّة، يلتزم الزعماء الدينيّون كما سبق أن ذكرت العقائد النابعة ممّا تجوز تسميته المذهب الأصولي في الإسلام: مذهب الوهّابيّة. والملك سعود، أسوةً بأبيه من قبلِه، يتفانى في ممارسة واجباته الدينيّة. ونتيجة ذلك، تُعلّق الأنشطة الحكوميّة والأعمال على نطاق واسع. لحسن الحظ، يواصل النفط، الذي لا دين له، بالتدّفق على مدى

٢٤ ساعة في اليوم مع أنّ معظم الموظّفين السعوديّين الأحد عشر ألفاً لدى أرامكو، يعملون بدوام جزئي فقط في خلال رمضان.

وشهر الصوم تمهيدٌ للحج الرسمي إلى مكّة. والحج هو خامس أركان الإسلام وعلى كلّ مسلم أداء فريضة الحجّ أقلّه مرّة في حياته إن أراد دخول الجنّة. يجوز أداء "العمرة" أو "الحج الأصغر" في أيّ وقت من السنة، غير أنّه لا بُد للحجّ الرسمي، أي "الحجّ الأكبر" أن يتمّ عموماً في العشر الأوائل من شهر ذي الحجة، أي تبدأ بعد ستّين يوماً تقريباً على انتهاء رمضان.

يحمل ملك السعوديّة أيضاً لقب خادم الحرمَين الشريفَين، اللذين يقعان في حدود أراضي مملكته؛ ويبدأ موسم الحجّ عندما يصل الملك إلى مكّة ويؤدّي مراسم غسل الحجر الأسود، الذي بحسب العقيدة الإسلاميّة جاء به الملاك جبريل إلى النبي ابراهيم من السماوات. الحجر الأسود حجر نيزكي مغروس في الزاوية الجنوبيّة الشرقيّة من جدار الكعبة المشرّفة. والكعبة، هي القبلة التي يوجِّه المسلّمون صلواتهم إليها، وهي على شكل مكعّب ضخم يعتقد المسلمون أنّ النبي ابراهيم قد بناه بأمر من الله ليكون بيت الله الحرام.

قُبيل بدء الحجّ، كان لا بدّ من نقل طاقم عمل القصر لدى الملك سعود إلى جدّة، وهي نقطة وصول معظم الحجّاج الخمسمئة ألفِ الذين يؤدّون فريضة الحجّ سنوياً. يمرّ الآلاف أيضاً عبر الرياض في طريقهم إلى جدّة. لم يكن ثمّة سوى درب صحراويّة وعرة بين المدينتين. وقبل الحجّ بأيام، تحوّل مطار الرياض إلى كتلة فائرة من المؤمنين الذين أتوا من أصقاع العالم الإسلامي ينتظرون انتهاز رحلة على متن إحدى طائرات الخطوط الملكيّة العربيّة الفائضة. ولم يكن البشر فقط في الانتظار، بل رافقتهم الأغنام والمِعاز والدجاج التي كانت زادهم. كان النقل مجّانياً، لكن مع الإعلان عن وقت إقلاع كلّ طائرة – إذ لم يكن ثمّة جدول زمني محدّد - كان على الحجّاج الانتظار أو بالأحرى كان رجال الشرطة يصدّونهم بعصيّهم إلى حين ركوب المسؤولين ذوي الامتيازات، إن وُجدوا. ثمّ، تندفع كتلة الناس كموجة نحو الطائرة. في العادة، لا تتمكّن سوى قلّة من الصعود. في الغرب، نظّمَ المتروكون مسيرة احتجاجيّة إلى القصر، غير أنّ هؤلاء الناس، الذين تربّوا على القدريّة، كانوا يتراجعون بصبر لانتظار الطائرة التالية، عارفين أنّ الله سيوصلهم إلى جدّة بطريقة من الطرق في الوقت المناسب - إن شاء الله.

كان أفراد طاقم عمل المطبخ، المجبرين على التنافس مع الحجّاج على مقعد في الطائرة، يضربون الخيم في المطار لعدّة أيام أحياناً، ويصلون إلى جدّة في دفعات من اثنين، وأحياناً فردياً.

لكي أتمكّن من التخطيط للإقامة في جدّة أثناء الحجّ وبعده، كان عليّ تحديد المؤن الموجودة في القصر هناك. كان التواصل مع مجيد ابن أحمد، السعودي الذي اقتضى عمله الحفاظ على مرافق القصر في غياب الملك سعود، صعباً على الدوام. في أثناء سنتي الثانية في العمل لدى الملك، حينما كان الحجّ سيبدأ بعد أسابيع قليلة، استغرق الأمر ثلاثة أسابيع للحصول على ردّ منه. جاء الردّ أخيراً في رسالة تشير إلى أنّ الوضع كان عادياً. جاءت الرسالة، بالإنجليزية، كالآتي:

العزيز السيد/ المُشرف على خدمات الضيافة لدى صاحب الجلالة،

طالما كنتَ لطيفاً معي وأعتبر أنّه من واجبي الموجِب والمشرف أن أتوجّه بهذه الرسالة إليك والتي أصرّيتَ على تلقّيها. أنت عزيزٌ عليّ ويُسعدني أن أعبّر لك عن مشاعري المتزايدة اتّجاهك كلّ الوقت وأنّ أعلمك بأنّنا اضطررنا إلى رمي ٩٨ صندوقاً من اللحم المجمّد الذي ذاب لأنّ التيّار الكهربائي انقطع ثلاث مرات منذ رحيلك. أطلب من الله أن أرى وجهك وأصافح يدك وأسمع لكنة صوتك العذب قبل انقضاء هذا الشهر. وأختم هذه الرسالة، مكرّراً تمنّياتي القلبيّة لك، لأنّ اليوم يوم ختان ابني وعليّ أخذه إلى الطبيب. وأختم هذه السطور مجدّداً راجياً منك تقبّل امتناني المستمرّ لك ومشاعري الصادقة وآمل أن تكون مسروراً.

خادمكم المطيع

مجيد إبن أحمد

لم يكن الحجّاج قد بدأوا بالتجمّع في مطار الرياض، لذا سافرتُ إلى جدّة لأُنقذ ما أمكن لي من مخزون الطعام في القصر. حينذاك، كان مطبخ قصر الاستقبال قد جُهّز. كانت قدما مجيد

أوّل ما رأيتُ منه، وقد برزتا من تحت الثلاّجات في غرفة التخزين في القصر. ناديته. زحف من تحتها على عجلة ورحّب بي بإعجاب مبالغ فيه إلى حدّ الإعياء وحاول تقبيل ظاهر يدي.

قلتُ بحدّية: "احتفظ بها لأصدقائك فوق". مجيد، في عالمه الخاص، كان سياسياً ضليعاً، لكن كان لا بُدّ من إرجاعه إلى الواقع بين الحين والحين، غير أنّ حماسته للتصرّف ببراعة على انفراد كانت ثابتة على الدوام.

تابعتُ: "قل لي بربّك ما الذي يجري هنا".

أجاب بالإنجليزيّة: "يا إلهي يا رئّس، أحاول إصلاح الثلاّجة".

"ولمَ لا تتّصل بالكهربائي الذي أصلحها من قبل؟".

"فعلت، لكن لن يأتي أحد. لم يُدفع لهم المرة الفائتة. لم يُدفع لأحد هذه السنة. لذا، ذهبتُ إلى مهندس أرامكو الذي قال لي إنّه سيأتي ما إن يصله أمر من ممثّل مولاي في جدّة. لكن الأمر لم يُرسَل، ولم يأتِ لمساعدتي. والآن ترفض المرائب تزويدي بسيارات تنقلني إلى مكّة والمدينة، لذا لم أتفقّد ذينك القصرين منذ مدّة طويلة. المرائب أيضاً لها أموال مستحقّة من الصيف الفائت. كلّ شيء في فوضى. القصر في تداعٍ وهو لم يُبنَ إلاّ منذ عام. وها أنا أحاول إصلاح صندوق الثلج الشرير هذا بمِبرد أظافر".

"لمَ لم تُبلّغ عن تعطّل الثلاّجة ووفّرت علينا هدر اللحم الذي رُمي؟".

"إلهي! لقد بلّغت عنها. كنت أذهب كلّ يوم على مدى أسبوع إلى المكاتب الملكيّة في جدّة، وكانوا يقولون لي كلّ يومٍ إنّهم سيتولّون الأمر. عندما بعثتَ لي برسالة فظّة، ذهبتُ لتفقّد الثلاّجة، وكان الجو عابقاً برائحة كريهة. لم يعمل أحد على إصلاحها، وبقيت الثلاّجة معطّلة مدّة أسبوعين في خلال وجودي في المدينة".

"كيف ذهبت إلى المدينة؟ أوَلم تقل إنّ المرآب يرفض تزويدك بوسيلة نقل؟".

"ذهبتُ لأداء العمرة لأنّني لن أتمكّن من الذهاب عند وصول مولاي، وتدبّرتُ أمري".

"هل تفقّدت القصر هناك؟".

"لا. ذهبت لأداء العمرة. لم أذهب للعمل".

"حسنٌ. من حلّ محلّك هنا في أثناء غيابك؟".

"قال لي أخي عبدالله إنّه سيُبقي عيناً ساهرة على القصر من أجلي، لكن عندما رجعت، كان قد ذهب إلى مكّة للطهو لسمو الأمير فيصل، ولي العهد، الذي كان يؤدّي العمرة هناك. ووجدت عند عودتي من المدينة كلماتك القاسية واللحم الفاسد، فأرسلتُ الرسالة إليك، وأعددتُ أيضاً هذه الرسالة لكي أبعث بها إلى مكتب أرامكو التماساً للعون. سوف أتدبّر توصيلها اليوم".

ومدّ لي بالرسالة.

"لمَ تُرسل رسالة فيما لا يستغرقك الأمر سوى خمس دقائق للنزول والتحدّث إليهم؟".

"إلهي، الأمر أكثر رسميّة بهذه الطريقة. تعلّمتُ ذلك من مكتب أرامكو. هم يُرسلون دوماً نسختين من الرسائل حول كلّ شيء. يبدو الأمر مهماً على الورق مع كلّ الكلمات المكتوبة. لك التأكّد من ذلك بنفسك"، وأشار إلى الرسالة:

مُرافق أرامكو؛أرجو أن تكون بصحّة جيّدة. أرجو أن تكون عائلتك بخير. صحّتي متعفّنة من نتانة اللحم وثمار التوت المخزّنة في الثلاّجة المعطّلة في غرفة المؤن في جدّة. أرسِل رَجُلَك الأمريكي لتصليحها واحصل على الإذن من السيد أرنولد في الرياض الذي سيحصل على الإذن من الشيخ فهد الذي سيخبر مولاي. هدرنا نحو مئة صندوق من الأشياء التي أكلتها المِعاز عندي وأصيبت بالمرض. أرجو أن تكون بخير. على أمل أن تصلك هذه الرسالة وأنت بنشاط وعسى الله أن يعينكم.

خادمكم المطيع

مجيد إبن أحمد

سألت: "هل كتبت هذه الرسالة بنفسك؟".

"لا. يهتمّ الكاتب العام في السوق بكتابة كلّ مراسلاتي. لديه كتاب من الكلمات الإنجليزية، لذا تأتي الرسائل رسميّة أكثر من طريقتي في الكلام. أقول له بالعربية ما أريد كتابته ويبحث هو عن الكلمات في الكتاب. كلّفتني هذه الرسالة وتلك التي أرسلتها لك ٢٠ ريالاً، وأثق أنّك أنتَ التي طالما كنت لطيفاً معي، ستردّها إليّ لأنّني خدمتك بأفضل ما عندي". قال كلّ ذلك بثقة، وقد ركب موجة الترويج السياسي مجدّداً.

أرسلتُ برقية إلى الظهران طالباً من أرامكو إرسال شحنة طارئة من الأطعمة المثلّجة للحفاظ على سلامة عمليّات القصر إلى أن يصبح بالإمكان توصيل المؤن إلى الرياض، وتدبّرت أمر استقدام مهندس من مكتب أرامكو في جدّة لكي يُصلح الثلاّجة. بوصول الملك سعود من الرياض، كان القصر شغّالاً من جديد، مع أنّه كان على مجيد إيجاد غفير من عمّال المطبخ المؤقّتين من شوارع جدّة لأنّ كثيراً من طاقم العمل الموجود كان لا يزال مخيِّماً في مطار الرياض.

بتطبيق تقنيّاته الخاصّة في الإقناع السياسي، طالما كان مجيد قادراً على تدبير عون إضافي للقصر. باستعراضٍ كلاميٍّ درامي، كان يلمس حسّ الشرف لدى الزبّالين، ويُقنع الكثير منهم بالتخلّي عن وظائفهم والخدمة من أجل قضية أنبل وهي تنظيف مطبخ القصر وأرضيّاته - من دون مقابل، لأنّه كان يعدهم بمناصب مُدرّة للمال من ضمن طاقم عمل القصر ما إن تصبح شاغرة. ومن دون أن يكون قد سمع بشخصيّة "طوم سُوير"، كان يسلب هديّة صغيرة من كلّ العاملين الجدد في المطبخ قبل السماح لهم بالشروع في العمل. كان مجيد يبلص أيضاً تجّار جدّة، بأخذ مؤنه الشخصيّة منهم بلا مقابل لأنّه كان يعدهم بأنّه سيوجّه كلّ مشتريات القصر إليهم. كان يلجأ إلى كلّ وسيلة في حدود ما يسمح به دينه لكي يُعيل زوجتيه وأولاده العشرة.

متى كان الملك سعود غائباً عن جدّة، كان مجيد، السَئِم من مشكلاته الأُسريّة الجمّة، ينتقل إلى القصر، حيث كان يستضيف أصدقاءه استضافة تُخلّف فيهم انطباعات إيجابيّة. كان سميناً وقصيراً ومنيعاً، وكان يجلس فوق عبوات الخضار المعلّبة العظيمة، مثل مهاراجا بين الحشود، ويسلّي مستمعيه بقصص عن رجوليّته، ويخبرهم عن أنشطة القصر الداخليّة،

ويكرّمهم بقهوة ووجبات خفيفة على حساب مخزون القصر. مهما كانت نزوات مجيد في مساعيه العمليّة، كان مع ذلك يحشد كلّ طاقاته في اتّجاه واجباته في القصر متى كان الملك سعود في جدّة. وكان، من خلال نبع معارفه الذي لا ينضب، أشبه بمنظّمة خدماتٍ من فرد واحد.

فيما راح مجيد وطاقمه يفركون أرضيّات القصر وجدرانه، ذهبتُ إلى المجمّع السكني التابع لأرامكو على أطراف جدّة واستقرّيتُ في الغرفة التي سأشغلها في خلال إقامة الملك سعود في جدّة. في اليوم التالي، عندما عدتُ إلى القصر لأتحقّق من تقدّم العمل، وافاني مجيد إلى باب المطبخ. كان يحمل غزالاً صغيراً بين ذراعيه. قال بأكثر طرقه الإحتياليّة جدّية: "أعتقد أنّك كنت غاضباً منّي أمس سيّد أرنولد. لكن لا يهمّ، أنا سعيد على أيّ حال بعودتك إلى جدّة وأقدّم لك حيواني الأليف ترحيباً بك". ومدّ لي بالغزال.

"هذه بادرة لطيفة جداً يا مجيد، لكن لا مكان لديّ أحتفظ فيه بالغزال".

"هو ليس مشاكساً. لديه رسن إن أردت ربطه في الخارج، لكن لا ضرورة لذلك لأنّه غير مزعج داخل المنزل. وتستطيع إحضاره إلى القصر كلّ يوم. عليك الاحتفاظ به لأنّني أقدّمه لك هديّة. إسمه *نَعَم*".

إن كان ثمّة أمر واحد لم أحتج إليه في حينه، فقد كان غزالاً. لكنّ مجيد أصرّ قائلاً لي إنّني سأهينه إن لم أقبل هديّته. لذا، عندما اصطحبني سائقي إلى غرفتي ذاك المساء، شاركني غزالي في المقعد الخلفي لسيارة الكاديلاك.

وصل الملك سعود إلى قصر جدّة قبل أيام على ذهابه إلى مكّة لافتتاح الحجّ. كانت شوارع جدّة غير المنتطمة والمغبّرة مكتظّة بالحجّاج. وصل أكثر من مئة ألف حاجّ بحراً على متن سفن مخصّصة للحجّ عبر البحر الأحمر، وأكثر من خمسين ألفاً سافروا جواً، وأكثر من ثلاثين ألفاً براً عبر الصحراء في قوافل من بلدان أجنبيّة. بهذا العدد المجمل، إضافةً إلى نحو أربعمئة ألفٍ من الحجّاج المحلّيين وسكّان جدّة الذين يبلغ عددهم نحو مئتين وخمسين ألفاً، تحوّلت المدينة إلى سَعير بشري ملتهب.

معظم الحجّاج كرّسوا حياتهم لجمع ما يكفي من المال كي يتمكّنوا من السفر إلى مكة. جاء كثُر من الكهول لزيارة مكّة والمدينة وللموت قرب قبر النبي، إن حقّق الله مناهم. مع وصول الحجّ إلى نهايته، يكون كثيرون، إلى حدود ألف شخص قد نالوا مبتغاهم - وقد أعانتهم في ذلك ضربة شمسٍ، وشَظَف الحجّ بذاته، والعزم على الموت بعد أن اختبروا اللحظة الروحانيّة الأعظم في حياتهم.

في المساء، فيما ينسحب أولئك الذين باستطاعتهم دفع كلفة فنادق جدّة الخياليّة والأنزال البائسة إلى غرفهم، يستلقي معظم الحجّاج ببساطة على شوارع جدّة حيث قضوا يومهم. كانوا يُعدّون وجباتهم من مصادر شحيحة بإشعال النار في الهواء الطلق. وأولئك الذين ذهبوا مباشرة إلى مكّة بانتظار يوم الافتتاح الرسمي، واجهوا الظروف التعسة ذاتها كما في جدّة.

عندما تولّى والد الملك سعود الملك عبدالعزيز رحمه الله حكم السعوديّة عام ١٩٣٢، أصدر مرسوماً يقضي بمعاملة الحجّاج بإنصاف في بلده. آنذاك، كانت ضريبة الفرد التي أوجب على الحجّاج تسديدها قبل دخول البلاد، مصدر الدخل الوحيد فعلياً للحكومة. وكان الحجّ النشاط الأساسي لواردات البلاد، وكان ابتزاز الأتقياء شائعاً ما لم نقل نشاطاً تحت الطاولة بين ساكني جدّة ومكّة والمدينة. فقد يرتفع سعر الماء، وهو حاجة شحيحة، إلى دولارٍ أمريكي لكل ربع- وكان ثمّة طرق تجعل منه يبدو أشحّ من الواقع. وكان النقل على ظهر الحمار أو الإبل أو في الحافلة على طول الطريق الداخليّة إلى مكّة والبالغة أربعة وسبعين كيلومتراً، باهظاً لدرجةٍ حدّت من الانتقال. ووقع كثيرٌ من الحجّاج الذين اضطرّوا إلى السير أو فضّلوا ذلك، فريسة بائعي الماء. عَمَدَ المرشدون الذين من دونهم عَجِزَ الحجّاج عن إيجاد طريقهم إلى الأماكن المقدّسة على طول درب الحجّ، إلى جمع مدخولهم السنوي في عشرة أيام. ضمّت الأماكن المقدّسة بين جدّة ومكّة الأماكن التي يفترض أنّ النبي محمّد توقّف عندها ليرتاح على الدرب في خلال سفره الأخير من مكّة إلى جدّة. وبما أنّ كلّ مكان أمسى مركزاً لعملٍ تجاري مُزدهر في أثناء الحجّ، ازداد عدد الأمكنة حتماً كلّ سنة.

ومع تطوّر قطاع النفط المُربح في السعوديّة، لم تعد الحكومة تعوّل على الحجّاج كمصدر دخلٍ لها. لكن، بحلول ذلك، كان التتجير المُفرط قد استحكم ولا يزال، تماماً كما هي حال

الأماكن المسيحيّة المقدّسة في مدينة القدس. عمل الملك سعود على الحدّ إلى درجة كبيرة من الاستغلالات عبر تأمين السفر جواً، وبراً بالحافلة مجّاناً. وشُيّدت بأمرٍ منه طريق سريعة معبّدة بين المدينتين. كما أمر ببناء أنزال استراحة على طولها لكي يتمكّن الحجّاج المواظبين على السير على مدى ثلاثة أيام إلى مكّة، من أن يستريحوا، ولو كان إصرارهم نابعاً من اعتقادهم الخطأ بأنّ ذلك يتوافق أكثر ما يتوافق مع درب النبي محمد. الآن، ترتّب الحكومة تأمين ما يكفي من مخزون الماء، غير أنّ نشر الخبر حول توافره إلى حشد الحجّاج أمر مستحيل بالنظر إلى وجود جحافلَ من الباعة المتجوّلين. وهكذا، لا يزال كثير من الحجّاج يدفعون باهظاً ثمن إيمانهم.

ينتظر الملك سعود في جدّة إلى حين يُبلّغه مستشاروه الدينيّون التاريخ الدقيق لبدء الحجّ، بحسب الهلال. ومتى غادر القصر أو عاد إليه، توافيه عصابة من المتسوّلين والمقعدين عند بوّابة المدخل إلى مجمّع القصر. وفي كلّ مرّة، يوقف سائقه السيّارة، ويترجّل حرسه الشخصيون عن العتبات الخارجيّة للسيّارة ويوزّعون المال على المجتمعين. أحياناً، يطرحُ مُقعدٌ بنفسه أمام السيّارة المتمهّلة، عالِماً أنّه إذا اصطدمت به، فسيؤخذ وعائلته تحت الرعاية. ونادراً ما تصطدم بأيٍ منهم. ونادراً ما ينجحون في محاولاتهم، بما أنّ حرس الملك يعاينون رجلَي ويدَي المقعد معاينة دقيقة للتأكّد مما إذا ما كان مقعداً فعلاً. إذا كان كذلك، يُحضَر إلى الملك سعود الذي يناوله حفنة من النقود الذهبيّة من كيس بين قدميه في السيّارة.

عندما يُبلّغ الملك سعود بإخطار عن بدء فترة الحجّ، يضع جانباً أثوابه وغُتراته المطرّزة بالذهب ويرتدي الإحرام - وهو عبارة عن قطعتين من القماش الأبيض اللتين تُلّفان حول الجسم من دون شدّهما. وبرأسه الأصلع المكشوف، وحزامٍ أسود فقط للمال حول خصره كاسراً بياض ردائه، وبصندلٍ جلدي عادي في قدميه العاريتين، يبدو كأي مسلم آخر على وشك أن يكرّس تقواه إلى الله عبر الحجّ الذي أرساه النبي محمّد. ثمّ، يسافر إلى مكّة في السيّارة، ويكون أوّل عمل يقوم به هو غسل الحجر الأسود في الركن اليماني من الكعبة البازلتيّة الحجر.

بمغادرة الملك، باتت جدّة مدينة مقفرة تقريباً. حتّى القصر كان مهجوراً. شارك عاملو القصر من المسلمين في الحجّ، ولمدّة عشرة أيام، لم يكن ثمّة من يقوم بأي عمل باستثناء قلّة من الكفّار مثلي، والطهاة الإيطاليين. واصلنا إعداد الوجبات للملك سعود وحاشيته بوضع الطعام في الحاويات مُفرغة الهواء ذاتها التي سبق أن استعملناها لنقل الطعام إلى قصر جدّة عندما كانت تجهيزات المطبخ لا تزال غير مُنجَزة. وكان مجيد يأتي كلّ يومٍ من مكّة بشاحنته ويحمّل الحاويات. تحوّلت حدائق القصر الجميلة إلى نباتٍ محترق تحت أشعة الشمس اللاذعة. وذبلت بُقع العشب الأخضر الأغنّة في مجمّع القصر لتُمسي مصفرّة مائتة.

وككافر، لم يكن مسموحاً لي بالمشاركة في الحجّ، أو حتّى العبور من تحت اللافتة التي تمتدّ فوق الطريق السريع ما بين جدّة ومكّة، محذّرة غير المسلمين بأنّه لا يجوز لغير المؤمنين بالقرآن تدنيس الأرض المقدّسة. قلّة من غير المسلمين نجحت في الحجّ من دون أن يُفضح أمرها، وحاول آخرون كثيرون وأخفقوا. ضُبِطَ ثلاثةُ مهندسين أمريكيّين حاولوا اختراق بوّابات الأرض الحرام عام ١٩٥٥ وأوقِفوا وحُكموا بالسَجن المؤبّد في السعوديّة. لكن، أُخليَ سبيلهم لاحقاً تلك السنة بعدما أصدر الملك سعود عفواً عاماً عن كلّ السجناء من غير السياسيين وذلك في ذكرى تولّيه العرش.

لخلوّ القصر، كان لديّ متّسع من الوقت الفراغ الذي كرّسته لتدريب غزالي نَعَم. تمكّن سريعاً من إجادة فنون الجلوس على عقبه ثمّ الوقوف وسواها من العادات غير العمليّة، لكنّه كان بائساً تماماً في أساسيّات الانضباط. مع هذا، كان حيواناً أليفاً مُبهجاً.

كان مجيد يزوّدني بتقرير عن تقدّم أمور الحجّ كلّ يوم لدى مجيئه لأخذ الطعام للملك سعود. ومع أنّه كان انتهازياً مُجدّفاً في مساعيه التجاريّة، كان مع ذلك على غرار معظم السعوديين، مأخوذاً كلّ مأخذ بدِينِه. وكان يشارك العالم مشاعره وتجاربه بلا تحفّظ.

عصر أحد الأيّام، فيما جلسنا في مكتبي ننتظر ريثما ينتهي الطهاة من إعداد عشاء الملك، سألته: "هلّ حججت يوماً في خلال موسم الحجّ؟".

"بالطبع، حججتُ ثلاث مرّات".

"وهل دخلت الكعبة يوماً؟".

"لا، لأنّ قلّة يجوز لها رؤية جمال بيت الله. دخلها مولاي في اليوم الأوّل من هذه السنة. هو من قدّمَ الدرجات الفضّية التي تؤدّي إلى الباب. الداخل مكان مقدّس. قبل مجيء النبي محمّد، كان غير المؤمنين يصلّون عند الكعبة لأوثان آثمة. جاء محمّد وطردهم. لكن لسنا مضطرّين إلى دخول بيت الله لكي نعي وجوده. لدينا الحجر الأسود المقدّس الذي أرسله مع الملاك جبريل إلى إبراهيم. هو متوافر لنا كي نراه ونقبّله. يبكي كثير من الحجّاج ويصرخون ويلقون بأنفسهم على الأرضيّة الرخاميّة مسرورين أنّهم لمسوا الحجر المجيد".

"سمعتُ أنّه على المرء العدو مدار الكعبة عدّة مرّات. هل هذا صحيح؟".

"نعم، إلى حدٍ ما. علينا أداء الطواف حول الكعبة سبعة أشواط، وعلينا فعل ذلك ثلاث مرّات في ثلاثة أيّام مختلفة. قال النبي محمّد إنّه علينا العدو ثلاث مرّات والمشي أربعة كلّ يوم، لكن إذا كان المرء كهلاً، باستطاعه أن يمشي كلّ المرّات، وإذا كان كسيحاً، فله أن يستأجر من يحمله حول الكعبة. ليس الأمر شديد الصعوبة. ثمّة أماكن استراحة قليلة في الفيء في حال فاق التمرين قدرة الإنسان. هناك بئر زمزم أيضاً الذي أظهره جبريل على هاجر أم اسماعيل عندما خشيت أن يموت عطشاً. لكن لا يُفترض بالحجّ أن يكون تجربة سهلة. إنّه الأهمّ في حياة المؤمن، وجعله النبي صعباً لسببين: لكي نتذكّره إلى أبدٍ، وهكذا يجعل إيماننا أجسامنا وعقولنا سليمة. ولكي نحافظ على صحّة سليمة دوماً، جعل النبي التمرين كثيراً. لقد رأيتنا نصلّي خمس مرّات في اليوم، لذا رأيت شدّة التمرين في الانحناء والركوع والانطواء والانتصاب. يجعلنا ذلك أصحّاء في ذكرنا الله".

"لكن ما الهدف من الرداء الأبيض؟".

"هو يُظهر أنّ الجميع سواسية أمام الله، أكانوا أغنياء أو فقراء. كما يُظهر كيف أنّ المؤمن يتخلّى عن كلّ مقتنياته الدنيويّة في تقواه تجاه الله".

"وهل ترتدي النسوة الإحرام فقط عند أدائهنّ الحجّ؟".

"بالطبع. لأنّ النساء والرجال سواسية عند الله. تذكّر أنّ ارتداء نسائنا للحجاب الأسود والعباءة السوداء في العلن، ليس من تعاليم النبي. هو لم يُملِ عليهنّ ذلك. جاءت فكرة ارتداء النساء للحجاب بعد زمن النبي محمّد. قال النبي بارتداء الإحرام فقط عند الحجّ. لكن لا بدّ من ذكر أنّ الإحرام يُسبّب مشكلات بحسب تفكير الزعماء الدينيين - القضاة - لأنّه لا يجوز للرجال والنساء الجماع أو التفكير في أمور تتداخل وتفكيرهم بالله في فترة الحجّ، لكن بالنسبة إلى كثيرين، خاصّة بالنسبة إلينا كسعوديين، تكون هي المرّة الأولى التي نرى فيها نساءنا سافرات وهذا يجعل الدم في أجسامنا يغلي بطريقة آثمة. وعندما يطوف آلاف الحجّاج الكعبة - بعكس اتّجاه عقارب الساعة - تتصادم أجسادٌ كثيرة، وأقدام عارية كثيرة تتلامس. يخشى القضاة أن يكون ذلك أمراً سيّئاً. لذا، يريد القضاة الآن ترتيب أوقات خاصّة لطواف النساء حول الكعبة، لئلا يصطدم الرجال بهنّ. لا أدري إن كان هذا التغيير ضرورياً".

"ماذا يحدث عندما تكملون الأيام الثلاثة في مكّة؟ تأخذون عشرة أيّام للحجّ، أليس كذلك؟".

"لا، ليس تماماً. أحياناً، لا يطول الأمر إلى هذا الحدّ. بعد أيام الطواف الثلاثة في مكّة، نذهب إلى جبل عرفات. هو أيضاً مكان التقاء آدم وحواء بعد خروجهما من الجنّة. أتعلم أنّ قبر حوّاء موجود هنا في جدّة؟ عرفات يقع على بعد نحو ١٩ كيلومتراً شرق مكّة".

قبل مغادرة الحجّاج مكّة، هم يسعون بين هضبتي الصفا والمروة داخل المدينة حيث عَدَت هاجر جيئةً وذهاباً بينهما مذعورة بحثاً عن الماء عندما خالت أنّ ولدها سيموت. ولتخليد ذكرى هاجر، يعدو الحجّاج سبع مرّات بينهما، كما هي فعلت.

"لكن لأكون صادقاً، هم يسيرون ولا يركضون لأنّ مسافة طويلة تفصل بين الهضبتين، ونحنا لسنا على قدر اليأس الذي ألمّ بهاجر".

ثمّ يذهب الحجّاج إلى مشعر مِنى الواقع بين مكّة وعرفات، حيث توقّف محمّد ليريح إبله ليلة هجرته من مكّة إلى المدينة. أصبح الأمر عادة لدى الحجّاج لقضاء الليلة هناك في الخيم كما فعل محمّد ويُسمّى يوم "الصعود إلى مِنى". في اليوم التالي، يتوجّه كلّ الحجّاج إلى عرفات، ويكون اليوم الأهمّ في الحج هو يوم وقفة عرفة. يقع دوماً في اليوم التاسع من شهر ذي الحجّة

ويكون في العادة اليوم الخامس من الحجّ، حيث ألقى فيه الرسول خطبة في حجّة الوداع من على جبل الرحمة، وقال إنّ أفضل الصلوات هي تلك المقامة في هذا اليوم. هم يقفون أمام الله ويُصلّون مردّدين لا إله إلاّ الله!

أتتخيّل ذلك؟ أكثر من نصف مليون بشري من كلّ زوايا العالم يكرّسون أنفسهم لله في الوقفة بعرفة. إنّه منظر مذهل. على مدى البصر، ترى خيماً بيضاء، وعندما تبدأ الشمس بالمغيب، يقف الكلّ أمام الله لتلاوة الصلاة. نعتقد أنّه إذا لم يقف حاجٌّ أمام الله في يوم عرفة، فهو لم يُتمّ الحج فعلاً".

تابع مجيد أنّه عندما تستر الجبال الشمس، يُطلَق مدفع ليُعلن انتهاء يوم عرفة. ثمّ يبدأ الحجّاج جميعاً بالعودة إلى مِنى حيث يتشاركون على مدى ثلاثة أيام في عيد الأضحى للاحتفاء بذكرى قصّة ابراهيم الذي أراد تقديم ابنه ذبيحة لله. بحسب الإسلام، أرسل الله ملاكاً لإبراهيم وقدّم له الملاك كبشاً يقدّمه أضحية بدلاً من ابنه لأنّه أطاع الله.

في طريق العودة إلى مِنى، يتوقّف كلّ حاجّ في مشعر المزدلفة لجمع الحصى (ثلاث وستين تحديداً) بغية رمي الجمر في وجه الشيطان الذي يحاول إبعادهم عن الله. في مِنى ثلاثة جمرات عبارة عن أعمدة حجريّة بيضاويّة، أُقيم كلّ منها في الأماكن التي ظهر بها الشيطان على اسماعيل، ابن ابراهيم، محاولاً إقناعه بالفرار من أبيه وتفادي الذبح. يتذكّر الحجّاج قوّة اسماعيل في مقاومة الشيطان ويرمون سبعة أحجار على كلّ جمرة في الصباح الباكر، في ثلاثة أيام مختلفة لإظهار مقتهم للشيطان. وبتطاير الحجارة من كلّ صوب وكلّ جنب من الأعمدة، ينتقم الشيطان من الحجّاج متى أصابتهم الحجارة. فيما يرمي الحجّاج الحجارة، يصرخون "الله أكبر". قال النبي برمي الحجارة لتذكيرهم بالقوّة التي يتمتّع بها المؤمن في وجه الشيطان مع أنّ الحجارة سلاحهم الوحيد. وكلّ ليلة، تختفي كلّ الحجارة. يُقال إنّ ملاكاً يأتي لأخذها لكنّ مجيد يعتقد أنّه عليه أن يقود شاحنة ضخمة لرفع كلّ تلك الأعداد الهائلة. عند الانتهاء من رمي الجمرات، يُقصّر الحجّاج شعورهم لكي يُظهروا مقاومتهم للشيطان.

شرح لي مجيد أنّعيد الأضحى أهمّ الأعياد الدينيّة الرسميّة، حتّى أنّه يفوق عيد الفطر أهميّة والذي يُحتفل به في نهاية شهر رمضان إشارة إلى انتهاء شهر الصوم.

في عيد الأضحى، يتمّ العيد في خلال الأيام الثلاثة الموافقة لرمي الجمرات. ويحصل في السهل خارج مشعر المِنى عند أسفل جبل ثبير. بالنسبة إلى المؤمنين الذين يؤدّون الحج، يرون في العيد تقديم أضاحٍ. أما المسلمون الذين لا يحجّون، فيستمتعون بالعيد في منازلهم. لكن على الحاجّ أنّ يقدّم ذبيحة حيوانيّة إلى الله، كما قدّم ابراهيم كبش الفداء عندما افتدى الله اسماعيل.

"يعجز كثير من الحجّاج عن جلب حيوان معهم لتقديمه أضحية، لذا عليهم شراء معزاة أو خروف أو إبل، وقد يشتري الحاجّ اثنين أو ثلاثة يضحّي بها لله إن كانت خطاياه كثيرة. ويدفع الرعاة بالحاجّ إلى تسديد ثلاثة أو أربعة أضعاف ثمن الحيوان الأساسي. ليس الأمر روحانياً جداً. قبل ذبح الحيوانات، يوجّهها الحجّاج ناحية مكّة ويتلون صلاة باسم الله الرحمن الرحيم. ثمّ، ينحرون أعناقها. ولكثرة عدد الحجّاج الذين يفعلون ذلك، بعد ثلاثة أيام في الشمس الحارقة تُمسي رائحة الساحة من الدم المسفوك نتنة بما يعجز عنه الوصف. وليس المنظر بهياً، وليسامحني الله، أفكّر أحياناً أنّه من الأفضل أن يقضي كلٌّ العيد في منزله لأنّ الأمر لا يكون مبهجاً كما يجب أن يكون وقت الذبيحة، ولا وقت الصلاة في عرفة. يكثر الذباب المقرف ويكون الوحيد المُحتفي بالذبيحة. على كلّ حاجّ أن يتناول قطعة من لحم الحيوان الذي نحره. في العادة، يُعِدّ المرشد اللحم على نار في الهواء الطلق، لكن أحياناً يرغب الحاجّ القيام بذلك بنفسه. عند الانتهاء، يُعطى باقي اللحم للفقراء الذين يأتون لتحميل الذبائح على ظهورهم وفي شاحنتهم. لكن أعتقد أنّ الذباب يأخذ معظمها".

قبل اليوم الثالث من عيد الأضحى، على الحجّاج العودة إلى المسجد الحرام في مكّة لأداء الطواف مرّة أخرى حول الكعبة. همّ يلمسون الستار الأسود البديع الذي يلفّ بيت الله ويقبّلونه، لأنّه بالنسبة إلى معظمهم تكون المرّة الأخيرة التي يرون بيت الله في الدنيا. هي اللحظة الأعظم في حياة المؤمن لأنّه يكون قد تبع تعاليم النبي ووقف مع الله بعرفة، ومتى مات، يكون قد بلغ المبتغى من حياته مهما كانت بائسة. وله العودة إلى منزله والصلاة إلى الله كي يقبل حجّه كدليل على تقواه.

عندما سألت مجيد عن صلة المدينة بالحجّ، شرح لي أنّ الكثير من الحجّاج يذهبون من مكّة إلى المدينة لزيارة المسجد النبويّ. وُلد محمّد في مكّة، لكنّ أهل المدينة رحّبوا به بعد مغادرته مكّة، وهو مدفون في المدينة. يقع قبره في المسجد النبويّ، ويقول البعض إنّه بُني في الموضع الذي استراح فيه إبله بعد بلوغ المدينة من مكّة سالماً. للقبر قالب من المعدن الثقيل.

حاول بعض الرجال سرقة جثمان النبي عبر حفر خندق تحت الأرض من منزلهم حتى القبر. لكن الزعماء الدينيّين كشفوا أمر الخندق عندما كان على وشك أن يُنجَز، وأُمر بقطع رؤوس الرجال وتدعيم القبر. قبل موت محمّد، قال لصحابه ألاّ يجعلوا من قبره مكان عبادة. لذا، المصلّون الذن يرتادون المسجد، لا يصلّون للنبي. هم يُظهرون احترامهم له عبر استعمال موقع قبره مكاناً لعبادة الله. يمكث الحجّاج في المدينة مدّة ثمانية أيام لتلاوة أربعين صلاةً في المسجد النبويّ. الكثير من الحجّاج الذين يذهبون الى المدينة، يلازموها إلى حين موتهم لكي يُدفنوا قريباً من النبيّ. هم يعلمون أنّهم سيقومون مع محمّد يوم الحساب وسيمشون معه إلى مكّة حيث سيُعينوه على قيام باقي العالم.

قال مجيد: "أعتقد أنّ الكثير من هذه الأمور يبدو غريباً لك. أعتقد أيضاً أنّ ثمة أموراً غريبة في ديانتك. لكنّنا نصلّي جميعاً لإله واحد، ولعلّه سيُقيمنا كلّنا معاً".

في المساء الذي سبق انتهاء الحجّ إلى مكّة، أقام الملك سعود وليمة في مكّة على شرف الزعماء الدينيّين في المدينة المكرّمة. كان علينا أن نؤمّن الطعام طبعاً. وصل مجيد بشاحنته، مغتاظاً من استدعائه فجأة، وقد طمس مواقفه الروحانية تحت إحباطاته. بعد أن هَدِيء، توجّه إلى منصّة التحميل حيث كانت الحاويات في انتظاره. كوّم سبعة منها في الشاحنة وانطلق إلى مكّة. بعد أن غادر، تذكّرتُ أنّ أم منصور التي لم تشارك في الحجّ، قد أرسلت طبقاً من جريش الشوفان المسلوق مع الزبدة المذوّبة أعدّته خصّيصاً للملك سعود. كانت أمّ منصور تُعدّ على الدوام طبقاً خاصاً للملك، فيه من الدهن والنشويات ما كان يقضي على نتائج النظام الغذائي الذي كان يتّبعه. عرفتُ أنّني سأقع في مأزق إن لم أُرسل الجريش لأنّ أمّ منصور كانت تسأل الملك سعود دوماً إن وصله الطبق من صنع يديها. لكن، لم يكن من وسيلة لإرسال الطبق برحيل مجيد.

أخذتُ طبق الجريش، ووضعته على منصّة التحميل إلى جانب حاويات الضغط لكي يأخذه مجيد إلى الملك سعود في مكّة إن قرّر البقاء فيها يوماً إضافياً، وهممت في العودة إلى مكتبي عندما أدركتُ فجأةً أنّ ثمّة خطباً في تنسيق الحاويات التي بقيت على منصّة التحميل. رجعتُ وفي بالي فكرة عمّا سأرى. كنتُ على حقّ. حمّل مجيد الحاويات الخطأ في شاحنته، وكان على وشك الوصول إلى مكّة محمّلاً بشحنة كاملة من الماء لوليمة الملك سعود.

هرعتُ إلى مكتبي في الطابق العلوي لكي أحاول مهاتفة القصر في مكّة. طلبتُ عامل الهاتف قائلاً إنّه عليّ بلوغ مكّة فوراً. قال بنبرة آمرة: "لن تتمكّن يوماً من بلوغ مكّة عبر الهاتف".

"لمَ لا؟ عليّ التحدّث مع أحدٍ، أيٍ يكن، في القصر".

"لأنّ السماء مليئة بالملائكة"، قالها باقتناع جدّي لدرجة أنّني كِدتُ أسمع أناشيدها.

"ملائكة في السماء؟ ما دخل الملائكة باتصالي بمكّة؟"، صرختُ ملتبساً.

"إنّه وقت الحجّ، وفي هذا الوقت على الدوام تملأ الملائكة الجو وتحلّق فوق مكّة. هي تُقلق الأجواء وتعرقل اتّصالاتنا. حتّى إنّها تعيق موجات اللاسلكي. يحصل ذلك كلّ سنة. لن يسعنا الاتّصال بمكّة".

يجوز أن أتفهّم أمر المبعوثين من الله، لكنّ عامل الهاتف كان رواية بذاته. رغم اشتغاله بأمرٍ يبعد كلّ البعد عن التنوير الإلهي، أصرّ على عدم المخاطرة بتجاوز مجموعة من الملائكة؛ لذا، أقفلت الهاتف، وحاولتُ التفكير بمقاربة أخرى. أرسلتُ أحد الطهاة الإيطاليين إلى بوّابة المدخل إلى القصر لكي يأتي بسيارة أُجرة. فيما انتظرتُ عودته، فكّرتُ في بدائل كثيرة، مثل ...الهجرة.

في وسط تداولاتي العقيمة، رنّ الهاتف. كان مجيد، الذي اشتمل نفوذه على ما يبدو على الملائكة: "بربّك سيد أرنولد، أعطيتني الحاويات الخطأ. أنا هنا في قصر مكّة وليس في حوزتي سوى الماء لعشاء مولاي".

"أعرف. أدركتُ وجود حاويات الطعام بعد رحيلك. ونسيتُ أن أعطيك الطبق الذي أعدّته أمّ منصور لجلالته".

"كيف لنا أن نُقيم وليمة الآن يا رئّس؟ سيكون جلالته جاهزاً لتناول الطعام قبل أن نتمكّن من الذهاب إلى جدّة والعودة إلى هنا".

قلتُ: "طلبتُ سيارة أجرة. كنتُ سأستأجر السائق لأخذ الطعام إلى مكّة لأنني لا أستطيع دخولها. لكن، بدلاً من ذلك، انطلق أنت إلى جدّة بشاحنتك، وسوف أحمّل الطعّام في السيّارة، وأرافق السائق لموافاتك. ثمّ، نستطع تحميلها في الشاحنة ولا بدّ أن تتمكّن من بلوغ مكّة بحلول الوقت الذي ستبدأ فيه الوليمة".

"جيّد، لكن آمل ألاّ ترتكب هذا الخطأ من جديد، يا رئّس"، قالها محذّراً، وموثّقاً القضية في حال نشأ بعض اللوم ليُلقى على أحدٍ لاحقاً.

دخل الطاهي وسائق الأجرة المكتب وهما يتجادلان بصخب.

عندما شرحتُ المشكلة للسائق، هزّ رأسه قائلاً: "لا أستطع أخذك على طريق مكّة. أنت غير مؤمن".

"لا أريدك أن تصطحبني إلى داخل مكّة. سنصل إلى حدود اللافتة فقط، وإن هدرنا مزيداً من الوقت، لن نبلغ تلك حتّى".

"لا أستطيع أخذك لأنّني أصطحب راكبين آخرين إلى مكّة".

أكّد الطاهي ذلك شارحاً أنّه لم يجد سوى قلّة من سيارات الأجرة، لأنّ معظمها كان في مكّة بانتظار إعادة الحجّاج. وبمساعدة الحارس عند بوّابة القصر، تمكّن من مصادرة السيارة الأولى التي ظهرت في الشارع، رغم وجود راكبين فيها.

قلتُ ونبرة الذعر العالية تخرج من حلقي: "إسمع! علينا أن نوصِل الطعام. أوَ ستوصله إن رضي الراكبان بمشاركة السيّارة؟".

"نعم، إن دفعت".

"سأدفع عن نفسي وعنهما. يُمكن لهما المتابعة إلى مكّة بالذهاب مع مجيد في الشاحنة، وستُرجعني أنتَ إلى هنا".

توجّهنا إلى سيّارة الأجرة في الخارج التي جلس فيها حاجّان نيجيريّان متقاعسان، وعلى وجههما حيرة تنمّ عن الخوف. حدّقا مرعوبين إلى إيماءاتنا المُبالغة إذ لم ينطقا بأيٍ من الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية أو الأسبانية أو الإنجليزيّة أو العربية. شعرتُ بالأسى تجاههما، لكن من أجل النفعيّة وحفظ الذات، أكّدتُ للسائق أنّ عدم ردّهما علينا نفياً، يعني بشكل واضح موافقتهما. لذا، حمّلنا حاويةً في المقعد الأمامي، وأُخريين في الصندوق، وربطنا اثنتين على السطح، وواحدة على حضن الحاجّين. ركبتُ المقعد الخلفي إلى جانب ضيفيَّ، ووضعتُ الحاوية الأخيرة في حضني، وترنّح في أعلاها طبق أمّ منصور.

كان الحاجّان النيجيريّان لا يزالان في ثياب قَبليّة صارخة الألوان، بدلاً من الإحرام. تدلّى من عنق كلٍ منهما عقودٌ مثقلة بالخرز الخشبي. وضعا مقتنياتهما المادّية بين أقدامهما على الأرض، وقد اشتملت على عددٍ من قدور من الطعام البالية، وسلّتين صغيرتين من المؤن، وأربع دجاجات هزيلة منقنقة. فيما أسرعنا على الدرب إلى مكّة، حاولتُ التحادث مع الراكبين عبر تبادل الابتسامات، لكنّهما كانا ينظران إلى هلاكهما بشكل مستقيم معظم الوقت، من فوق الوليمة على حضنهما.

وافينا مجيد بعد اجتيازنا نحو ٣٢ كيلومتراً شاقاً من جدّة. بعد أن نقلنا حاويات الطعام، أشّرنا للنيّجيريَين بالصعود مع مجيد. جمعا ممتلكاتهما ومشيا بإذعان إلى الشاحنة، مقتنعَين على ما يبدو بأنّه تمّ للتّو الإتجار بهما عبدَين. فيما انطلقوا إلى مكّة، فكّرت في أنّ الله سرعان ما سيسمع بلا شكّ أنباءً غير متوقّعة على درب محمّد.

في وقتٍ باكر من صباح اليوم التالي، اتّصل مجيد ثانيةً من مكّة: "لدّي أخبارٌ سارّة يا رئّس! سيُقيم الزعماء الدينيّون وليمة على شرف جلالته الليلة، لذا لن يكون عليك العمل اليوم".

"بعد ما حدث أمس، أخشى أخذ يوم عطلة. هل بدأ النيجيريّان حجّهما؟".

"نعم، لكن لا بُدّ من أنّك أخفتهما جداً يا ريّس. عندما انطلقنا إلى مكّة، توسّلاني أن آخذ دجاجاتهما وأخلي سبيلهما".

"وأنتَ لم تأخذ الدجاجات، أليس كذلك؟".

"بالطبع لا، إنّه وقت الحجّ وأنا لا أحبّ الدجاج على أيّ حال".

"ماذا عن الوليمة؟ هل سار كلّ شيء على ما يرام؟".

"نعم، لم أُخبر جلالته أنّك أعطيتني الحاويات الخطأ، لذا لم يعلم بشأن الصعوبة التي واجهنا".

"إسمع يا مجيد، متى ستتحمّل بعض المسؤوليّة؟ أنتَ تعلم أنّ لا أحد أعطاك الحاويات الخطأ. ببساطة، أخذتَها بنفسك من على المنصّة. عليك أن تكفّ عن لوم غيرك على أخطائك".

"أنتَ مُحقّ يا ريّس. لكن من الشاقّ أن يكون المرء على خطأ. على أيّ حال، كانت الوليمة جيّدة"، وأضاف بشيء من العفويّة: "لقد سُرّ جلالته كثيراً بطبق أمّ منصور".

شعرتُ منزعجاً، بطريقةٍ من الطرق، بأنّني ألقيتُ للتو على نفسي، عِظة تأديبيّة.

عاد الملك سعود إلى جدّة في الصباح التالي، وأعلن سكرتيره عن وجوب إقامة وليمة ذاك المساء لكلّ الوجهاء الأجانب الذين شاركوا في الحجّ. بلغت لائحة المدعوّين خمسمئة شخصٍ. باستثناء الطهاة الإيطاليين، كان طاقم عمل المطبخ كلّه موجود عملياً في مكّة، ويتّجه إلى المدينة. فاستنجدتُ بمجيد كغريقٍ يتمسّك بقشّة. تبخّر مجيد بسحر ساحر، وعاد قبل الظهر برفقة باقة من الزبّالين، ومتسكّعين بدوام جزئي، ومرشدي حجّاج عاطلين عن العمل، وثلاثة من أبنائه. جلسوا على الأرض يقشّرون البطاطس أو وقفوا عند المجالي يغسلون الصحون، فيما عمل الطهاة على إزالة الجليد عن جملة من اللحوم، وإعداد الطعام للوليمة.

ذهب مجيد إلى المدينة من جديد، وهذه المرّة في إغارة على فندقين كان فيهما مطعم. كان الفندقان يعجّان بالحجّاج العائدين من مكّة. وعبر الإفراط في تناول القهوة والشاي وإظهار الحذاقة السياسيّة، تمكّن من جمع خمسين رجلاً صادف أن حملوا مرّة أو اثنتين الصحون إلى طاولة سفرة ومنها. بما أنّ الوليمة كانت على وشك أن تبدأ، لم أحظَ بفرصة سؤال مجيد أيّ جزء من غرفة التخزين في القصر اتّفق مع مديرَي الفندقين على مقايضته. وجّهتُ طاقم النُدُل المرتبك والمغلوب على أمره توجيهاً سريعاً، وعملنا في أثناء الوليمة كمثل عُرْجٍ، مُعوّضين بالابتكار عمّا افتقرنا إليه من تنظيم.

مع انتهاء مناسك الحجّ، استعادت جدّة حلّتها كمركزٍ مُزدحم للاجئين، وتبدّدت حماسة ارتقاب الحجّاج للحجّ. وَحدَهُ البريق الخافت للسلام الروحاني أضاء يأس وجوههم فيما استعدّوا للعودة المرهقة إلى بيوتهم. انحدر الكثير منهم إلى منزلة التسوّل بغية جمع المال للعودة إلى باكستان أو أفغانستان أو شبه جزيرة ملايو أو إندونيسيا أو أينما وقع منزلهم، بعد أن اضطرّوا إلى بيع كلّ ممتلكاتهم لتسديد مصاريف الحجّ.

ولافتقار جدّة إلى مرافق السفر المتكاملة والتي انحصرت بعددٍ قليل من المراكب، وطائرة عَرَضيّة، من دون سكّة حديدية ومن دون طريق سريع باستثناء تلك إلى مكّة، عجزت هذه المدينة عن تلبية حاجات الحجّاج الآنيّة الذين كانوا على أهبّة المغادرة. لكن، اختفت تدريجاً آثار الشدّة من الحجّ، وغلت المدينة مع اشتداد شمس الصيف إلى أوجّها.

في القصر، استراح الملك سعود بعد أنشطته الدينيّة الصارمة وكانت الحياة في رخاء فيما ارتقبنا الانتقال القريب إلى جبال الطائف شرق مكّة، حيث يصطاف الملك كلّ سنة بعيداً عن قيظ الرياض وجدّة. أصبح غزالي الأليف المخلوق المفضّل في القصر. أخذ الأمراء الصغار يلاحقونه في أراضي القصر، وكان الملك سعود، في أثناء تنزّهه المسائي عبر حدائق القصر، يتوقّف لتدليل الحيوان الظريف. كان نَعَم يتسلّل أحياناً إلى داخل القصر، وقفز ذات مرّة إلى غرفة السفرة في وسط غداء رسمي ودار حول الطاولة قبل أن يغادر الغرفة. أدّى الحادث بالملك سعود إلى استدعائي إلى جانبه قائلاً إنّه إن كان على نَعَم أن يدخل قاعة الولائم، فالأجدر أن يكون على المائدة وليس تحت كرسي الملك.

بغية إعداد القصر في الطائف لوصول الملك سعود. سافرتُ جواً مع جزء من طاقم عمل المطبخ وتركتُ نَعَم مع مجيد. عُدت إلى جدّة قبل يوم على اليوم المحدّد لمغادرة الملك إلى الطائف، لكي أرتّب مسألة شحن الطعام من مخزون القصر في جدّة. عندما بلغتُ القصر، بحثتُ عن نَعَم إذ كنتُ أنوي اصطحابه معي إلى الطائف. بما أنّه لم يكن في باحة القصر، افترضتُ أنّ مجيد أخذه معه إلى منزله. توجّهتُ إلى مكتبي لكي أحرّر طلبات المخزون، ولم تفُت بضع دقائق حتّى دخل مجيد الثرثار مكتبي صامتاً على غير عادته. وقف في وسط الباب من دون التفوّه بكلمة إلى أن رفعتُ بصري إليه وحيّيته.

"ريّس، الذنبُ ذنبي، لكن كان عليّ أن أوظّف عمّالاً إضافيين للمطبخ بعدما أخذتَ الباقين إلى الطائف".

"أعرف أنّك فعلت يا مجيد. لا ذنب في ذلك. فقد طلبتُ إليك ذلك".

"إذاً أنتَ لست غاضباً؟".

"بالطبع لا. لمَ أغضب؟ وظّفتَ عمّالاً من الشارع وإن كانوا قد كسروا بضعة صحون، فلن تكون المرّة الأولى طبعاً".

"لكن، هم لم يكسروا الصحون يا ريّس".

"ماذا فعلوا إذاً؟".

"أكلوا نَعَم يا ريّس".

الفصل ٧

موسمٌ في الفَيء

الطائفُ قريةٌ صغيرةٌ لها مطار، تقع على هضبةٍ في الجبال فوق مكّة المكرمة وتبعد عنها نحو ٨٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي. من أعالي الجبال، تنبع جداول تُبقي على اخضرار الهضبة المتضاربة بما يُنعش الروح مع منظر الصحراء القاحلة. فيها النهار دافىء والليل منعش. تغييرٌ عذب عن حرّ الرياض وجدّة الحارق والمتواصل. على امتداد الهضبة، تمتدّ سلسلة من بقايا أبراج المراقبة البهيّة، خلّفها نظام التواصل الذي شُيّد على عهد الأتراك في خلال سيطرتهم على شبه الجزيرة العربية. باتت الأبراج العظيمة حطاماً، لكن لا تزال حجارتها المتفرّقة المتكوّمة تؤمّن ملجأً للمزارعين وعائلاتهم.

طالما بذلنا جهوداً جبّارة لتشغيل القصر في الطائف قبل وصول الملك، لكن طالما كانت الاحتمالات تعجيزيّة. بما أنّ القصر كان يؤهَل لشهرين أو ثلاثة كلّ سنة، تكون مرافقه بمعظمها تالفة لدى وصولنا. كان من المفترض تصليحها في غيابنا، لكنّ عاملي التصليح المتوافرين كانوا أولئك المُلحقين بطاقم عمل القصر، ويغادرون كلّ سنة مع انتهاء الموسم. لباقي أشهر السنة، يُترك القصر لأهواء البدو في المنطقة، الذين استعملوا مغاطس الاستحمام دورات مياه، وأوقدوا النار في غرف النوم، واستعملوا المخازن إسطبلات.

كلّ هذا كان سيئاً بما يكفي، لكن ليس بقدر عدم وجود مطبخ في قصر الطائف. كانت الوجبات تُعدّ في كوخٍ صغير جعل من الخدمة اللائقة أمراً مستحيلاً. عام ١٩٥٨، كانت قصر الحوية في الطائف جاهزاً لسكن الملك. وكان مثالاً يُحتذى به في التصميم المعماري الباهر، وشكّل عنصراً فريداً تميّز عن محيطه. لكن، لم يتضمّن مطبخاً. وكان لا يزال علينا الطبخ في الكوخ، حيث التجهيزات كانت بدائية ومعطوبة. كانت شبكة الأسلاك الكهربائيّة المكشوفة عبر الأرضيّة العنصر الأسوأ والأخطر للطبخ، وكانت النتيجة طعاماً سيىء المذاق وبارداً كالحجر لدى بلوغه المائدة في القصر.

لكنّ الشكاوى الوحيدة التي بلغتني من العائلة المالكة، لم تطل الطعام، بل أواني المائدة. جلبتُ معي إلى القصر مجموعة واحدة من الأواني الفضّية لخدمة الملك. للآخرين، استعملنا أوانٍ عادية المنظر، لكن متينة من الحديد المقاوم للصدأ، لعلمي في خلال موسمي الأول في الطائف أنّ الفضّة كانت تختفي عن مائدة القصر بسرعة خاطفة. بعد أيام قليلة على استقرارنا في الطائف، بُعيد الحجّ عام ١٩٥٩، أحد أصحاب السموّ الملكيمن أبناء الملك، وهو ذاته الذي أبدى قلقه تجاه ملابسي من قبل، جاءني ذات غداء رسمي حاملاً شوكة أسنانها مصوّبة في كلّ الاتّجاهات، قال: "هذه الآنية الفضّية عار على القصر الملكي. عليك برميها واستبدالها".

أبلغتُ الشيخ فهد بشكوى الأمير وأكّد لي أنّه سيتمّ شراء آنية فضّية جديدة لتقديم الطعام. بعد أيام قليلة، استدعاني إلى مكتبه. فتح إحدى العلب من بين علب صغيرة كثيرة، ورفع محتواها سائلاً: "ما رأيك بهذه؟". لمع بين يديه طقم سفرة فردي من الذهب بعيار ٢٤ قيراطاً.

"أعتقدُ أنّه من الأسلم أن أقول إنّه أفضل من الذي نستعمله. لكن أظنّ أنّه ليس ملائماً تماماً للطائف. نستطيع استعماله أثناء ولائم العشاء الرسميّة لقادة الدول في الناصريّة. من الأفضل استعمال شيء أقلّ ثمناً هنا لأنّ القطع تضيع على أي حال".

عصر ذاك اليوم، أوصل طقم سفرة كامل من الفضّة إلى غرفة السفرة. لم أرَ أثراً لطقم الذهب بعدها.

تمتّعت المهاجع السكنيّة المخصّصة لطاقم عمل المطبخ في الطائف كلّ وسائل الراحة التي قد تؤمّنها حفرة في حائط من إسمنت. كانت عبارة عن صفوف من وحدات صغيرة كما في الثكنات. والنوافذ الوحيدة فتحات عند أعلى الجدار لا حاجب شبكياً لها، وعبر تلك البوّابات انسلّت أكثر حشرات وهوام السعوديّة تحدياً من خنافس وبقّ وخفافيش وذباب وبعوض وسحالٍ جعلت من كلّ ليلة تجربة مشوّقة من العيش المُرعِب. اندسّت العقارب بين الشقوق في الجدران والأرضيّات نهاراً، وفي الأحذية ليلاً.

فُرشت كلّ وحدة بالأساس بسريرَين وطاولة مكتب. أوجب علينا طلب فرش جديدة كلّ سنة إذ كانت فرش الموسم السابق تشكّل جزءاً من قافلة البدو في أشهر الشتاء. وبانتظار وصول الفرش الجديدة، نام طاقم العمل على الشريط الفولاذي الملفوف للسرير أو على الأرض. أما الطاولات المكتبيّة، فباتت من الماضي بعد ان أوقدت نيران البدو شتاءً. وكانت مفاصل الأبواب المعوجّة عند مدخل كلّ غرفة دليلاً على قدرة البدو على إشعال النار من خشب الأبواب. جرت المياه في الحمّامات المشتركة صعوداً بدلاً من النزول. ولهذا، غالباً ما أبدى الطهاة الإيطاليون في الطائف الحنين إلى مخيّمات الاعتقال في أسمرة.

تضمّنت شقّتي غرفة نوم ومكتب وحمّام، جميعها في حالة عطب. كُنت أبقي النور مضاءً في الليل عندما أنام. ومع أنّ مصباح اللمبة الوهّاج فوق سريري استقطب جمهوراً طنّاناً، فقد ساعدني على أن أتعرّف فوراً أيّ دخيل أو حيوان شبيه بالإنسان أو زواحف سامّة من عديدات الأرجل، وبالتالي، اتّخاذ الخطوة المناسبة والتي كانت في العادة لا تعدو كونها زعيقاً قوياً. خِلتُ بكلّ حماقة أنّ الضوء يُبعد الحيوانات الليليّة المتنقّلة لكن سرعان ما تبدّد هذا الوهم. ذات ليلة، استيقظتُ على إحساسٍ دافىء رطبٍ على وجنتي. تجمّدت شفتي العُليا من الذعر، لا الشجاعة، فيما أمَلْ تُبؤبؤ عينيّ حتى أقصى حدّ لكي أتمكّن من رؤية المُعتدي. سحبتُ يدي ببطء من تحت غطاء السرير، وقبضت على الكتلة الرطبة بين أصابعي وانتفضت. قذفتُ بفريستي إلى الأرضية ونهضتُ، وإذا بزعيقٍ غريب يعلو حتى السقف. راح خفّاشان يتخبّطان في أرجاء الغرفة وينكّلان بي بضجيج مزعج، وقد زادا رُعبي القديم من "بيلا لوغوسي"، ممثّل دور دراكولا التاريخي. ألقيتُ بنظرة على الأرض فيما انزلقت يدي آلياً إلى عنقي، ورأيتُ ما قذفتُ عن وجنتي. كان كيساً لزجاً شبيهاً بشبكة العنكبوت. عندما تفحّصته، وجدتُ خفّاشين صغيرين بداخله أوقعه الأبوان سهواً بعد الطيران في الغرفة. قذفتُ بالكيس بوساطة عصا كُنت أبقيها إلى جانب سريري، ودفعتُ به عبر الباب وطاردتُ الخفّاشين الأبوين اللذين خرجا باضطراب عبر النافذة على أثر الضوء. في اليوم التالي، ثبّتتُ ألواحاً خشبيّة بمسامير على النافذة، ساداً بكلّ أسف مصدر التهوئة الوحيد في الغرفة.

رغم الإزعاجات، أمّنت لنا الطائف أوقاتاً من السلوى الممتعة. كُنت أمشي يومياً عبر البساتين وكروم العنب، التي وفّرت جزءاً من الفواكه الطازجة للقصر والسوق المحلي. وكنتُ أستكشف آثار الأبراج.

أوحى المحيط لأفراد العائلة المالكة بالذهاب في نزهات، وكانت سيدات الحريم، في تجمّعات منفصلة ولكن متساوية، يخرجن برفقة الملك سعود وحاشيته للاستمتاع برحلات قصيرة منتظمة. قدّمنا خدمة النزهات في حدائق القصر. وكذلك، في البساتين وكروم العنب والجبال. كانت شاحنة تُحمّل البسط العجميّة التي تُفرش على الأرض مسبقاً بالإضافة إلى المقاعد والكراسي. كانت كلّ مجموعة تُرشَد إلى خان قافلتها للتسكّع في فَيء مُترف تحت السماء الزرقاء الصافية وانتظار الشاحنات المحمّلة بالطعام.

استقبل الملك سعود ضيفاً غير عربي ذاك الموسم، جعل من إقامتي في الطائف أكثر تشويقاً من قبل. كان الراحل "جون فيلبي". ولعلّ فيلبي شكّل السلطة العالميّة الأقدم على المملكة العربيّة السعوديّة.

كان فيلبي مسؤولاً عن البعثة البريطانيّة السياسيّة إلى وسط السعوديّة في عامَي ١٩١٧ و١٩١٨، وأصبح لاحقاً المدير العام المقيم لشركة الشرقيّة المحدودة في جِدّة. ثمّ، اهتدى إلى الإسلام والتحق بخدمة الملك عبد العزيز، والد الملك سعود. كان فيلبي قد أحضر زوجته البريطانية وابنه - اللذين أسلما أيضاً - إلى المملكة وعاشوا في مكّة. وباتّخاذ مكّة قاعدة له، انطلق فيلبي في حملات استكشافيّة في قوافل عبر شبه الجزيرة. كانت أشهرها الرحلة إلى أكثر الأماكن قحلاً وغدراً، إلى الربع الخالي في جنوب السعوديّة.

وضع فيلبي عدداً من الكتب حول تجاربه، أحدها سيرة ذاتية عن الملك عبد العزيز الذي ربطته به صداقة حميمة. كان كثيرٌ من مستشاري الملك يتلظّون حسداً من فيلبي وحاولوا تقويض علاقتهما. حتّى أنّهم أشاعوا أنّ البريطاني تحوّل إلى الإسلام لأهداف ربحيّة شخصيّة. عندما صدرت السيرة الذاتيّة التي كتبها فيلبي عن الملك عبد العزيز، استعملوا محتوى الكتاب لإقناع عبد العزيز بأنّ فيلبي كان مُعادياً له وللمملكة إذ تضمّن الكتاب انتقاداً واضحاً للالتباسات التي نشأت من اكتشاف النفط والثروة المفاجِئة التي أغدق بها على المملكة.

بالنتيجة، طُرد فيلبي من العربيّة السعوديّة. عاش مع عائلته في لندن لفترة وجيزة، ثمّ استقرّ في بيروت، حيث توفّيت زوجته.

عندما تولّى الملك سعود العرش بعد وفاة والده في نوفمبر ١٩٥٣، دعا فيلبي إلى العودة كتقدير متأخّر للعمل البارع الذي قام به في سبيل السعوديّة. عاد فيلبي، واتّخذ له بعد فترة زوجة سعودية حملت لها ولدين. (مكث ابنه الأول في بيروت، حيث عمل ككاتب حرّ). عاش فيلبي وعائلته في كوخ حَضَري قرب الرياض، واستأنف استكشافه للبلاد وشعبها.

نادراً ما زار القصر في الرياض، لكنّه غالباً ما زار الملك سعود في أثناء الحجّ إلى مكّة - بما أنّه كان قد رافق الملك عبد العزيز إليها ثماني مرّات. كان فيلبي مسؤولاً إلى حدّ كبير عن التدابير التّي اتّخذها الملك سعود لتسهيل الحجّ. مع أنّي رأيتُ فيلبي بضع مرّات، كانت أحاديثي معه من أكثر تجاربي سروراً في خلال أعوام خدمتي الخمس لدى الملك سعود. كان من بين الرجال ألطفهم، ومن المتكلّمين أعذبهم، وكان حجاب السمع له يرتفع لشدّة صِدقه وحِكمته، حتّى إن أبصرته بلباسه العربي وسحنته المسمرة المتجعّدة، لخلته زعيماً سعودياً.

عام ١٩٥٩، دعا الملك سعود فيلبي إلى الطائف. بعد ظهر أحد الأيّام، فيما كان الملك سعود وضيوفه ينتظرون أن يُفرش عفش النزهة على السجّاد، شدّ إنشادٌ رنّان بعيد الانتباه نحو الأفق. كان خيّالٌ على فرسه، يكاد لا يُرى عند النجد، يقترب عدواً وصدى إنشاده يُدوّي في أعالي الهضاب. مع دُنو الزائر، تقدّم حرس الملك لاعتراض سبيله، غير أنّه اخترق صفّهم بفرسه الأبيض المهيب قبل أن يتمكّنوا من صدّه، متوقّفاً على بُعد أمتار قليلة من الملك.

استوى الخيّال منتصباً على فرسه. كان رجلاً مُسناً نحيل الظلّ، ببشرة مُسمرّة أبرزها بوقار شعره ولحيته الشائبين. صاح العجوز بصوتٍ هاتف، وقد رفع ذراعيه ولوّح بسيفٍ معقوفٍ بيده اليمنى: "أبغى رؤية مولاي. أبغى رؤية وجهه الجليل ولمس جبينه. جئتُ سعود لأقبّل قدميه نيابةً عن قبيلتي".

نهض الملك سعود من على كرسيه ومشى ببطء نحو العجوز رافعاً يده لإيقاف الحرس المرتبكين الذين كانوا يُطبقون على الزائر.

"أيا صاحب الجلالة، أيا خادم حَرَمي الله ورسوله، جئتُ أحييكم بإسم قومي!".

قال الملك: "انزل عن فرسك فأنت مرحّب بك".

نزل الرجل المُسنّ انسياباً عن فرسه وغرس سيفه واقفاً في الرمل. هرع إلى الملك، ركع، وانحنى لتقبيل قدميه. قال الملك سعود بصبر: "قف يا صديقي قف".

انتصب البدوي وأخذ يد الملك اليمنى وقبّل ظاهرها. ثمّ، سحب ورقة مهترئة من حزامه وناولها للملك سعود. قرأ سكرتير الملك الورقة جهاراً للملك حسير البصر. كانت دعوة ممهورة بختم زعيم قبيلة العجوز يسأل فيها الملك سعود زيارتهم.

قالله الملك مؤكّداً: "سوف نزور مخيّمكم وقومكم في الغد". ثمّ، دعا الملك الرجل ليحلّ ضيفاً عليه لتناول الغداء. جلس الرجل على السجّادة إلى جانب حاكمه، لكنّه كان مذهولاً لدرجة أنّه لم يأكل، بل راح يحدّق إلى الملك بإعجاب.

عند انتهاء الوجبة، أخذ الرجل المُسنّ الملك سعود بيده وقاده نحو فرسه. على الملك أن يقبل الفرس علامةً على محبّة القبيلة لحاكمها. تفحّص الملك سعود الفرس- وهو عربي صغير إلى حدّ ما، مرقّط، وعلى رأسه وعنقه رقشٌ بنّي فاتح - وأثنى عليه، وشكر البدوي على لطفه. ثمّ، نادى الملك على سكرتيره وأمره بأن يُحضر صرّة من النقود من عند جوهر. عندما جاءته الصرّة، أعطاها الملك إلى العجوز وطلب إليه أن يوزّع النقود - نحو ٥٠ ألف ريال- على زعماء القبيلة. شكر البدوي مجدّداً على الهدية الفرس وأمر حارسين من حرسه باصطحاب العجوز إلى مخيّمه في إحدى سيّارات الليموزين الملكيّة والمساعدة في الإعداد لزيارة الملك للقبيلة. قبّل العجوز يد الملك مرّة أخرى قبل ركوبه السيارة ورحل.

فيما شاهدت السيارة المنطلقة، سمعتُ صوت فيلبي من الخلف. "نصرٌ جديد لجلالته". حملت نبرة صوته بعض الاستنكار. استدرتُ نحوه وأشّر عليّ بالجلوس إلى جانبه. تابَع: "كان مشهداً مؤثراً، أليس كذلك؟ خيرُ مثال على براءة سعود، ولكن أيضاً على حِكمته الاستثنائيّة الفاعلة. في الغد يزور مخيّماً آخر، ويوزّع مزيداً من المال لسدّ حاجات القبيلة، وسيحصل على الدعم المستمرّ من مجموعة أخرى من أبنائه المحبّين".

سألتُ: "ألا توافق على نُهج الملك؟".

"هوسيه، استخلصتُ منذ سنين كثيرة أنّ موافقتي أو عدم موافقتي على النحو الذي ينحوه العالم لا أهمّية له. ومُذاك، حاولتُ أن أحصر جهودي في تسجيل ما أرى وحسب، وبأكبر قدر ممكن من الموضوعيّة. إن طُلِبَ رأيي، يعرف طالبوه أين يجدوه. فموافقتي على نُهُج سعود لا تهمّ. المهمّ أنّ نُهُجه ونُهُج والده قبله أبقت على القبائل الكثيرة في بلاده متصالحة ووفيّة لآل سعود على مدى أكثر من ثلاثة عقود. لم يقتدر أيّ حاكم قبلهما على ذلك. أفترض أنّ أبناء الغرب ينظرون إلى ممارسات مماثلة على أنّها همجيّة وارتزاقيّة. لكن أهي مختلفة كثيراً عن برنامج المعونة الخارجيّة التي تتبعها بلادك؟ على الأرجح أنّها أكثر فاعليّة حتّى. ستُقاتل قبائل آل سعود في سبيله بلا شكّ، لكن أشكّ أن تعمد البلدان التي تساعدها حكومتك إلى القتال في سبيل الولايات المتّحدة يوماً".

أردف أنّ احترامَه عظيمٌ للملك سعود، وهو على قدر الاحترام الذي كنّه لوالده من قبله. قال إنّ كليهما يتمتّعان بخصال الرجل البسيط. "من الصحيح طبعاً أنّ الثروة المُفاجِئة قد أدّت إلى الإسراف الفائض، لكن لم يطلب أيٌّ من الرجلين من أبناء الغرب القدوم إلى بلادهما وإيجاد النفط. وعندما وجد أبناء الغرب النفط، لم يُحاولوا إعلام عبدالعزيز بكيفيّة إدارة ثروة بلاده. ربما كان عليهم ذلك. كان والد سعود ملِكاً لسنين على كومة من الرمال المدقعة فقراً. واقتصرت حكمته على أساليب القتال الصحراوي. وبحكمته استطاع لمّ شمل قبائل بلاده. عندما اغتنى، احتاج إلى نوعٍ جديد من الحكمة، لكن للأسف لم يأت بمستشارين أمكن لهم أن يساعدوه. بدلاً من ذلك، كانوا مجرّد رجال ادّعوا صداقته لكي يغتنوا. لذا، لا أتفاجأ من إنفاق السعوديّة لثروتها بغير حِكمة في الغالب. يُبدي أمريكيّون كثيرون شعورهم بالصدمة لدى سماعهم أنّ قصراً جديداً يُبنى لسعود في حين أنّ المدارس والمستشفيات والطرقات قليلة. أتساءل ما إذا كان الشعور ذاته ينتابهم عندما تقوم حكومتك بصرف ملايين الدولارات على بناء مطار جديد في الظهران لشعبٍ حاجاته مصبوبة في الأباعير والدواب. عندما يحصل الإنسان على النصيحة السيّئة، والقدوة السيّئة، لا تأتي قراراته إلاّ سيّئة".

"تبدو وكأنّك تشعر بأنّ اكتشاف النفط كان أمراً سيّئاً للبلاد".

"جيد أم سيء؟ هذا سؤال أكاديمي لأنّ النفط سبق أن اكتُشف. نتائج الاكتشاف هي ما يهمّ الآن. وحتى الآن، يبدو أنّها سيّئة".

"كيف؟".

"يجري تغيُّر هائل من دون التفكير ملياً بعواقبه. كوني من الهواة في دراسة التاريخ، لا يقتصر اهتمامي حصراً على أمس أو اليوم؛ أنا أهتمّ بأمس وباليوم وكيف أنّهما سيؤثّران على المستقبل. أمس، كانت لهذا البلد ثقافةٌ فريدة، رجعيّة ربما أو متأخّرة أو مهما يكن المصطلح المُستعمل في معاجم القرن العشرين، لكنّها كانت فريدة، وفاتنة في نظري. عندما جئتُ إلى هنا منذ سنين بعيدة، تأثّرت حتّى الصميم ببساطة العيش واكتفاء الشعب، رغم فقرهم. وجدتُ ما أدعوه "سلام الإسلام". أن أسير في خلاء الرمل والنجوم، أن أتعرّف البدوي البسيط المتفاني تجاه وجه الله، أن أبتعد عن التعاسة وهمجيّة العالم الذي عرفت - بالنسبة إليّ كان هذا فرح الاستمتاع بالحياة بطريقة لم أعهدها من قبل؛ لذا جئتُ إلى هنا للعيش مع زوجتي، وابني، وغليوني، وسلامي. اليوم، البلاد ثريّة وأمّها آلاف الناس من العالم الذي خلّفته ورائي. وهؤلاء يُحدثون التغيير، ربّما بقصدٍ وربما بغير قصد. يأتون بملابسهم الغربيّة، وبعد فترة، سيخجل السعوديّون في المنطقة الشرقيّة من ارتداء أثوابهم من دون أن يفهموا السبب. هؤلاء الناس يُوجِدون مئات الوظائف في قطاع النفط، وقريباً لن يرغب أيُّ سعودي بالعمل في مزارع الواحات لأنّ العمل لدى الشركة أسهل. وستتعفّن أشجار النخيل، وتجفّ الحقول من الدفق الآسن من مياه الآبار المتروكة. يجلب أبناء الغرب آلات صناعيّة ضخمة، وسرعان ما سيهدم السعوديّون مدنهم القديمة ويبنون مكانها مباني كبيرة جديدة. لقد ذهبتَ إلى الهفوف ورأيت ما يجري هناك. يُحتمل أنّها المدينة المأهولة الأقدم في العالم وكانت في الأمس تماماً كعهدها منذ آلاف السنين. كان صائغ الفضّة لا يزال يُصلح الخناجر يدوياً في متجره من الطين، وكان حدّاد النحاس لا يزال يطرق معادنه ليصنع منها دلاء القهوة، كان الفاخوريّ لا يزال يُشكّل جرار الماء يدوياً على دولابه. اليوم، عمّال الهدم والجرّافات يُدمّرون قلب الهفوف، وستتحوّل إلى واحدة من المدن الحديثة في الشرق الأوسط، فيما يُمسي الحرفيّون بلا عمل أو يستوردون منتجات جاهزة من اليابان وألمانيا والولايات المتحدة لبيعها في متاجرهم. لكن ماذا عن الغد؟

في الغد، قد يرحل الأمريكيّون؛ وقد لا يعود النفط حاجة. ستسقط الوظائف السهلة. ثمّ، سيحتاج السعوديّون إلى العالم الحديث، لكنّه لن يحتاج إليهم. ولن يبقى لديه ثقافة الماضي لتعينه".

سألتُ: "إذًا، أتعتقد أنّه كان على البلاد أن تبقى كما كانت قبل اكتشاف النفط؟".

"لا يا هوسيه. أنا لستُ ضدّ التقدّم عندما يجلب فعلاً محاسن على البلاد وشعبها. لكن هل يكون الأمر تحسيناً عندما يُصبح الشعب جشعاً ومراوغاً وخدّاعاً؟ أنت على علم بالانتهازيين الذين يحيطون بسعود. وفسادهم مُعدٍ. لقد رأيت المباني الرائعة التي تُشيّد في الرياض للوزارات الحكومية - كلّ وزارة تنافس الأخرى على عظمة مكاتبها ووسعها. وسيكون الكثير منها، بعد إنجازها هائل الوِسع - مئات المكاتب غير الضروريّة. أين التقدّم في هذا؟ الهدر أمرٌ مروّع لهذه البلاد. انظر إلى الجادّات الجديدة في الرياض بحدائق النخيل في وسطها. الأشجار بالأصل يابسة - لكن في كلّ مرّة يعود فيها سعود إلى الرياض، يقوم المسؤولون لديه باستئجار أشخاصٍ يعملون على جلب ورق نخيل نضر من الواحة وربطوها إلى الشجر اليابس لئلا يعلم سعود أنّها كذلك. هذا هو نوع التقدّم الذي يحصل عندما يكون التغيير سريعاً. هو يدمّر الأخلاق. سبق أن بدأ بعض اليافعين في المنطقة الشرقيّة بإطلاق نكات حول رمضان، وبات وقت القهوة بديلاً من وقت الصلاة بالنسبة إليهم. على مدى قرون، كان الدين مصدر قوّة السعوديّ. أمّا الآن، فيتعرّض "سلام الإسلام" إلى دمار التغيير. لا أعتقد أنّ هذا تقدّم.

لكن لا أقصد أنّه على البلاد ألاّ تتقدّم. يحتاج الشعب إلى مستشفيات، ويحتاجون إلى التربية لكي يتعلّموا احترام ثقافتهم ودينهم وكذلك نُهُج باقي العالم وأساليبه. وإذّاك، متى كان عليهم أن يتكيّفوا مع التغيير، سيملكون القوّة المعنويّة والفهم العملاني لفعل ذلك. وإذّاك، سيتمكّن من يرغبون في ذلك من تقبّل النُهُج الجديدة من دون أن يهدّدوا مصدر قوّتهم الأساسي. التقدّم الذي أناصره هو ذاك الذي يُمكن أن يحدث في ظلّ الثقافة الأصليّة وليس ذاك الذي يدمّرها.

للأسف، بعد أن يكون كلّ مستشاري سعود قد استرسلوا في ابتلاع الثروة، لن يبقى سوى القليل من المال لبناء المدارس والمستشفيات، وحفنة أقلّ لاستقدام فرق عمل مناسبة إليها. لكنّي لا ألوم سعود على ذلك. أعتقد أنّه أُجبر على التعامل مع عالم لم يكن مُستعداً للقائه".

"هل تحدّثت إلى الملك سعود عن هذه الأمور؟".

"نعم، عبّرت له عن رأيي عندما طلبه. لكنّي مجرّد شخص واحد، وبريطاني سابق، بينما مستشاريه كثر وكلّهم يدّعون تفانيهم له. لذا لا يهولني عندما يقوم سعود بأمور تكّدر على ما يبدو الكثير من الناس حول العالم ممّن يُسعدهم انتقاده. والتأثيرات السلبيّة هنا قويّة لدرجة أُسَرُّ بالتحسين الحقيقي العَرَضي الذي يحدث. وبخلاف ذلك، أُسَرُّ بمجرّد أن أدخّن غليوني وأقرأ قرآني وأتحدّث إلى أصدقائي البدو وأحيا الحياة السلميّة التي وجدتها عندما جئتُ إلى هنا".

بعد أيام قليلة، عبّر فيلبي عن رغبته في العودة إلى عائلته، فأرسل الملك سعود بطلب إحدى طائرات "الكونفير" الملكيّة لتنقل ضيفه إلى الرياض. قبل مغادرة فيلبي، جاء إلى مكتبي.

شرع يقول: "المعذرة، هوسيه. سوف أغادر إلى الرياض عصر اليوم، وجئتُ أسألك خدمة. لقد استنفدتُ تبغ غليوني وهو غير متوافر في الرياض. الغليون هو أحد العيوب التي لم أتمكّن من التخلّي عنها عند مجيئي إلى الصحراء. يُحضر لي إبني التبغ من بيروت عندما يأتي لزيارتي، لكنّه لم يأتِ منذ فترة. لذا، فكّرتُ أنّك قد تتمكّن على الأرجح من تدبير الأمر مع أحد أصدقائك في الظهران لكي يشتري لي بعض تبغ الغليون من متجر أرامكو هناك، إن كان الأمر يسيراً".

"سوف أطلب إرساله من الظهران إلى ممثّل أرامكو في الرياض الذي سيحرص على توصيله لك".

"سيكون ذلك لطفاً كبيراً بالفعل، وسأقدّره كثيراً". فيما همّ بالخروج، استدار وقال بغمزة: "ربمّا هناك بعض الخير في كلّ هذا التقدّم في نهاية المطاف".

كان هواء الطائف المنعش يُحرّك الدم الراقد، وكان الموسم محفوفاً بالعمل على الدوام بالنسبة إلى سماسرة الزواج. كان سائقي محمد الذي جاء مع مجموعة الملك من جدّة متفرّغاً معظم الوقت بما أنّ وسائل نقلي كانت شبه معدومة. محمد سعودي بهي الطلعة داكن السحنة، استهزأ بالاعتقاد الشائع بين أبناء شعبه بأنّ اللحية أو الشاربين يدلاّن على الفحولة.

كان حليق الذقن والشاربين - ومنيعاً إلى حدٍّ كبير إزاء التهكّم المتواصل والتحذيرات وعواقب الزواج التي قد تنتج عن حلاقته اليوميّة.

بعد أسبوعين على وصولنا إلى الطائف، أعلن محمد لي عن زواجه الوشيك، قال: "لقد سبق أن سدّدتُ مقدار المهر الذي طلبه والد العروس من عشرة أغنام وعشرة أكياس من الأرزّ وخمسمئة ريال. أرسلتها أمس مع أفرادٍ من قبيلتها، ويوم عُرسي بعد غد".

سألتُ محمد: "متى التقيتَ عروسك؟".

"لم أرها بعد. لقد دبّر زواجنا سمسار زواج ووالد العروس ولا يسعني رؤيتها إلاّ ليلة العرس".

"أليس ذلك خطيراً نوعاً ما؟ قد تكون قبيحة".

"وعدني السمسار بأنّها جميلة، وعذراء بالطبع. إنّه زواجها الأوّل".

"ألن تُقيم طقساً احتفالياً ما ليكون العرس رسمياً؟".

ابتسم سعيداً، وقال: "عليّ أن أقيم حفلة في الغد لجميع رجال قبيلتها في خيمتي قرب المخيّم البدوي حيث يقطنون، وفي الليلة التالية ستأتي إلى خيمتي وحدها، وسنتزاوج. الأمر سهلٌ جداً وجميلٌ جداً".

في الصباح التالي، انطلق محمد في شاحنة مُستعارة، إلى عروسه ونعيمه. رجع بعد يوم، وقد تحوّل إلى مجدّفٍ هائج مستعملاً كلّ الشتائم العربيّة. عندما سألته ماذا حدث، صاح بغضبٍ: "لقد خُدعت. رفضوا إعطائي عروسي. قالوا إنّ لا أزال أُدين لهم بخمسة أكياس أرزّ. سبق أن أرسلتُ المهر كاملاً مع البدو، لكن لا بُدّ أنّهم احتفظوا بالأكياس الخمسة لأنفسهم".

استدان المال واشترى أكياس الأرزّ الخمسة الإضافيّة من سوق قرية الطائف، وحمّلها في الشاحنة وانطلق مسرعاً من جديد إلى لقائه الزوجي. بعد ثلاثة أيام، رجع إلى القصر أكثر غضباً وتعاسة من قبل: "إنّه أمر فظيعٌ يا ريّس. أعطيتُ الأُسرة أكياس الأرزّ الإضافيّة. استضفتُ رجال أُسرتها في حفلة في خيمتي. أعطيتهم كلّ ما لديّ من مال. ثمّ، ليلة عرسي، عندما وصلت عروسي وخلعت نقابها وملابسها، رأيتُ فتاةً نحيلة قبيحة. ومع أنّها أتمّت

الخامسة بعد العشرة من عمرها، لم تكن جيّدة بتاتاً يا ريّس. كانت الليلة كلّها تجربة فظيعة. طلّقتها في الصباح وأرجعتها إلى عائلتها".

"وماذا عن الأرزّ والأغنام والمال التي قدّمتها إلى أسرتها؟".

"أصبحت كلّها ملكاً لهم الآن، بحسب الشرع. الأمر مُحبط جداً يا ريّس".

لكن لم يكن الأمر مُحبطاً لدرجة أنّه لم يحاول من جديد. فبعد شهر، اكتشف أُسرة أخرى لديها فتاة قيد الزواج: "مهرها أثمن. سأقدّم للوالد الآن عشرة أغنام فقط لأنّها كلّ ما أملك. ثمّ سأقدّم لاحقاً عشرين أخرى وسبعمئة وخمسين ريالاً في الأشهر اللاحقة كلّما كسبتُ مالاً".

ظلّ محمد يسدّد مهر عروسه الثانية على مدى أربعة أشهر، وكنّا قد رجعنا إلى الرياض قبل أن يُسدّد آخر قسط بفترة طويلة. سافر من الرياض إلى الطائف للزواج ثمّ رجع بعد أسبوعين.

قال بنبرة عبّرت بوضوح عن بهجته: "الحمدلله! إنّها مثاليّة. كبيرة في السنّ قليلاً، هي في السابعة بعد العشرة من عمرها، لكنّها تعاملني جيّداً، وأنا أوّل أسيادها. عرفتُ الجنّة يا ريّس. عليك أن تسمح لي بتدبير زوجة لك. سوف أتّخذ زوجة أخرى ما إن أجمع ما يكفي من المال، الأمر جيد جداً مع واحدة، فكيف باثنتين. وعدتني زوجتي بأنّها لن تكدّر عيش الثانية، لذا سيكون الأمر مثالياً أكثر بعد".

كانت زيجات أفراد العائلة المالكة تُدبّر على شكل مشابه لزيجة محمد، لكن بطريقة أقلّ عشوائيّة. خُطِبَ الأمراء عن عمر يافع. فالأمير مشهور، الذي رافق الملك سعود في زيارته إلى الولايات المتّحدة عام ١٩٥٧، خُطِب إلى فتاة صغيرة لأُسرة مصريّة عندما كان في السابعة من عمره. كانت السياسة الحافز المألوف للزيجات الملكيّة وأفضت إلى إقامة أكثر الأعراس فخامةً في موسم عام ١٩٦٠ في الرياض. جمع الزواج بين إحدى بنات الملك سعود وأحد الأبناء المراهقين لولي العهد الأمير فيصل، شقيق الملك سعود. كانت الشعائر شبيهة بزواج محمد، باستثناء أنّ هذا العرس تمّ في ظلّ الروائع الملكيّة بدلاً من خيمة بدويّة.

أُقيمت حفلة عزوبيّة للأمير، حضرها وجهاءٌ من كلّ أقطاب البلاد، وأُقيم على شرف الأميرة حفلة عشاء باكر مماثلة، حضرتها كلّ نساء البلاط الملكي، وزوجات رجال أعمال من الرياض، وزوجات مسؤولين تنفيذيين لدى أرامكو في الظهران. دخلت الأميرة على الجَمْع مرتدية فستان عرس أبيض فاخر من باريس، وراحت تُلقي على ضيفاتها نقوداً ذهبيّة سعوديّة (تساوي كلّ عشرة دولارات أمريكيّة) كهدية شُكر، من كيس صغير مرصّع بالألماس. سجّل الحدث مصوّرٌ استُقدِم من المجلة الباريسيّة "ماتش" وسُلّم الشريط إلى سكرتير الملك سعود. للسخرية، عندما كان لا يزال في المملكة ضيفاً عند العائلة المالكة، تمّ إيقافه ومصادرة كلّ شرائطه غير المستعملة لأنّه شُوهد وهو يلتقط صورة امرأة سعوديّة منقّبة. سُمح له في نهاية المطاف بمغادرة البلاد، من دون شريطه رغم إعادة آلات التصوير له، التي تمّت مصادرتها هي أيضاً.

بعد الحفلين، حضر كلّ من المجموعتين وليمة منمّقة دامت حتّى وقت متأخّر من الليل. كان اليوم التالي مكرَّساً للراحة، وفي المساء، أُخذت العروس إلى قصر الأمير، وتمّ الزواج.

كان الزواج والطلاق شائعين بين بعض أفراد العائلة المالكة من الراشدين. خلال الموسم المنعش في الطائف، اشتدّ النشاط الزوجي لدرجة أنّنا كنّا نحفظ الأجراس والبجعات والأقواس المصنوعة من السكّر المغزول لزينة الولائم، وإعادة استعمالها في حفلات الأعراس مراراً لأنّنا لم نملك الوقت لإعداد الزينة لكلّ حفلة عرس جديدة. تزوّج أحد أشقّاء الملك سعود أربع مرّات في خلال ستّة أشهر، مُطلّقاً في كلّ مرّة زوجته السابقة بمؤخّر سخي. وقبل كلّ من أعراسه، كان الملك سعود يُجيز له زيارة مخزن المجوهرات الملكيّة وانتقاء هديّة عرسه بنفسه. ذات مرّة اختار خاتماً بقيمة عشرين ألف دولارٍ أمريكي أضاعه فيما كان يسبح. غضّ الطرف عن الحادث قائلاً: "سأحصل على غيره عندما أتزوّج ثانيةً".

لكن، كان ثمّة فرد من أفراد العائلة المالكة لم يلتزم عُرف تعدّد الزوجات، وهو الأمير فيصل. في حين أنّه اتّخذ موقفاً مُعادياً لأمريكا من أجل مناصري القوميّة في الشرق الأوسط، كان على الأرجح أكثر الأمراء غربيي المنحى. اتّبع الزواج الأحادي ونظر باحتقار إلى الممارسات الزوجيّة التي اعتمدها أشقّاؤه. إلى هذا، علّم أبناءه الثمانية في مدارس خاصّة في إنجلترا والولايات المتّحدة الأمريكيّة.

كان لأبناء الملك السعود الأصغر، والذين كانوا عُزباء حرّية اختيار عبدات من الحريم؛ وكانوا مواظبين على استغلال هذا الامتياز. وكلّ ولد ينتج عن تلك العلاقات، كان يُتّخذ فرداً من العائلة المالكة، وبما أنّ طقوس الزواج والطلاق كانت بأيّ حال غير رسميّة، انعدم التمييز بين الأولاد الشرعين وغير الشرعيين.

مع اقتراب نهاية موسم عام ١٩٥٩ في الطائف، أُصيب الملك سعود باختلال مِعَديّ متواصل. بضغطٍ من مستشاري الملك، استمات آخر المختّصين الطبّيين لدى الملك لتحديد سبب الاختلال. بعدما علم الطبيب أنّ أحد حرس الملك كان يحضر له الحليب الطازج كلّ صباح، أسرع إلى الاستنتاج بأنّ شُرب الحليب كان أصل المشكلة. طلب إليّ أن أجد البدوي الذي كان يوفّر الحليب، وأُعاين مواشيه، وآخذ عيّنات من الحليب لكي يتمكّن من تحليلها.

قال مُحذّراً: "عليك فعل ذلك في الصباح الباكر وأن تُبقي الأمر سراً. وإلاّ سيتنبّه البدوي وسيُخفي قطعانه".

باستثناء غزالي الراحل، اخترتُ البقاء بعيداً عن المملكة الحيوانيّة. وكان جهلي لها حالكاً بقدر ظلمة أولى ساعات الفجر حينما انطلقتُ إلى مهمّتي. رافقني في سيارة الجيب أحد سائقي الملك والحارس الذي كان يحصل على الحليب من البدوي ويوصله إلى صاحب الجلالة. كانت معرفتهم البدائيّة بتربية المواشي مشابهة لمعرفتي.

لم يعرف الحارس اسم البدوي الذي كان يحضر الحليب، لكنّه عرف شكله - وهي نقطة إيجابيّة لا متناهيّة...إذ كان ربمّا ثمّة ألف بدوي في المنطقة المحيطة من أصحاب المواشي المتراوح عددها بين حيوانيين إلى عدّة مئات. كان اقتراحي الأساسي أن ننتظر قدوم البدوي وجعله يقتادنا مباشرةً إلى قطيعه. لكن تلك لم تكن مشيئة الله، كما فسّرها الطبيب المستعجل ومستشارو الملك.

عندما سألتُ الحارس إن كان مصدر الحليب من معزاة أو نعجة أو ناقة، أُجِبتُ باختصار: "وما الفرق أمعزاة أو نعجة أو ناقة؟ المصدر هو البدوي".

فيما رُحتُ أتأمّل المسؤوليّة الكريهة في معاينة الأجناس الثلاثة كلّها، توقّفنا فجأة عندما أظهرت مصابيح الجيب خيمة سوداء. لاحت أمامنا عدّة أطياف باهتة. فيما ترجّلنا من الجيب ووصلنا الخيمة، كان الشخص الوحيد المتوافر للسؤال رجلاً عجوزًا لم يستطع الابتعاد عن المكان لأنّه كان برِجل واحدة. أمره الحارس بجلب قطعانه لتفحّصها، فأخرج أربعة أغنام من داخل خيمته. أمسك الحارس بالنعجة الأقرب إليه وقبض على رأسها بين ركبتيه في حركة فاجأتني لشدّة احترافها، وأشار عليّ بالمتابعة. نزعتُ غطاء قربة الماء التي أحضرتها لجمع الدليل، ركعتُ على الرمل، ورُحتُ أتحسّس بطن النعجة بحثاً عن ضرعها، شاعراً بالضعف إزاء قهقهة العجوز على عدم اضطّلاعي بدوري، إلى أن أمسكتُ ما اعتقدتُ أنّه ضرعٌ مغطىً بالصوف. وضعتُ القربة في مكانها وعصرتُ منتظراً تدفّق الحليب، وإذا بالحيوان يثب إلى أمام مُطيحاً بالحارس إلى الرمل وجاعلاً القربة تطير في الهواء. انتصب الحارس، وقد بدا أقلّ احترافاً، فيما بدا العجوز عارم البهجة وقد ضرب يده على ركبته لشدّة الضحك، وتمتم وهو يضحك: "إنّه كبش!".

رحلنا على عجلة لإيجاد عيّنة أكثر تعاوناً. في وقفتنا التالية، أيقظت مصابيح الجيب الأمامية فتاة صغيرة، وحاولنا أن نشرح غايتنا بمقاربة جديدة. فيما كنّا نتحدّث إليها، ظهر رجل عجوز وعدّة مِعاز من خلف الخيمة. لوّح بعصا مُهدّداً وأنّبنا لمحاولة إغواء ابنته. عندما طمأنه الحارس بأنّنا مهتمّون بمعازه وليس ابنته، نظر إلينا نظرة شك لكنّه وافق على حَلْبِ إحداها لنا. كنتُ عازماً على عدم تكرار الخطأ الذي ارتكبته في محطّتنا الأولى. مع ذلك، كان عليّ أن أعاين الحيوانات أو أبدو وكأنّني أفعل ذلك من أجل تقرير الحارس. مضيتُ بهمّة دحضت مخاوفي.

آنذاك، كان شاغلو الخيمة الأولى الذين تبخّروا فجأة قد نشروا الخبر بأنّ مغاوير المواشي يجولون الصحراء. وبالتالي، هُجرت الخيم الثلاث التي توقّفنا عندها مع طلوع الفجر الرمادي الذي اخترق الغَسَق.

انصرفنا عن البحث غير المُجدي لأنّني خشيتُ أن تأخذنا محطّتنا التالية إلى قطيع من النوق الذي لم أكن أنوي التعامل معه البتّة - ورجعنا متّخذين طريق قصر الطائف. بعد أن قطعنا

نحو كيلومترٍ ونصف الكيلومتر، رأينا قطيعاً كبيراً من المِعاز. توقّفنا على مقربة من الماشية التي بقيت على هدوئها، وترجّلنا من الجيب بهدوء للحصول على عيّنة أخيرة. مشينا نحو مجموعة صغيرة بعيدة عن القطيع الأساسي، فأبصرنا امرأتين نائمتين إلى جانب أجمة من الشُجيرات. كانتا سافرتي الوجه، وكان من الأجدر لو أبقيتا على النقاب، لعلّه يستر قباحة طلعتهما. كنتُ قلقاً أن أوقظهما إذا أنهما ستشعران بالحرج الشديد لرؤيتهما سافرتين، خاصّة وأنّني كافر؛ والأخطر من ذلك أن يكون زوجاهما على مقربة. غير أنّ وخز الضمير لديّ لم ينتب الحارس الذي ركل قدميهما الحافيتين. فيما فتحتا أعينهما، أطلقتا صرخة من الذعر دوّت في الهواء. وَثَبْتُ إلى خلف لنقزتي وذعري بقدرهما. أسرعتا إلى الإمساك بطرف الرداء الأسود وسحبه إلى أعلى لتغطية وجههما. لم ترتديا ملابس تحتيّة ومع ذلك لم تأبها طالما أنّ وجههما كان مغطى. اختبأتا خلف الأجمة بحذرٍ حيث أنزلتا الرداء وهربتا مبتعدتين.

راقبهما الحارس مبتسماً واقترحتُ بتوتّرٍ أن نعاين المعاز. كانت ضروعها مغطّاة بأكياس وسخة حام حولها الذباب لئلا تقوم صغارها برضاعتها. لم يشأ أيّ منّا أن يلمس تلك الأكياس المقزّزة، لذا حمل الحارس إحدى المعاز وتوجّه بها إلى الجيب. قال: "علينا اصطحابها إلى القصر، هكذا سيتمكّن الطبيب نيومان من معاينتها بنفسه".

في الوقت الذي وصلنا فيه إلى القصر، كانت الشمس قد طلعت ونشاط إعداد الفطور قد بدأ. قدنا الجيب إلى خلفيّة القصر وطلبت إلى أحمد، أمين المؤن لديّ، أن يحتجز المعزاة إلى أن يعاينها الطبيب.

"رائحة المعزاة كريهة جداً يا ريّس. أين وجدتها؟".

"بين قطعان البدو. صرفنا الفجر كلّه نتفقّدها. يريد الطبيب نيومان فحص الحليب الذي يتناوله جلالته، لأنّه يعتقد أنّه سبب مرض الملك".

"أتعلم مصدر الحليب يا ريّس؟".

"أعلم فقط أنّه لا يأتي من المطبخ. لم أكن على علمٍ حتّى بأنّ جلالته كان يتلقّى الحليب الطازج. يقول الطبيب نيومان أنّ بدوياً يُحضره لحارس الملك كلّ صباح، لذا شرعنا في البحث عن البدوي".

"هل وجدتموه؟".

"لا، لكن إن جاء اليوم لتوصيل الحليب، سنتعقّبه لكي نجد قطيعه".

"أعتقد أنّ الحليب ليس السبب في مرض جلالته يا ريّس".

"لمَ تقول ذلك؟".

"أعتقد أنّه على شخصٍ آخر إخبارك بذلك يا ريّس".

"يُخبرني بماذا كرمى الله؟".

"أعتقد أنّك لن تجد البدوي يا ريّس، لأنّ الحليب يأتي من معزاة محفوظة في مرأب القصر. هي هناك منذ نحو خمسة عشر يوماً، وهي نظيفة جداً. خلتُ أنّ الشيخ فهد أعلمك بذلك. جلبها لجلالته، ويعتني بها رجل من الطائف ويوصل حليبها إلى حارس الملك كلّ صباح.

تعافى الملك سعود من مرضه من دون تشخيص السبب وواظب على تناول حليب الماعز يومياً. أرجعتُ فريستنا إلى موطنها الطبيعي وتقاعدتُ من الخدمة كطبيب بيطري.

الفصل ٨

إس.إس. كايوس- سفينة الفوضى

قُبيل مغادرتنا الطائف عام ١٩٥٩، استدعاني الملك إلى غرفة الجلسات.. أعلمني أنّه وبعض أفراد عائلته وبعض مستشاريه، بعددٍ إجمالي من خمسين شخصاً، يرغبون في الذهاب في رحلة بحريّة إلى إيطاليا على متن اليخت الملكي "منصور"، وطلب إليّ أن أسبقهم إلى جدّة حيث يرسو اليخت وإعداد ترتيبات الرحلة. في تلك الأثناء، سيعود الملك وحاشيته إلى الرياض لإنعاش أنشطة الحكومة التي اشتغلت بين كرّ وفرّ لقضاء رؤساء الوزارات العطلة في الطائف أو في أوروبا.

اليخت "منصور" الذي سُمّي بهذا الإسم تيمّناً بالزوجة المفضّلة لدى الملك، كان بالأساس عربة شحنة تّتسع لأربعةٍ وعشرين راكباً حُوّلت عشوائياً إلى قارب. اشتراها الملك سعود بعد إلحاح مستشاريه الذين حصلوا، إلى جانب الوكلاء الذين دبّروا الصفقة، على عمولة كانت عبارة عن عقارات في بيروت تساوي مالاً كثيراً. ندر أن استخدم الملك اليخت الذي كان يرسو معظم الوقت في جدّة.

كنتُ قد قاسيتُ رحلتين على متن "منصور"، وتساءلتُ ما قد تحمله الثالثة فيما تراخيتُ في مقعدي مسافراً جواً مدّة ساعة إلى جدّة.

في خلال عام خدمتي الأوّل لدى الملك سعود، رافقته وحاشيته في رحلة بحريّة عبر البحر الأحمر لزيارة الأمبراطور سيلاسي في إثيوبيا. كانت الحاشية قليلة العدد نسبياً لذا كانت مرافق المكوث فيها ملائمة كي لا أقول أقل فائضة. لكن كان ثمّة مشكلة من نوع آخر. في طريق العودة، عندما كنّا لا نزال مبحرين عند ساحل إرتريا، فوجئتُ بالخبر من طاقم عمل المطبخ بأنّ مخزون الطعام قد نفد. وسرعان ما اكتشفتُ السبب. عندما كانت السفينة راسية عند المرفأ في أثناء إقامة الملك في إثيوبيا، عَمَدَ أفرادٌ من العائلة المالكة إلى بيع مخزوننا سراً. اضطُررنا إلى الرسو

في مدينة مصوّع حيث بلغت قيمة فاتورة البضائع ٢٥ ألف دولارٍ أمريكي لم تكن قد سُدّدت عام ١٩٥٩ بالاستناد إلى سكرتير الملك.

أمّا المسرّة الثانية التي كان لي حظ المشاركة فيها على متن "منصور". فكانت السفرة الغريبة إلى الخليج العربي في شهر يونيو من عام ١٩٥٦. آنذاك، كان اليخت راسياً في الدمّام بالمنطقة الشرقيّة. كالعادة، سافرتُ إلى مكان رسو اليخت مسبقاً لإعداد الترتيبات. تلك المرّة، كانت الحاشية أكبر عدداً وضمّت خمسة وسبعين مسؤولاً. قيل لي إنّ تحسينات شاملة قد أُجريت على مرافق اليخت، لكن لمعرفتي بالقيود التي يطرحها "منصور"، أبقيت آمالي في حدّها الأدنى. اتّخذتُ جولة على القارب لدى وصولي إلى الدمّام أكّدت ظنوني.

شكّلت غرفة السفرة الأساسيّة على السطح الأساسي، صالوناً خصوصياً للملك سعود حيث كان يتناول وجباته مع أفراد مختارين من عائلته والعاملين لديه. لكن، لكي يصلها من قُمرته، كان عليه أن يسير عبر غرفة السفرة الأساسيّة التي كانت من قبل غرفة جلوس واسعة. حُوّل أحد مخازن السفينة إلى غرفة سفرة لخدم الحاشية وحرسهم. كانت هذه الغرفة واقعة في سطح الطبقة الدُنيا، إلى جانب المطبخ. جُهّز صالون الملك وغرفة السفرة الأساسيّة بمكيّف هواء بارد. أمّا المطبخ وغرفة السفرة الثالثة، فلم يتضمّنا مكيّفاً ولا حتّى تهوئة. أُبقيت سِعة المطبخ على حالها بلا توسيع، ولم تكن المساحة كافية، لا في غرفة السفرة الثالثة ولا في المطبخ لحفظ الصحون المتّسخة وصواني الطعام في أثناء تقديم الأطباق المتعدّدة في كلّ وجبة. لذا، اضطرّ النُدُل إلى الغشّ قليلاً. لصغر مساحة المطبخ، بات التخلّص من مخلّفات كلّ وجبة كابوساً متكرّراً. اكتشفتُ في خلال الرحلة أنّ كمّيات من الشُوَك والملاعق والسكاكين تُرمى في سلّة المهملات مع نُفاية الطعام. بما أنّ النقص بها بلغ حداً حرجاً، كلّفت أحد عمّال المطبخ للتنقيب عن الآنية الفضّية في الزبالة. خفّض ذلك من الخسائر الباهظة، لكنّه لم يضع حدّاً لها.

بعد أن أتممتُ جولتي على اليخت المجدّد، توجّهت إلى القبطان للاستعلام عن مكان مكوثي وطاقم عملي. تُقتُ إلى بدء العمل في مرافق المطبخ أسرع ما يمكن. كان القبطان ألماني الجنسيّة، بحّاراً متمكّناً تحوّل إلى مُحبَط.

قلتُ: "سيكون ثمّة أربعة طهاة إيطاليّين، وثلاثة مساعدين صوماليّين، وستة نُدُل سودانيّين، وأربعة عمّال مطبخ يمنيّين، وعاملَي غسيل باكستانيَين. أين ستكون مهاجعهم؟ هم يُفضّلون غرفاً منفصلة. وأين ستكون حُجرتي؟".

قال القبطان: "سيكون عليك التناقش في ذلك كلّه مع مسؤول التشريفات لدى الملك. أنا مسؤول عن طاقمي فقط. لكن سبق أن حُجزت الحجرات لمجموعة الملك، لذا بإمكاننا أن نسير على طول السطح لعلّنا نجد اسمك على باب إحدى الحجرات".

على أبواب الحجرات في طبقة السطح، وجدنا أسماء كلّ المستشارين والمسؤولين من دون إسمي. ولم أجده حتّى على تلك في الطبقة الدنيا، حيث كان سيمكث موظّفي السكريتاريا والكتّاب.

قال القبطان: "لعلّ مسؤول التشريفات يحاول إيصال رسالة ما إليك. على أيّ حال، تستطيع النوم في المستوصف. فيه ثلاثة أسرّة، وتستطيع شغل إحداها".

"ماذا يحصل إن مَرِض أحدٌ؟".

"تستطع مشاطرته الغرفة. لا تقلق إلاّ إن مَرِض ثلاثة. عند ذاك، سيكون عليك النوم مع الطهاة".

"أين سينامون؟".

"على السطوح. قل لهم أن يُحضروا بطّانيّاتهم لأنّنا لا نملك عدداً كافياً باستثناء ما يلزمنا، وأحياناً تحمل الريح الكثير من الرمال إلى السطح، لذا سيحتاجون إلى ما يقيهم منها".

"لا يجوز أن يناموا هناك. بعد العمل طول اليوم في ذاك الفرن الذي تسمّيه مطبخاً، عليهم أن يخلدوا إلى مكان يرتاحون فيه كما يجب".

"أنا آسف، لكن هذا يخت الملك. هو يحضر الضيوف وكما رأيت يحصلون على الحُجرات وأنا لا أتدخّل. إذا كنت تريد الحصول على إقامة أفضل، دع الملك يشتري يختاً أفضل".

في تلك اللحظة، أتى عامل جهاز اللاسلكي على اليخت وسلّم القبطان رسالة. قرأها قائلاً: "سيد أرنولد، لا بُدّ لي من إبلاغك أنّ عدد أفراد حاشية الملك سيبلغ ثلاثمئة شخص. سيصل الملك غداً مساءً وسيرحل اليخت فوراً بعد أن يصعد الملك إلى متنه. سيركب معظم أفراد الحاشية المُسافِرة اليخت في وقتٍ باكر من بعد الظهر، لذا سيكون عليك تدبير إعداد الغداء لمئتي شخص".

"بالله! كيف لنا أن نقدّم الغداء لمئتي شخص في الغد ونحن لم نبدأ بتحميل المؤن بعد؟ وكيف يُفترض بنا أن نُعدّ وجبات لثلاثمئة شخصٍ في طنجرة الضغط النتنة هذه؟".

"هذه مشكلتك يا صديقي. سأقود وطاقمي القارب وتهتمّ أنتَ بشؤون إعداد الطعام"، قالها القبطان وسار نحو حجرته بخطىً متقلقلة.

عجّلتُ في النزول من اليخت واستأجرتُ سيارة أجرة لأخذي إلى مقرّ أرامكو الرئيسي في الظهران على بُعد نحو أربع وعشرين كيلومتراً. هناك، أعلمتُ رئيس قسم الخدمات الحكوميّة السعوديّة في الشركة بمصاعبي. طمأنني أنّ أرامكو ستؤمّن المؤن للرحلة البحريّة وكذلك عدداً كافياً من النُدُل من قاعات الطعام لدى أرامكو لكي أسدّ النقص عندي. في الصباح التالي، قطعتِ الجسرَ الممتدّ على ثمانية كيلومتراتٍ باتّجاه رصيف الدمّام شاحناتٌ مبرّدة محمّلة بأطعمة مثلّجة ومنتجات طازجة، وتبعتها مركبات أخرى مكدّسة بأطعمة معلّبة. رُصِفت المؤن في مخازن اليخت وفي صناديق التبريد. لكنّ المساحة كانت محدودة ولم يسع اليخت أن يحمل سوى كميّات كافية لبضعة أيام بالنظر إلى وجود ثلاثمئة راكب على متنه. لذا، رتّبنا أمر إرسال أطعمة إضافية إلى اليخت كلّ يوم عبر زوارق نقل ومراكب شراعيّة في خلال تحرّكنا على طول الساحل.

كان طاقمي قد وصل بحلول ذاك الوقت، وفيما كانت المؤن تُستَّف، عمَدَ الطهاة إلى تجهيز معدّات المطبخ، غير أكيدين من أنّها ستشتغل كما يجب، وشرعوا في إعداد الغداء. في تلك الأثناء، وصل خمسةٌ وثلاثون نادلاً سعودياً من العاملين في قاعات الطعام من الظهران. أبلغتهم بأنّه سيكون عليهم النوم على السطح. علمتُ أنّ حرس الملك سعود وجنوده سينامون

على السطح أيضاً، وتوقّعتُ حدوث المشكلات لتنافس الفريقين على المكان. غير أنّ مشكلة إعداد الغداء لمئتي شخصٍ كان مشكلتي الأساسية.

بطريقة من الطرق، نجح الطهاة الشتّامون المتعرّقون في إعداد الوجبة. ثمّ، فيما انتظرنا وصول المجموعة المقدّمة، تلقّيتُ رسالةً تُفيد بأنّ الجميع واجهوا تأخيراً، وأنّ أحداً لن يصل قبل مساء اليوم التالي. رُمي الغداء من على اليخت إلى البحر، وواصلنا ترتيب المؤن.

في المساء، استدعيتُ طاقم عمل المطبخ لديّ إلى اجتماع لكي أكلّل نهارهم بنبأ عدم توافر حجرات لهم.

قرّر الطهاة والنُدُل السودانيّون النوم تحت الطاولات في غرفة السفرة الأساسيّة المكيّفة بالهواء البارد. واختار الصوماليّون واليمنيّون والباكستانيّون افتراش حوض السباحة الخالي على السطح العلوي بدلاً من السطح غير المسقوف الذي استقرّ فيه النُدُل السعوديّون من الظهران. انسحبتُ إلى سريري في المستوصف في وقت باكر آملاً أن أرتاح لليلة قبل أن يحمل الغد معه ثلاثمئة مشكلة إضافيّة.

في وسط استمتاعي بحُلُمٍ جميل عن رحلة كنت أتّخذها عبر المحيط الأطلسي على متن "كوين إليزابيث" في جناحٍ من الدرجة الأولى، تناهت إليّ دمدمات صراخٍ غضبى. كان ردّ فعلي الأوّلي شعور بالارتياح لمعرفتي بأنّ المشكلات تلاحق كلّ السفن حتّى سفينة "كوين إليزابيث"، وإذا بحُلمي ينقطع فجأةً عندما استيقظتُ على صوت الجلبة المتصاعدة وسمعتُ صراخاً يؤكّد حصول قتال أقرب بكثير من المحيط الأطلسي. هرولتُ إلى سطح الطابق العلوي لأجد شجاراً جَماعياً مُستعراً في حوض السباحة بين رجالٍ *وأغنام*. صرختُ بهم ولم يُفِد صراخي إلاّ بزيادة حدّة الشجار بدلاً من التخفيف منها، فسحبتُ خرطوم إطفاء الحريق إلى حافّة الحوض ووجّهتُ دفق المياه إلى ميدان المعركة. وعلى الفور، حلّ السلامُ مُبتلًّا.

فهمتُ في نهاية المطاف أنّ مجموعةً من الرعاة السعوديّين اقتادوا قطيعاً من الأغنام بأمرٍ من شخصٍ ما إلى اليخت في وسط الليل وقرّروا أنّ حوض السباحة سيشكّل حظيرةً ممتازة. كانت

بعض الأغنام قد أُنزلت بالفعل إلى القعر بوساطة حبالٍ، في حين هام بعضها الآخر على السطح العلوي، يثغو شاكياً في الظلمة.

أمرتُ الرعاة بإخراج الأغنام من اليخت، فرفضوا بحدّة فاقت حدّتي. بعد جدال مطوّل، وافقوا أخيراً على سحب الماشية من الحوض، في الوقت الذي رفض فيه أفراد طاقمي العودة إلى النوم فيه.

في الصباح، اصطحبتُ الناطق الرسمي بإسم الرعاة إلى قصر الأمير بن جلوي، حاكم المنطقة الشرقيّة، الذي كان يقطن الدمّام، وذلك سعياً إلى مُحكِّم. شرحتُ لسكرتير الأمير أنّ مساحة اليخت لم تسمح لي بتخصيص مكانٍ للخدم حتّى، ولا يُعقل البتّة أن يتّسع الآن لقطيع من الأغنام. بعد الاستماع إلى الحزب المعارِض، قال السكرتير أنّ جوهر، حارس الملك الشخصي، كان قد سدّد لهم ثمن ستّين شاة وطلب إليهم توصيلها إلى اليخت: "يقول الرجل إنّ السطح يتّسع للأغنام، غير أنّ خدماً يفترشونه للنوم".

"هذا مقصدي بالضبط. سيحمل اليخت عدداً من الأشخاص يفوق سعته، لذا لا يجوز أن تجول السطوحَ ستّون شاة حيّة. إذا كان لا بُدّ من توصيل الأغنام، فلمَ لا تُذبح عند الرصيف؟ هكذا، نستطيع حفظها في غرفة التثليج. لكن لا يُمكن لنا القبول بستّين شاة. لا نحتاج إلاّ إلى القليل لأنّه بوسعنا التوقّف في أيّ مكان على طول الساحل والاستحصال على المزيد إن نفد ما لدينا".

وافق الراعي على سحب الأغنام من اليخت إلى الرصيف. هناك، وُجّه ثلاثون رأساً منها قِبلة مكّة وذُبحت. وانتظر النصف الباقي تحديد مصيره في قرارٍ لم يُتَّخَذ قطّ.

فيما كنتُ أتصوّر كيف لي أن أتخلّص من ذبائح ثلاثين شاة، قدّم لي ماريو، أحد الطهاة الإيطاليين، إنذاراً أخيراً وهدّد بمغادرة اليخت. كان أحدٌ قد سرق حذاءه الوحيد وجواربه وهو نائم. في البداية، خلتُ أنّه بالإمكان حلّ المشكلة بسهولة، بما أنّ النُدُل السودانيّون الستّة والطهاة الثلاثة الآخرين كانوا الوحيدين الذين يتشاركون مع ماريو في النوم تحت الطاولات في غرفة السفرة. لكن علمتُ أيضاً أنّ ماريو لم يتمكّن من النوم على الأرض، فخرج إلى السطح

للاستلقاء على بعض أكياس الأرزّ التي كانت موضوعة هناك مؤقّتاً. أمكن أيّ شخصٍ على القارب ان يأخذ حذاءه، بما فيه المارّة من الزوّار الذين كانوا يصعدون إلى اليخت وينزلون منه بشكل متواصل.

توجّهتُ إلى المستوصف لكي أحضر لماريو زوج الحذاء الإضافيّ لديّ. في طريق عودتي، وفيما وطأت قدمي السطح بعد صعودي السلالم، التففتُ وإذا بي أصطدم بذبيحة نعجة مدمّمة تدلّت من كتف أحد الرعاة الذي كان ينقل الذبائح إلى المطبخ. تقطّر الدم من على وجهي ومنه إلى قميصي. ابتسم الراعي وأخفض ذبيحته تحية لي ومضى.

قبل أن أتمكّن من نزول السلالم لتنظيف نفسي من الدم المتخثّر، أسرع أحد عمّال المطبخ إليّ ليعلمني بوصول ثلاث شاحنات محمّلة بالبطّيخ الأحمر من حكومة الخرج قرب الرياض. لم يعرف السائقون سوى أنّ أحداً من القصر أمرهم بتوصيل البطّيخ إلى اليخت. لم يُجدِ مظهري المدمّم نفعاً لفهم الالتباس لكنّه شدّد على وعيدي بالعواقب الوخيمة التي ستنزل بأيٍ من يحاول نقل ولو بطيخة إلى اليخت. عيّنتُ خادماً يمنياً لحراسة سلّم السفينة وإحباط أيّ محاولة لنقل البطّيخ ورحتُ أبحث عن المهندس الألماني الذي كان وصياً على مفتاح غرف الاستحمام الخاصّة بطاقم اليخت لكي أتمكّن من تنظيف نفسي من الدمّ الذي كان قد جفّ عليّ.

عندما عُدتُ إلى السطح العلوي، كان القبطان ينتظرني حاملاً رسالة أخرى من الرياض: سيصل الملك سعود في وقتٍ متأخّر من بعد ظهر اليوم؛ لكن ستسبقه بعدّة ساعات مجموعةٌ من أربعين فرداً تضمّ أبناءه وضيوفه.

كان لا بُدّ من إعداد وجبة الغداء للواصلين الباكرين، وتقديم العشاء للحاشية كاملة فور صعود الملك إلى اليخت. في وسط الفوضى المستمرّة في شحن اليخت بالمؤن وتخزينها، بما فيه الذبائح الثلاثين، أعدّ الطهاة الغداء فالعشاء. لم يصل أحد لتناول أيٍّ منهما. لكن، وصل شخصان لم نتوقّعهما: طاهيان جاءا من توّهما من نيودلهي في الهند، وقد حملا رحىً لطحن البهارات توازي قيمته خمسين جنيه استرليني. كان أحد الوزراء الجوّالين لدى الملك سعود قد وظّفهما وآنيتهما الباهظة وأرسلهما جواً من الهند. بوصولهما إلى الرياض، أُحيلا إلى اليخت

حيث كان عليّ أن أوفِق بين أطباقهما الخاصّة والنظام الغذائي الحالي الموصوف للملك سعود. بما أنّ نظامه كان يمنع أيّ أطباق حارّة بالكاري- وهي الأطباق الخاصّة الوحيدة التي عرفها الطاهيان الهنديان وشكّلت في الوقت نفسه ملفّ مسيرتهما المهنيّة كاملة - شككتُ كلّ الشك بقدرتهما في تأدية دور مفيد في المطبخ المكتظّ أصلاً. ناديتُ على أحد الخدم الباكستانيين ليترجم كلامي طالباً إليهما الانتظار. كان منظرهما مثيراً للشفقة فيما جالا اليخت وقاما بجرّ الرحى الثقيلة أينما تنقّلا، وقد بدا عليهما الذعر والعجز عن التواصل مع الآخرين باستثناء الباكستاني المسؤول عن الغسيل.

عندما وصل طبيب الملك سعود أخيراً، سألته إن كان نظام الملك الغذائي قد خضع لأيّ تغيير. بالطبع، لم يُشر إلى أيّ تغيير، ومنع منعاً باتاً إعداد أيّ أطعمة غنيّة بالبهارات للملك سعود. اضطُررتُ إلى إعلام الهنديَين بأنّه لا يسعنا الاستفادة من خدماتهما في المطبخ، وعندما أدركتُ أنّه بصرفهما إلى الدمّام، سيُمسيا شريدين، كلّفتهما مساعدة الغسّال الباكستاني في خلال الرحلة على متن اليخت. لاحقاً، في سيري المتكرّر مدار اليخت في وقتٍ متأخّر من المساء، وجدتهما رابضَين وحدهما، يئنّان خشية اليوم المقبل، لا عزاء لهما سوى المكوث على مقربة من الرحى. في نهاية المطاف، بعد عودتنا إلى الرياض، أفصح الشيخ فهد عن وجودهما للملك سعود الذي تدبّر أمر إعادة إرسالهما والرحى إلى الهند جواً. وعلى غرار أسلافهما، الذين استُقدِموا إبّان زيارة الملك للهند عام ١٩٥٥، غادر الهنديّان الرياض من دون أن يُعدّا ولو طبق للملك.

بعد يومٍ حافلٍ بالأغنام الحيّة وتلك النافقة، والأحذية المسروقة والبطّيخ، وأوقات الوصول المقرّرة، والتأخرات غير المقرّرة، والوجبات المهدورة، والمُلحقات غير اللازمة على فريق العمل، كان المستوصف المكان المناسب تماماً لي. فيما أخذ النوم يفكّ حبكات نهاري الشديدة التعقيد، تضرّعتُ إلى الله أن يُعجّل في وصول الملك سعود.

أوصل الله وقطاران خاصّان من السكّة الحديديّة السعوديّة الحكوميّة الملكَ سعود وحاشيته عند ظهر اليوم التالي. كان على متن القطار الأوّل الفرقة الموسيقيّة الرسميّة ومئات الجنود. عزفت الفرقة، وتأهّب الجنود (إلى حدٍّ ما)، وأَطلَقَ مدفعٌ بعيدٌ التحيّة، وترجّل الملك سعود من القطار الثاني ليستقبله أولئك الذين ودّعوه منذ ثماني ساعات في الرياض.

بوجود الملك سعود على متن اليخت، وبد أن تمّ تناول الطعام، وأداء صلاة المغرب، واحتواء الكفاح الشديد على الحيّز المكاني، أصبحنا جاهزين للانطلاق عندما صمت مكيّف الهواء البارد فجأةً. بعثنا برسالة صوتيّة للظهران عبر جهاز اللاسلكيّ طلباً للمساعدة، وأرسلت أرامكو فريقاً من المهندسين لدرء رطوبة الهواء وحرّه عنّا.

ظلّ فريق التصليح يعمل حتّى خلال الليل، وكان جوّ الحجرات خانقاً، فتجمهر الكلّ على السطح طلباً لنسمة قد تولّدها حركة الأجسام. وما زاد الطين بلّة، أنه كان لا بُدّ من قطع الدارات الكهربائيّة ممّا عطّل جهود المراوح الباطلة وإنمّا الباسلة في تأمين الهواء البارد؛ وللمرة الأولى والأخيرة من تجربتي مع الملك سعود، أبدى هذا الحاكم الصبور وميضاً من الجفاء. فيما تصبّب عرقاً في وسط الظلمة، في المجلس المكشوف على السطح العلوي، علت وتيرة انزعاجه من أبنائه الذين كانوا يتذمّرون بلا انقطاع من الحرّ، وكأنّ الملك كان مسؤولاً شخصياً عن حدوثه. أخيراً، بعدما باتت الرطوبة والمَناحة أبعد من كلّ احتمال، نهض الملك سعود وتحدّث بلهجة حادّة إلى أبنائه وأعوانه، وتوجّه بغضبٍ إلى حجرته التي لازمها وحيداً إلى أن أبحرنا في الصباح التالي.

مع إنجاز التصليحات، كان القبطان متلهّفاً جداً للإبحار لدرجة أنّه ترك عدداً كبيراً من الحاشية الرسميّة عند الرصيف حيث كانوا ينتظرون أن يأتي التأخير إلى ختام في بقعة أقلّ اكتظاظاً. في الوقت نفسه، كان بعض عمّال الرصيف لا يزالون على متن اليخت عند الإنطلاق المفاجِىء، وبالتالي صُرف جزءٌ كبير من اليوم في تبادل الأشخاص الشريدين.

ما إنْ انطلقت الرحلة، حتّى راح الملك، على الأقلّ، يستمتع بها. قضى نهاراته في المجلس المكشوف وقد نُصِب سُرداق فوق رأسه ليقيه من الشمس. تحت رجليه، مُدّت ثلاث سجّادات عجميّة جميلة في طبقات. تدنّت الرطوبة الباعثة على التراخي وهبّ نسيم خفيف. في حضور

أبنائه وأعوانه، استمتع الملك بمشاهدة البهاليل وهم يقومون بحركاتهم الهزليّة وأَنِسَ إلى الحكواتيين. استُهلكت المشروبات من قهوة ومشروبات وبيبسي وعصير فواكه على وجه السرعة، وبسرعة تقديم القهوجي لها. لَعِب بعض أفراد الحاشيّة بالدومينو والداما. ولعِبت قلّة بالورق سراً في حجراتها، وليس تحت عين الملك أبداً. أحياناً، كان بعض الأمراء يدخلون حجرة القبطان خِفيةً، ويرشونه ليشاطرهم شرابه الكحولي. استمتعت الحاشية الرسميّة بوقتها.

كان التواجد على السطح السفلي لا يُطاق تقريباً لشدّة الحرّ والتعرّق والروائح والاكتظاظ. ولزيادة الأمر سوءاً على سوء، نظر طاقم العمل من الألمان إلى الجنود والحرس السعوديين بكُره وازدراء سافِرَيْن. كانت دورات المياه المخصّصة لوكلاء الملك لا تكفي عددهم الفائض، وطالما اصطفّ خطٌّ طويل عند مدخل دورة المياه الوحيدة المسموح لهم بدخولها. للتخفيف من الوضع، والترويح عن النفس، عَمَد بعض الحرس إلى اقتحام دورة المياه الموصَدة المخصّصة للطاقم الألماني. وعندما اكتُشف الاختراق، حلّ غضبٌ جرمانيٌ عظيم.

علا صُراخ المهندس الألماني الذي كان يصطحب جوهر في جولة تفقُّديّة: "ما لم تُسيطر على أولئك البرابرة، فسوف نرمي بهم إلى البحر. إنظر إلى هذا المكان! هم يقرفصون فوق المقاعد بدلاً من الجلوس عليها. ولا يدفقون المياه. وقذارة الأرضيّة مُشينة! لقد حوّلوا دورة المياه إلى مجرورٍ في أقلّ من ساعة".

قال جوهر استئنافاً: "نعم، الأمر شديد السوء. لكن عليك أن تتفهّم أنّ عددَنا كبير".

"إن أمسكنا بواحدٍ بعد هنا، فلن نتوانى إذاً عن التخفيف من العددا!".

أُقفلت دورة المياه من جديد، ونَصّبَ جوهر حارساً عند الباب، مانعاً بالتالي دخول دورة المياه على الكلّ باستثناء طاقم ملاّحي اليخت. اضطُرّني ذلك إلى الاصطفاف في صفّ الآخرين.

عندما شرحتُ الأمر لأحد الأمراء، ابتسم مُعيداً صياغة القول العربي: "البيت بيتك"، وحُلّت مشكلتي.

رَسَوْنا لوقتٍ وجيز في رأس تنّورة - الميناء ومصفاة النفط التابعَين لأرامكو- حيث أقام الملك سعود وليمة على شرف مسؤولي أرامكو المتّخذين من المحطّة مركزاً لهم. من رأس تنّورة، تهادى اليخت على طول تعرّجات الساحل الشرقي للخليج العربي. عند عصر اليوم الثاني، توجّهَ عددٌ كبيرٌ من الأمراء ومستشاري الملك إلى صيد السمك للترفيه. أمّنت أرامكو خمساً وعشرين صنّارة للمجموعة، اشتغلت بها بعدم معرفة لا سابق لها. وقفَ الكلُّ في بقعةٍ صغيرة بقرب الدرابزين، وفي كلّ مرّة التَفَّ فيها اليختُ قليلاً، كانت خيوطُ الصنانير تتشابك. لم تُصطد الأسماك، وفي النهاية، أُلقيت الصنانير المتشابكة إلى قعر المحيط. عُبِّيء المسبح جزئياً بالماء لكي يؤمّن وسيلةَ ترفيهٍ إضافيّة، لكن لم ينزله أحد قط. وبدلاً من ذلك، شكّل مستوعباً هائلاً للمناديل الورقيّة والكؤوس الزجاجيّة المكسورة وقشور البرتقال والبطّيخ الأحمر- الذي كان الحرس قد حمّلوه على متن اليخت وخزّنوه في قسم الخدم.

في اليوم الرابع من الرحلة البحريّة، جنحنا عند قرية ميناء سعود، الواقعة في المنطقة المحايدة التي تفصل المملكة عن مشيخة الكويت على الحدود الشماليّة الشرقية. نزل الملك سعود ومجموعة من خمسة عشر فرداً إلى اليابسة في زورقٍ آلي. ولم تمضِ برهة حتّى وردتني رسالة مفادها أنّ الملك سعود سيستقبل ضيوفاً مميّزين على العشاء. عاد الملك سعود إلى اليخت بصحبة "دجاي بول غيتيJ. Paul Getty"، رجل النفط الأمريكي الذي حصل على حقوق امتيازٍ بنسبة خمسين في المئة من النفط والمعادن في المنطقة المحايدة. كان برنامج التنقيب المُعتمَد من شركة غيتي برنامجاً ناجحاً، وكان غيتي يقوم في أثناء زيارته لمُنشأة شركته هناك، بإقامة مَرافق لإنتاج النفط المُكتَشَف، وشحنه.

رافق الملك وغيتي عدّةُ موظّفين أوروبيّين من شركة النفط وزوجاتهم. كانت تلك المناسبة الوحيدة في خلال خدمتي لدى الملك سعود التي أرى فيها امرأة تجلس إلى المائدة بوجوده. شكّلت النسوة موضوع فضول مُسترسل لحرس الملك وجنوده، الذين تجمّعوا عند مداخل غرفة السفرة للتحديق بالسَحنات الفاتحة والوجوه السافرة.

بدا غيتي نحيل القدّ إلى جانب الملك سعود، لكنّه لم يشعر بهيبة الحجم. أجرى حديثاً حيوياً مع الملك وأسرّ مُضيفه بروايات مُضحكة عن نمو شركته في المنطقة المحايدة.

كانت العودة إلى الدمّام شاقّة في ظلّ ريحٍ عاتية وعاصفة رمليّة حوّلت اليخت إلى مستوصف جَماعي لشدّة وثوبه على سطح الماء الهائج. بما أنّ المطبخ لم يحوِ ما يكفي من الخزائن لحفظ أواني خدمة المائدة، كان الخدم يُكوّمون الصحون المغسولة على الأرض في غرفة السفرة. مع اشتداد العاصفة وإمالتها اليخت يُمنةً ويُسرة، نصّبتُ نادلاً عند كلّ كومة من الصحون لحفظ تلك التي لم تتعرّض لمخاطر الرحلات البحريّة المعتادة. لازم كلُّ نادلٍ كومته دوام هبوب العاصفة على الرغم من درجات الغثيان المتفاوتة التي انتابتهم. بعدما هدأت العاصفة وأبحرنا نحو الدمّام، كان اليخت محمّلاً بالرمل، وكانت بهجة المجموعة المسافرة عارمة لتحرُّرها من رحلتها البحريّة الممتعة.

الآن، بعد ثلاث سنين، وبعد أن ذوت ذكرى رحلة الخليج العربي في أذهان البلاط الملكي، عُدت إلى جدّة لترتيب أمر رحلة بحريّة أوسع من سابقتها على متن "منصور".

لم يتحرك "منصور" من مرساه في جدّة منذ أن عاد من رحلةٍ أخرى إلى إيطاليا - ليس رحلة ترفيهيّة بل رحلة تجديد إلى جنوى. كانت تلك الرحلة أيضاً كارثيّة. في جنوى، أمر حاكم المدينة بمصادرة اليخت بتعليمات من شركة شحن رفعت دعوى عطل وضرر ضدّ الملك سعود مطالِبةً التعويض عن مواد توازي آلاف الدولارات كانت قد شحنتها إلى المملكة العربيّة السعوديّة بتفويض من أحد وزراء الملك والتي لم يُسدّد ثمنها. حصل قبطان اليخت، عبر السفارة السعوديّة في إيطاليا، على مبالغ من المال تفي بمطالبات شركة الشحن: لكن قبل أن يتمكّن اليخت من المغادرة، أمر الحاكم بمصادرته من جديد بناءً على شكوى من مهندس معماريّ إيطاليّ، ادّعى أنّ الملك سعود يدين له بسبعة آلاف دولارٍ أمريكي لقاء هندسة قصر كلّفه أحد أفراد الحكومة السعوديّة ببنائه. لم يُبنَ القصر اليوم - لحسن الحظّ، لأنّ الرسوم الأوّلية كشفت عن حصون وأبراج مراقبة فائقة البشاعة. بعد أسابيع من المفاوضات المُحرِجة، سُدّدت قيمة المُدَّعى به - والذي كان باهظاً بالنسبة إلى الملك سعود - وعاد "منصور" إلى مياه أكثر ودّية.

عندما صعدتُ إلى اليخت في اليوم اللاحق لوصولي إلى جدّة، وجدتُ اليخت مُقفراً باستثناء ثلاثة مسؤولين من البلاط الذين أتوا لمعرفة عدد الأيام التي سيستغرقها إعداد اليخت للرحلة إلى إيطاليا.

قبل عدّة أسابيع، عَمَدَ القبطان الألماني وطاقمه إلى الوفاء بوعيدهم المستمرّ في ترك العمل. تآكل الصدأ اليختَ وافترشه الغبار. كانت كلّ الغرف مقفلة، ولا مفاتيح لها. بعد أن تداول المسؤولون الثلاثة في الأمر مطوّلاً مملّسين في الوقت نفسه لِحاهم بتفكُّر، خلصوا إلى أنّ اليخت سيكون جاهزاً للإبحار في غضون أسبوع. اقترحتُ أنّ شهراً يُشكّل تقديراً آمن بالنظر إلى حالة المركب المتداعية. لكنّهم أبلغوني أنّ الملك يرغب في الإبحار في غضون أسبوع؛ لذا، سيكون اليخت جاهزاً في غضون أسبوع. مع تلك الضمانة التي لا تقبل الطعن، هذا ما لم أقل الضمانة المشكوك فيها، غادرتُ المركب الثقيل آملاً أن يجد أحدٌ المفاتيح قبل انقضاء الأسبوع.

عندما رجعتُ إلى "منصور" في اليوم التالي، كان رجلٌ إيطاليّ - عرّف بنفسه على أنّه قبطان اليخت الجديد، يسير على السطح العلوي. من الواضح أنّه وُظِّف بديلاً من الألماني المأسوف عليه. لم يتمّ تدبّر أيّ عامل للطاقم ولم يُعثَر على أيّ مفاتيح. علمتُ أنّ القبطان كان على السطح لأنّه عَجِز عن دخول حجرته. انضمّ إلينا كهربائيّ ومهندس استُقدما لإعادة تأهيل اليخت. أخذا يعملان وهما يُتمتمان أنّه من الأسهل بناء سفينة جديدة على أن يُصلحا "منصور".

وبما أنّه لم يكن لي سبيل إلى تحديد وضع المطبخ وغرف المؤن أو التحقّق من التجهيزات، غادرتُ اليخت بعد دقائق وتوجّهتُ إلى القصر خارج جدّة لأضع لائحة بالمؤن التي ستلزم الرحلة. كانت مؤن القصر قد استُنفدت لإقامة الملك في خلال موسم الحجّ، وكذلك بسبب سلوكيّات مجيد السياسيّة. لذا لزمنا طلب شحنات من أرامكو في الظهران. هاتفتُ الظهران وطلبتُ ١٣٦ كيلوغراماً من اللحم المثلّج و٢ طن من الخُضر المعلّبة.

شهد اليوم التالي على بدء وصول أفرادٍ من حاشية الملك سعود المسافِرة إلى جدّة. وجاءت معهم شائعات بأنّ عدد أفراد الحاشية الرسميّة قد زاد من ٥٠ إلى ١٤٠.

كان الملك سعود قد أبلغني بأنّ الشيخ يوسف ياسين، أقرب المستشارين إليه، سيكون على استعداد للإجابة عن أيّ تساؤلات لديّ قد تنشأ حول الرحلة البحريّة. كُنت آمل ألاّ أُضطرّ إلى استشارة الشيخ يوسف لأنّ علاقتنا توتّرت إلى حدٍّ كبير منذ زيارة الملك إلى الولايات المتّحدة. بعد العودة من تلك السفرة، جاء الشيخ يوسف إلى مكتبي وأصرّ أن أسدّد له مئة دولار أمريكي تقديراً لإدراجه إسمي على لائحة الوفد الذاهب إلى واشنطن. كان عدّة موظّفين في القصر قد أخبروني بأنّ الشيخ يوسف ناشط في حقل الرشوة، لكنّي تفاجأت لمعرفتي بأنّه عمد إلى تنفيذ عمليّاته بشكل مفضوح لهذه الدرجة - وأنّ مبالغ تافهة كانت في دائرة اهتمامه حتّى. رفضتُ الإسهام في تغذية صندوق معونات رفاهيّته؛ فأنزل بي سخطه على مدى سنتين.

عندما ذهبتُ لمقابلته كي أعرف عدد الركّاب الذي عليّ إعداد التحضيرات على أساسه، لم أتفاجأ أو أقلق عندما ابتسم وهزّ كتفيه مُشيراً إلى جهله أيّ شأن تكون لي يد فيه. توجّهتُ إلى عبدالله الشُّبيلي، وهو وكيل آخر في القصر، لكنّه كان شديد الانشغال بكفاح البقاء على أرض البلاط ولم يأبه لتفاصيل بسيطة كرحلة بحريّة إلى إيطاليا، واقترح أنّ أستشير عيد بن سالم. من جديد، كانت لعبة السلطة في البلاط قائمة، ولكن هذه المرّة كنُت الدلو الذي يُمرّر من يدّ إلى أخرى. كان عيد لا يزال، طبعاً، في الرياض برفقة الملك سعود، منهمكاً في ترسيخ مكانته كرأس السلطة على فيلق البلاط.

كنتُ قد أرسلتُ مجيد إلى السوق ليبتاع خُضراً وفواكه طازجة وأرُزاً لليخت. لكن هذه المرّة، حتّى براعة مجيد خذلته. قال لدى عودته إلى القصر: "ريّس، لن يعقد التجّار أي صفقات معنا بعد اليوم. لم يتوافر في المرة الفائتة ما يكفي من المال لتسديد ما يستحقّ لهم؛ سبق أن أعلمتك بذلك. والآن، بلغهم أنّ التجّار في الرياض لم يتقاضوا ما لهم منذ عام. هم يعلمون أنّ تجّار الرياض طالبوا بمالهم، لكن لم يُسدّد لهم سوى الجزء منها وأعلمهم عيد أنّ ديونهم الباقية قد شُطبت. لذا، يخشى تجّار الرياض التعامل معنا، حتّى معي".

من الواضح أنّه عليّ الحصول على كلّ المؤن من أرامكو. على الأقلّ، أمكن تسوية ذلك، لكنّي عجزتُ عن تحرير طلبيّة نهائيّة لجهلي عدد المسافرين على اليخت. في اليوم التالي، عُدت إلى "منصور". عندما صادفني القبطان، دفع بصندوق مليء بالمفاتيح إلى صدري، وقال إنّه عليّ أن

أفرزها لتحديد ما أحتاج إليه منها. من البديهي أنّ القبطان الألماني قد أوصد كلّ أبواب اليخت قبل رحيله، ورمى بها كلّها في صندوق، مختلطة وبلا علامات مُميّزة لها. صرف القبطان الجديد معظم الليل وهو يبحث عن مفاتيح غرفة المحرّك ومفتاح حجرته. فيما كنتُ أجرّب المفاتيح على باب المطبخ، مرّ بي الكهربائي ليُعلمني بأنّ النظام الكهربائي لا يزال معطّلاً، ولكن من المحتمل أن تشتغل بعض وحدات التكييف في اليوم التالي. وجدتُ أخيراً المفتاح إلى مِتراس المطبخ ودخلته لأتفقّد التجهيزات. كان الفرن محطّماً، وعلت طاولات التحضير أكوامٌ من الصحون المتّسخة المغطّاة بالعفن، وعلقت في أنابيب تصريف حوض الغسيل زبالة قديمة. كتبتُ لائحة بالتصليحات الضروريّة وسلّمتها مع صندوق المفاتيح إلى المقاول الذي كُلّف بتجهيز اليخت للرحلة. توجّهتُ إلى القبطان لأسأله متى سيكون اليخت جاهزاً لمغادرة الميناء. قال: "قريباً". لم يجلب ردّه المتردّد هذا أيّ طمأنينة إلى نفسي.

كان القبطان والمقاول يجمعون طاقماً لليخت من المراكب العربيّة العديدة في المرفأ. وهكذا، عبر تبادل الألقاب الوظيفيّة، أضحى بحّارٌ سابق المسؤولَ التنفيذي عن اليخت، وعاملُ تنظيف سابق مهندساً مُشرفاً. ولولا ذلك، لما أُنجز شيء لجعل اليخت ملائماً للإبحار.

بوقت عودتي إلى القصر، كان الملك سعود وباقي أفراد حاشيته قد وصلوا. أخبرني سعد، مُساعدي الذي جاء مع الحاشية أنّ مئة وعشرين شخصاً من البلاط إضافةً إلى ستّين جندياً سيرافقون الملك في الرحلة البحريّة. ارتقب الملك سعود، الذي لم يكن على علم بحالة العطب التي يعانيها يخته، المغادرة في غضون أيّام قليلة. حاولت الاجتماع بعيد بن سالم، لكنّي لم أُوفّق في إيجاده. وإذ وجدتُ نفسي عالقاً في مؤامرة المُكر والتردّد نفسها التي أحاطت بافتتاح قصر الناصريّة، قرّرت التوجّه مباشرةً إلى الملك سعود في محاولةٍ لرفع الالتباس.

كان الملك في قاعة الجلسات يتقبّل التحيّات من المسؤولين في مدينة جدّة. كان الشيخ يوسف وعيد بن سالم وكذلك مستشاراً موثوقاً آخر هو جمال بك الحسيني موجودين مع الملك، لذا خلتُ بكلّ ما فيّ أنّ كلّ صِعابي ستُسوّى في مواجهة واحدة. عندما فرغ الملك سعود من حديثه إلى الهيئة المُرحِّبة، أشار عليّ للتقدّم منه.

قال: "تُسعدنا رؤيتك يا سويسرينا".

"شكراً، يا صاحب الجلالة، يَسرّني وجودكم".

"هل تحضيرات اليخت على وشك الانتهاء؟".

"جئتكم رسمياً بهذا الشأن يا صاحب الجلالة، لكي أحدّثكم عن التحضيرات".

"ألدى سويسرينا صعوبة ما يودّنا أن نحلّها؟".

"نعم، يا صاحب الجلالة. تناهى إليّ أنّ عدد الركّاب على اليخت قد زاد من خمسين إلى مئة وثمانية. لقد طلبتُ مؤناً لخمسين شخصاً فقط، وأودّ أن أعرف ما سيكون العدد".

بعد أن تهامس الملك سعود والشيخ يوسف، أخبرني الملك سعود أنّ إجمالي العدد في لائحة الركّاب يبلغ مئة وسبعين. بما أنّني كنت أتوقّع وجود خمسين، اتّخذتُ قراراً باصطحاب طاهيَين، ونادلَين، وخادماً هندياً لمساعدة طاقم اليخت الأساسي. والآن، احتجتُ إلى عونٍ إضافي، فأعلمتُ الملك بذلك.

قال: "قم باللازم". ثمّ أضاف: "هل سيكون كلّ شيءٍ جاهزاً في وقته؟".

"سوف أطلب المؤن فوراً، وسوف تُوصَّل من الظهران غداً على متن طيرانٍ خاص. لكنّ التصليحات تجري ببطء شديد، ولا يسعنا تحميل كلّ المؤن إلى حين تُصبح غرف التخزين جاهزة للاستعمال".

التفت الملك سعود ناحية الشيخ يوسف من جديد، وتكلّم كلاهما مع عيد بن سالم، وأخيراً، زوّدني الملك بما توصّلوا إليه بالإجماع، قال: "لا تقلق بشأن التصليحات، ستُنجَز بحسب الموعد المحدّد لإنجازها".

شكرتُ الملك على إصغائه، وتراجعت الخطوات الخمس التقليديّة، وعُدت إلى مكتبي للاتّصال بالظهران. سأتمكّن الآن من الاضطّلاع بسؤولياتي كمشرف على خدمات الضيافة. لكنّي أدركتُ أنّ الملك سعود لا يملك فكرة عن حالة اليخت مع أنّني رفعتُ مسألة جهوزيّته له.

في اليوم التالي، حيّاني قبطان جديد على اليخت، الذي لم يُبدِ إشارة لما حصل لسَلَفه. على الأقلّ تمكّن أحدٌ من فتح كلّ أبواب "منصور"، في ليلة بكاملها بوساطة مصابيح يدويّة ومفاتيح. كان الكهربائي يجلس على حبل ملفوف، يشرب البيبسي. عندما رآني، ابتسم وقال: "لا، ليس اليوم"، قبل أن أتمكّن من السؤال إذا أصبحت الأنوار ومكيّفات الهواء البارد شغّالة. غير أنّ عدداً من الركّاب كانوا قد سبق أن نقلوا حقائبهم إلى الحجرات، متحمّسين حماسة مُبتدىء.

وصلت المؤن في موعدها على الرحلة الخاصّة من الظهران، ولزم نقل الأطعمة إلى غرفة التخزين في القصر لأنّ وحدات التثليج في اليخت لم تكن تعمل بعد. على طاولة مكتبي في القصر، وجدت التعليمات التي كنت قد سلّمتها إلى المقاوِل، بما فيه لائحة التصليحات اللازمة لتجهيزات المطبخ في "منصور". كان المقاول قد أحال اللائحة على القبطان الذي أعطاها لعيد بن سالم الذي أعادها إليّ لكي أوقّع عليها. كان الكلّ يسعى ليكون السلطة النهائيّة إلاّ متى أمكن تقفّي المسؤولة بتوقيعٍ على الموافقة.

أخذتُ لائحة التعليمات إلى اليخت في الصباح التالي وسلّمتها إلى المهندس الذي أشار، بهدوء، إلى أنّ التصليحات ستتم - في نهاية المطاف. أفاد المهندس أنّ وحدات التثليج قد تشتغل في اليوم التالي. رجع القبطان الإيطالي إلى قيادة "منصور" وقد اختفى خليفته على قدر الصمت الذي اختفى هو فيه من قبل. عكست التغيّرات السريعة بذور الذعر في أذهان مستشاري القصر. عندما سألتُ القبطان كم من الوقت سيستغرق إعداد المركب بعد، أجاب أنّه لا يدري بالنظر إلى كثرة التصليحات التي لا تزال لازمة. قال: "لكن، أعلمُ أنّ هذا المركب لن يغادر جدّة ما لم يتمّ إصلاح كلّ شيء وتجربته. يقول رجال القصر إنّ علينا المغادرة في الغد. في الغد سنغرق في البحر الأحمر". على الأقلّ، بدا القبطان مدركاً للظروف.

جاء الشيخ فهد إلى اليخت ليُجري جولة تفقُّديّة قاطعها وصول عيد بن سالم، الذي حضر برفقة جوهر الحارس الشخص للملك سعود. غادر الشيخ فهد اليخت من فوره. بات وعيد بن سالم ألدّ الأعداء بعدما نجح هذا الأخير من فرض نفوذه المُكتسب حديثاً في صفوف الملك.

مذّاك الحين، رفض فهد التحدّث إلى عيد، وثابر فهد على ذلك إلى حين انسحب من الخدمة لدى الملك ليعيش في قصره المتواضع الفخامة التي إن نطقت، قالت مليون دولارٍ أمريكي.

عندما رآني عيد، تقدّم وجوهر نحوي وسألني: "أين تريد أن يضع الرعاة الأغنام؟".

حدّقتُ إلى الاثنين لثوانٍ بأقصى برودة أمكن لي أن أولّدها في ظلّ الحرّ وقلت أخيراً: "لا أريد ولو لشاة واحدة أن تطأ هذا اليخت". وقد جاءت برودة صوتي موافقة لنظرتي، وأضفت: "لقد عرفنا تلك الفوضى مرّة، ولن نكرّرها من جديد. إذا أردتما إحضار أغنام حيّة - أو ميتة - إلى هذا اليخت، فتدبّرا أمر الإبقاء عليها في حجرتيكما".

فوجِىء عيد إلى حدٍّ ما من نبرة صوتي، ولم يناقش الأمر أكثر. غادر وجوهر اليخت من فورهما، وتساءلتُ للحظة ما إذا كان عليّ، بعد ثوراني في وجه عيد، أن أتوجّه مباشرةً إلى غرفتي وأبدأ بحزم أمتعتي للرحيل نهائياً عن المملكة.

بعد أن جُلت جولة أخيرة على اليخت، عُدت إلى القصر، قاطعاً وعداً على نفسي بعدم هدر مزيد من الوقت على اليخت إلى حين أُبلّغ أنّ التجهيزات كلّها أصبحت شغّالة. فكّرتُ في رفع المسألة إلى الملك سعود من جديد، لكنّي قرّرتُ خلاف ذلك، بما أنّني سبق أن تظلّمتُ من قبل من بُطء التصليحات، ولم ينتج من ذلك سوى تبديل الربابنة تبديلاً سريعاً.

بقيتُ في القصر على مدى ثلاثة أيّام متتالية، أُنظّم خدمة الوجبات فيه بما أنّ حالة اليخت أشارت إلى أنّ الملك سعود وحاشيته سيمكثون في جدّة لفترة طويلة. كنتُ أبعثُ بمجيد كلّ يوم إلى اليخت ليحضر لي تقريراً عن أي تقدّم في التحضيرات. وُفِّق الكهربائي في تشغيل النظام الكهربائي، مع هذا لم تكن وحدات التثليج تعمل كما يجب. لذا كنّا عاجزين عن نقل الأطعمة المثلّجة إلى "منصور". لم يُصلَح شيء في المطبخ. في اليوم الثالث بعد الموعد الأساسي الذي كان محدّداً للإبحار، أبلغني مجيد أنّ القبطان أخذ اليخت في جولة تجريبيّة قصيرة في المساء السابق، وعاد مُحذّراً أنّ مزيداً من التصليحات لا يزال لازماً.

في اليوم التالي، جاءني الشيخ فهد ليبلغني أنّ الملك سعود يودّ رؤيتي. فيما مشيتُ ناحية قاعة الجلسات، استعدَدْتُ لعواقب ثوراني على عيد بشأن الأغنام. ما إن دخلتُ الغرفة، حتّى

استدعاني الملك سعود إلى جانبه، وعندما وقفتُ قبالته، قال بصوت هادىء: "لدينا بعض الأنباء السيّئة لسويسرينا".

قلتُ، داخلاً في اللعبة: "ما الذي حدث يا صاحب الجلالة؟".

"لن نتمكّن من الذهاب في الرحلة البحريّة على متن "منصور"".

"هل قرّرتم يا صاحب الجلالة إلغاء الرحلة؟".

"لا. سوف نذهب في الرحلة. لكنّ الشيخ يوسف والشيخ عيد أعلماني بأنّ "منصور" لن يتّسع لحاشيتنا، وأنّهما قاما بترتيبات استئجار باخرة "أدرياتيكا" من اليونان. ستصل إلى جدّة في غضون يومين، وسنغادر على الفور إلى إيطاليا. أودّ أن ترافقنا".

رميتُ الشيخ عيد والشيخ يوسف ياسين ببصري وكانا واقفَين إلى جانبَي الملك سعود. ابتسما بتملّق وقد تقصّدا مشاهدتي. شكرتُ الملك على تزويدي بالمعلومات وعلى دعوتي إلى مرافقتهم. عندما أعلمته بأنّني سأساعد في أيّ تحضيرات ضروريّة، طمأنني بأنّ كل الخدمات ستكون من مسؤولية الشركة القيّمة على الباخرة، لذا كان التحضير الوحيد الواجب عليّ هو حزم حقيبتي.

في اليوم التالي، عمدتُ إلى إعداد جردة بما تبقّى من الخزفيّات الثمينة والفضّيات والأواني الكريستاليّة الباقية على متن "منصور". وقام مجيد بمساعدة طاقم من خدم المطبخ إلى تفريغ الأواني من اليخت ونقلها إلى القصر. لم أرَ "منصور" بعدها. باع المُقاوِل اليخت إلى شركة شحن بريطانيّة لقاء خمسة آلاف دولارٍ أمريكي، أي رُبع سعر شرائه - وهو الآن يُبحر في المتوسّط تحت الإسم المُبتكر الساخر "رومانتيكا".

كانت الرحلة البحريّة على متن "أدرياتيكا" جافّة إلى حدٍّ مأساوي، باستثناء المرور التشويقي الخفيف عبر قناة السويس التي أمّمها عبد الناصر. ظلّ اتّهام الرئيس المصري للملك سعود قبل سنتين بالتآمر على اغتياله، مصدر إحراج مؤلم في خَلَد العاهل السعودي. وقَلِقَ كُلّ من في حاشيته سراً احتمال وقوع حادث غير سارّ.

في محاولةٍ لتبديد القلق الضاغط، ولو كان صامتاً، راح بعض أفراد حاشية الملك ينشرون شائعة بأنّ عبد الناصر قد حدّد موعداً لإقامة وليمة على شرف الملك سعود والتي سيرحّب فيها الرئيس المصري شخصياً بالملك إظهاراً للوحدة العربيّة. تبيّن أنّ الشائعة صحيحة إلى حدّ ما. أُقيمت وليمة في الإسماعليّة، في منطقة وسطيّة من القناة، لكن لم يكن الرئيس المصري من رحّب بالملك، بل مسؤول عادي في الحكومة المصريّة، والذي أبدى ترحيباً رسمياً بارداً. لقد تقصّد عبد الناصر إغفال وجود الملك في مصر.

ما إن ابتعدت "أدرياتيكا" عن قناة السويس وعبد الناصر، وبلغت المتوسّط حتّى باتت الرتابة اليوميّة متكرّرة مملّة لدرجة أنّ قطيعاً من الأغنام الحيّة كان ليوفّر سلوى مقبولة تماماً. أدّى طاقم "أدرياتيكا" مهمّاتهم بحيويّة رجالٍ آليين، ممّا خيّب ظنّ الملك سعود الذي تعوّد خدمة وعناية أكثر شخصيّة وإن كانتا أقلّ فاعليّة.

في خلال محطّة وجيزة في جزيرة كورفو اليونانيّة، أقام الملك پول والملكة فريديريكا وليمةً على شرف الملك سعود، لكنّها كانت شأناً رسمياً بحتاً لم يتبادل فيه المضيفان وضيف الشرف سوى الحدّ الأدنى من الدعابات. وتمرّغ الحدث في جوٍ غريبٍ من الانزعاج.

عندما وصلت "أدرياتيكا" البندقيّة، نزل الملك سعود وحاشيته المقرّبة من الباخرة، وسافروا إلى ألمانيا في القطار، حيث تلقّى الملك علاجاً طبّياً في بادن - بادن وباد ناوهايم. فيما كان الملك سعود تحت العلاج، أقام مستشاروه علاقات تجاريّة مِقدامة مع أفراد مختلفين من مجتمع الأعمال الألماني. بإسم الملك، وُضعت طلبيّة بألف جهاز تلفزة ومعدّاته على أن تُوصّل إلى الرياض، في حين أُبرم عقد آخر بشأن تشييد معمل لإنتاج عصير البرتقال في الرياض- مع العلم أنّ المملكة لا تملك محطّة تلفزة، باستثناء تلك التي طوّرتها أرامكو لموظّفيها؛ أما البرتقال، فلا يُزرع إلاّ بكمّيات لا تُذكر في السعوديّة. أُلغيت الطلبيّتان لاحقاً، بعدما علِم ولي العهد الأمير فيصل بأمرهما عندما كلّفه الملك سعود تولّي الحكم.

في أثناء إقامة الملك في ألمانيا، طلبتُ الإذن لزيارة عائلتي في زوريخ، ومُنِحتُ الإذن، وبقيتُ في سويسرا إلى أن أعلن الملك عن استعداده للعودة إلى السعوديّة.

كان الدكتور كمال، ملك رقص الفالس في أوروبا، والذي سبق أن قدّمته، النتيجة الملموسة الوحيدة من زيارة الملك إلى ألمانيا. عاد الطبيب الصالح، والجوز الإنجليزي يملأ جيبتيه، مع المجموعة المُسافرة إلى الرياض.

الفصل ٩

طهوُ ابل

كان الملك يزور المنطقة الشرقيّة مرّتين في السنة، ويقضي فيها أسبوعاً بحلوله ضيفاً على سعود بن جلوي، أمير المنطقة: تلك البقعة التي درّت على خزينته أكثر من مليون دولارٍ أمريكي يومياً.

كان في كلّ زيارة إرهاقٌ للملك، لأنّها انطوت على سلسلة متواصلة من الولائم والأعشية الباكرة ومباريات كرة القدم واستعراضاتٍ ومبارياتٍ كشفيّة، ومراسم وضع حجر الأساس، وقطع الأشرطة، وحفلات رسميّة. ولكي تكون أريح ما يمكن، كان الملك يُحدّد موعد الزيارة عموماً في الربيع والخريف حيث يكون قيظ الصيف قد خفّ ودرجات الحرارة انخفضت إلى ثلاثنيّة مئوية محمولة.

إن اقتضى جدول الزيارات السفر جواً، كان الملك يسافر على متن إحدى طائراته الخاصّة من طراز DC-٦. لكنّه كان يفضّل السفر براً في قطاره الخصوصي على السكّة الحديديّة الممتدّة على طول ٥٦٣ كيلومتراً بين الرياض والظهران والدمّام. كانت السكّة تنعطف شرقاً من الرياض مسافة نحو ١٦٠ كيلومتراً على طول الحدود الشماليّة للربع الخالي، الذي كان مقفراً باستثناء ألاعيب الشمس والريح فيه. ثمّ، كانت تلتفّ شمالاً إلى الدمّام - قبل تشييد السكّة، ربطت طرق القوافل بين الأجزاء الوسطى والشرقيّة من البلاد - وفي مسارها الملتوي، كانت السكّة تعبر الخرج، وحرض، والحويّة، والهفوف، والمُبرّز، رابطةً بالتالي مجتمعات نائية ماضياً بالعاصمة والدمّام. استمتع الملك بالسفر في القطار، والسبب الأهمّ لذلك أنّه كان قادراً على التوقّف في القرى عند مواعيد الصلاة والتشارك في هذا الطقس مع شعبه.

شُيّدت السكّة الحديديّة بإصرارٍ من المغفور له الملك عبدالعزيز، وبمساعدة أرامكو، وأُنجزت عام ١٩٥١. وصفها مهندسو الإعمار على أنّها استحالة فيزيائيّة. لكن، عندما تحدّى الملك،

آراءهم المختصّة وقال إنّه لا بُدّ لبلاده أن تمتلك سكّة حديديّة، وضع المهندسون استخلاصاتهم العمليّة جانباً وبدأوا العمل على مشروعٍ كانوا مقتنعين بأنّه محكوم بالفشل. شُيّدت السكّة الحديديّة، ولا تزال قائمة كمعجزة صغيرة في عالم الإعمار. بعد مرور تسع سنين، أُنجز طريق إسفلتي سريع بين الرياض والدمّام. طوله نحو ٤٠٠ كيلومترٍ فقط لأنّه كان يتبع مساراً مستقيماً عبر الصحراء - لكن لم تحدّه ولو قرية أو شجرة.

وصل قطار الملك إلى الدمّام عند العصر كالعادة. تجمّع الآلاف في المحطّة لكي يرحّبوا به، وقد جاء الكثير منهم منذ الصباح. استجاب الملك لهتافات الحشد الترحيبيّة وعانق مُضيفه الأمير بن جلوي وقبّله. ثمّ، ركبا سيّارة الليموزين متوجّهَين إلى مجمّع قصر الأمير على بعد نحو كيلومترٍ من المحطّة، والواقع في المناطق الطينيّة التي تفصل بين البلدة والخليج العربي. على طول الطريق إلى القصر، احتشدت متسوّلات، كثيرات بينهنّ تحملن أطفالاً رُضّعاً، وقد مددن أيديهنّ بصمتٍ ملتمساتٍ المال. كنّ ينتظرن منذ الصباح أيضاً، تحت الشمس الخارقة مع أطفالهنّ، يملأن الساعات بغزل الصوف خيطاً سميكاً على عصّا على شكل حرف T- وكانت تلك صنعة ثابتة بين النسوة من البدو والفقراء.

طالما أحدثت الأنباء المسبقة لزيارة الملك الوشيكة فورة من التحضيرات في الدمّام والقرى المحيطة. قبل وصوله بعدّة أيام، كانت الطرقات والشوارع التي قد يمرّ بها تُزيّن بأقواس ترحيب نصبها الناس من المناطق المجاورة. وكان صانعو الأقواس يتنافسون على صنعها ويمرحون.

استُعملت الأقواس ذاتها سنة بعد الأخرى. وكانت الطرقات تتوسّع بفعل مسيرة التقدّم الذي لا يستكين، وتدريجاً، زيّنت الأقواس وسط الشوارع فقط. كانت أعمدتها تُنصب في منتصف مسار السير وبالتالي، تتعرّض للاصطدام المتكرّر. والعكس صحيح، بحيث يُمسي بعض الأقواس معطوباً تماماً بوصول الملك سعود وحاشيته.

كان أكثر الأقواس تنميقاً، القوس الذي نصبته أرامكو عند مدخل الظهران إجلالاً خاصاً للملك لدى زيارته المنطقة في خريف عام ١٩٥٥. كان عرض القطعة العلويّة يتعدى العمودين

بحيث بدا القوس أشبه بمعبد، باستثناء أنّ المصابيح الوامضة التي رصّعته وقضبان الإنارة الفلّورية عند التاج منه كانت تذكّر الناظر بمدينة الملاهي في كوني أيلاند بأمريكا.

كان من المفترض أن يكون القوس مؤقّتاً، لكنُّه شُيّد من إسمنت تحسُّباً لعاصفة فُجائيّة. عندما وجد المهندسون أنّه لا يُمكن إزالته سوى نسفاً، قرّر المسؤولون في أرامكو الإبقاء عليه. أصبح الطريق الذي نُصِب عنده المدخل الرسمي إلى مستوطنة أرامكو التي شكّلت المجتمع الظهراني. لاحقاً، عندما شُيّد سور واقٍ مدار المجمّع - فاصلاً العائلات الأمريكيّة تماماً عن باقي البلاد - شكّل القوس مدخلاً إلى الظهران فقط. بين الزيارتين الملكيّتين، كانت لافتة بالأبيض والأخضر تُمدّ على طول جسر القوس تتوجّه إلى موظّفي الشركة بعبارة "عودوا سالمين"، بالعربيّة والإنجليزيّة. باقتراب وصول الملك، كانت تُستبدل بالتحيّة الرسميّة لجلالته وبالعربيّة فقط، وكانت مصابيح خضراء تحلّ محلّ المصابيح البيضاء الوامضة.

لم تكن الأقواس شكل الترحيب الأوحد، فعلى طول الطرقات تدلّت رايات بيضاء وخضراء رثّة عُلّقت بتراخٍ على أسلاكٍ هبطت بين عُصيٍّ مُعوجّة دُهنت على عجلة خطوطاً عريضةً متعاقبةً بين أبيض وأخضر وغُرِست في الرمل بغير إحكام. وعلّق التّجار أعلام المملكة البيضاء والخضراء بحجم كبير على واجهات محالهم.

بهدف شدّ انتباه الملك، حاولت كلّ قرية وبلدة في المنطقة تنظيم حفل تدشين، أكان ثمّة مجمّع جديد قيد التطوير فيها أو لم يكن. نجح المسؤولون عن مدينة الخُبَر، هذه المنطقة المزدهرة التي تشكّل مركز تسوّق الموظّفين الأمريكيين في أرامكو الذين يعيشون في الظهران، في جعل الملك يدشّن مبنى البلديّة مرّتين. لم يكن سبب الإلحاح الذي ضغطت به القرى لإيجاد مكانٍ لها على جدول أعمال الملك يعود حصراً إلى تفانيها تجاه العاهل. في حالة الخُبَر، كان مسؤولو المنطقة - حيث الكثير من بينهم يتطلّع إلى مصالح تجاريّة خاصّة - على عِلم بالقدرة الإنفاقيّة لدى حاشية الملك الواسعة.

كان الأمير بن جلوي، مُضيف الملك، آخر الرجال الإقطاعيين ذوي النفوذ في البلاد. قاتل والده إلى جانب والد الملك سعود في كفاحه لاستعادة السيطرة على البلاد. عندما فَلِحَ الملك عبد

العزيز في هزيمة آل رشيد وأتبعاعهم، كافأ الملك عبدالله بن جلوي وعائلته على ولائهم فولاّه حكم المنطقة الشرقيّة، حيث كانت الهفوف مقرّها الإداري.

عندما توفّي عبدالله بن جلوي، تولّى ابنه سعود إمارة المنطقة الشرقيّة. بتوسّع قطاع النفط إلى شمال الهفوف، أدرك الملك عبد العزيز أنّه لا بُدّ من تولية نائب له يكون موثوقاً ونافذاً في عين التغيير والنمو. بطلبٍ منه، شيّد الأمير بن جلوي منزله ومقرّه الرئيسي في الدمّام، وعُيّن أخوه محسن أميراً على الهفوف.

في المنطقة الشرقيّة، كانت كلمة الأمير سعود بن جلوي قاطعة، وكانت له هيبة ووقار على الكلّ في المنطقة، وكان الملك سعود يجتنب مراجعة قراراته. من ناحية أخرى، كان الأمير متفانياً للعائلة المالكة، ومناصرها الفردي الأقوى. تميّز بوقاره، وحُكمه المُستبدّ اللامُساوِم.

بِكَوْنِ المنطقة الشرقيّة مركز قطاع النفط، وبالتالي مُستجمع الأجانب، شكّلت نقطة محوريّة للاضطرابات والتفكير الثوروي في البلاد. غير أنّ نُهُج الأمير قمعت بدموية أيّ مأزق محتملة الحدوث.

عام ١٩٥٦، دعت مجموعة نقّارة من السعوديّين الموظّفين في أرامكو إلى إضرابٍ احتجاجاً على تغيير في نظام نقل الموظّفين في الشركة. باعت أرامكو التي كانت تؤمّن نقلاً مجانّياً للموظفين السعوديّين من العمل وإليه في باصاتها وشاحنتها المملوكة منها، إلى مُقاوِل سعودي، الذي أمّن نقل الموظّفين، مجّاناً أيضاً، بناءً على اتّفاقية مع أرامكو. أعلنت الشركة أنّ الهدف من ذلك كان إنشاء شركة مملوكة محلّياً - وهي سابقة في ذاك العصر- وتتجرّد هي في الوقت نفسه من مسعىً لا يمتّ إلى قطاع النفط بصلة. رأت مجموعة المشاغبين في ذلك سوء نيّة. ومع أنّ لا اتّحاد للعمال كان موجوداً آنذاك، أضرب معظم الموظّفين السعوديّن عن العمل وامتنعوا عن مزاولته لمدّة ثلاثة أيام. في نهاية اليوم الثالث، سعى قادة الإضراب، وقد ارتفعت معنويّاتهم للنجاح الواضح لإضطرابهم، إلى توسيع دائرة أهدافهم عبر تحريض حشد من المُضربين على التوجّه إلى إحدى دور عرض الأفلام التابعة للشركة، والمطالبة بالدخول. بأمرٍ من المسؤولين الحكوميّين والزعماء الدينيّين، كانت دور العرض التابعة للشركة هي الوحيدة في البلاد، ومُنع

على الجمهور السعودي وجميع الموظّفين السعوديّين دخولها، باستثناء من شغلوا مناصب بمهارات متخصّصة.

عندما بدأ الحشد يتجمّع أمام الدار، اتّصلت أرامكو بالأمير طلباً للعون. وصل بُعيد الاتّصال، وقد تبعته شاحنات فيها حرس وجنود. عند ذاك، كانت حماسة المتظاهرين قد خفّت واقتصر عمل الحرس على تفرقة الحشد، برويّة ومن دون عنف، فيما بقي الجنود يشاهدون. ثمّ، في اندفاع طائشٍ لا واعٍ، قذف أحد قادة الإضراب حجراً على سيارة الليموزين الخاصة بالأمير، وكسر إحدى زجاجات نوافذها.

وثب الجنود على الفور من شاحناتهم، رافعين أسواطهم وهِراواتهم، وأخذوا يهاجمون الحشد بوحشيّة. بعدما هدىء فوران الضرب والجَلد وكان معظم المتظاهرين قد هربوا، أُوقف عشرة من المتخلّفين عن زملائهم، عشوائياً على ما يبدو. ليلاً، جُمع نحو مئتي مُضرِب وسُجنوا.

في الصباح التالي، جُلِد السجناء العشرة الأُوَل علناً أمام المسجد في الدمّام. فيما راح الناس يُشاهدون، ضُرِبَ ثلاثة حتى الموت، وقضى الأربعة الآخرون في السجن بعد ساعات قليلة. أُطلق سراح الناجين الثلاثة الآخرين، من دون تطبيبهم، ونُفيوا من البلاد. مكث المئتا سجين في الحبس إلى حين العفو السنوي الذي يصدر عن الملك في ذكرى تولّيه العرش. من المئتين، أُعطي من كانت لهم سوابق في الشغب السياسي مهلة أربع وعشرين ساعة لترك البلاد وإلاّ فسيُحكم عليهم بالموت إن شُوهدوا في المنطقة من جديد. وأُطلق سراح الباقي.

في الصباح التالي للجَلد، استأنف كلّ موظّف سعودي - لم يمت أو يُسجن- العمل ولم تشهد المنطقة أيّ إضراب ثانيةً.

يقول القرآن الكريم إنّ العقاب يجب أن يتناسب والجرم، لكنّ أنواع العقاب كانت وحشيّة بمعايير القرن العشرين إلى حين السنين القليلة المنصرمة. انطوت العقوبات على الضرب عن الجنايات، وعلى قطع اليدين عن السرقة، وعلى قطع الرأس عن جرائم القتل، وعلى الموت بالزيت المغلي عن الاغتصاب. وكانت تُنفّذ جميعها علناً في البقعة التقليديّة أمام المسجد يوم الجمعة، وهو يوم العبادة لدى المسلمين. لكن، متى لم تحتمل التأخير حتى الجمعة، كانت

تُنفّذ عند مدخل الظهران الرئيسي، في ظلّ القوس الترحيبي. كانت تُحدّد عند الخامسة بعد الظهر، فيكون وقوعها أكثر دراميّة، وهو الوقت الذي يمرّ فيه عدّة آلاف من الموظّفين السعوديين تحت القوس، عائدين من عملهم. كان رجال الشرطة والحرس يجمعونهم ليُشاهدوا الضرب أو قطع الرؤوس أو الأيادي. وبما يُثير الدهشة، لم يكن من داعٍ لحشدهم إذْ كانت عقوبة السجين على جُرمه تُذاع عبر نظام لتكبير الصوت.

كان سوّاط يُنفّذ الجَلد بوساطة غصن نخيل طريّ حادّ الطرف وثلاثي الجوانب. كانت حدّة الضربات تُراوح بين أربع وعشرين ضربة للجُنَح، مثل قيادة مركبة آلية من دون رخصة سوق، إلى مئة ضربة كلّ أسبوع على فترة ستّة أشهر عن جنايات أشدّ مثل تناول الكحول يوم جمعة (كان العقاب أخفّ إذا وقع الجرم في غير يوم العبادة). كانت الأيادي والرؤوس تُقطع بضربة واحدة-إذا كانت الضحيّة محظوظة - بسيف عَبدِ الأمير بن جلوي وحارسه الخاص. لكن أحياناً، كانت الضربة تشرد ويُمسي البتر والشَرط فظيعَين.

بعد البتر، كان الرأس أو اليد المقطوعة تُعلّق بمسمار على قوس أرامكو الترحيبي لأيام على مرأى الكلّ تحذيراً للمجرمين المحتملين.

في السابق، ما إن كانت اليد تُبتر حتّى تُغمّس على الفور في الزيت المغلي، فتقطع نزيف الطرف المبتور ولكن تحرق لحم الذراع بشدّة وتُعرّضها للالتهابات. في نهاية المطاف، توسّط أطبّاء أرامكو الذين كانوا يداوون الضحايا لدى الأمير وحصلوا على الإذن بتخدير ذراع السجين قبل البتر، وعدم ممارسة الكَيّ بالزيت. وبالتالي، كانت الضحية تُساق إلى مستشفى أرامكو ما إن يُنزل بها العقاب.

نُهُج الأمير بن جلوي لا تزال مُستبدّة ولا مُساوِمة. ومع أنّها كانت تخضع لكلّ شيء باستثناء التخفيف، فهي تضع المملكة العربيّة السعوديّة في قائمة البلدان التي تشهد على أقلّ نسبة من الجرائم في العالم.

لا يُعاقب غير المسلمين في العادة إلاّ بالسَجن. ولم يُعاقب أيّ مسيحي من قبل بالجَلد لارتكابه جناية في العربيّة السعوديّة. كان الإجراء المعتاد في حالة الجنايات البالغة - حوادث سير

ومخالفات شرب الكحول - تودي بمرتكبها غير المسلم إلى الحبس لفترة وجيزة ومن ثمّ الترحيل من البلاد. رُحّل عددٌ من الموظّفين الأمريكيين لدى أرامكو كما والعديد من الهنود العاملين في المنازل لحيازتهم معدّات لتصنيع الكحول، وعَرَفَ آخرون المصير ذاته لتواجدهم سكارى خارج مجمّع الظهران. وبالنسبة إلى مخالفات القانون الأخفّ، مثل مخالفات القيادة الصغرى، كان الأمريكيّون يُؤدّون عقوبة الحبس من أسبوع إلى ثلاثة أشهر. وباستثناء ذلك، كان موظّفو أرامكو الأمريكيّون يتمتّعون بالحصانة التامّة. أدّت هذه الوضعيّة الخارجة عن نطاق التشريع المحلّي إلى إيجاد وضع تُعاقب عليه جرائم القتل ومحاولاتها بمجرّد الترحيل أو الصرف بتكتّم من الشركة.

مع هذا، حتّى غير المسلمين، بما فيهم الأمريكيين، يهابون السلطة المتشدّدة التي يفرضها الأمير بن جلوي على المنطقة الشرقيّة. وهو لا يعمل بالمحسوبيّة، حتّى تجاه عائلته. فهو لم يوفّر ابنه عبد العزيز من سخطه، ولو كان الابن راشداً وأميراً بالإنابة متى كان والده خارج البلاد.

لدى عودة الأمير بن جلوي من سَفرة علاجيّة إلى أوروبا عام ١٩٥٧، عَلِم بشأن ما اعتبره خلافاً مُستهجناً من صنع ابنه في غيابه. استدعى ابنه إلى المجلس، وهناك على مرأى من المستشارين والكتّاب والحرس والعبيد، الذين كانوا قبل أيام قليلة تحت إمرة عبد العزيز، أهانه عبر توبيخه وضربه عدّة مرّات بلا رحمة. في العشيّة الأولى على زيارة الملك، أقام الأمير مأدبة كالعادة على شرفه. كان من المفترض أن أشارك في تنظيم الحدث، وذهبتُ مُسبقاً إلى الدمّام مع اثنين من الطهاة الإيطاليين في طاقمي لتشغيل تجهيزات المطبخ في قصر الأمير. وكالعادة، كانت في انتظارنا أوساخ لصيقة، ونفايات، وتجهيزات محطّمة تراكمت على مدى ستّة أشهر.

مقت الطهاة مهمّة الدمّام، لكنّهم استمتعوا بوجودهم قرب الظهران، حيث أمكن لهم الذهاب إلى دور عرض الأفلام التابعة لأرامكو والسباحة في أحواض الشركة، وارتياد الحفلات الراقصة في المهبط الجوّي في الظهران والتودّد بنظرات غراميّة إلى نساء أمريكيّات في سراويل ضيّقة. لم توفّر الرياض أيّاً من هذه السلوى. لحسن الحظّ، كانت الولائم التي يُقيمها الأمير في أثناء زيارة الملك مُقتصرة على أهل البلد من البدو، لذا كان الطهاة يُعدّون الطعام للملك وقلّة من مستشاريه، ما أمّن لهم متّسعاً من الوقت لمساعٍ أخرى أكثر متعة.

يوم وصولي إلى الدمّام من الرياض، استدعاني الأمير بن جلوي إلى مكتبه. حدّثني بأمر زيارة الملك المقبلة فيما راح يمهر بخاتمه أسفل أوراقٍ رسميّة بالشمع الطري - مُجيزاً تأشيرة خروج أو عقوبة إعدام. ولم ينزعج من دفق المراسيل الذين كانوا يتوافدون إلى مكتبه بمزيد من الأوراق،علماً أنه كان أمّياً لا يُحسِن القراءة والكتابة، وكان يتظاهر أمام الحاضرين بأنه يقرأ الأوراق الواردة إليه.

قال الأمير، مُعرّباً إسمي: "شيخ يوسف، لقد سبق أن أشرفت على ترتيبات زيارات جلالته إلينا من قبل، وتعلم أنّه علينا القيام بما يلزم لتحضير مأدبة الترحيب به. في حال واجهتك أيّ صِعاب، عليك بإبلاغي".

"ما من صِعاب، يا صاحب السموّ. مع ذلك سوف نحتاج إلى الكثير من المؤن من أرامكو".

"اطلب ما تراه ضرورياً، وسأوقّع على الأوراق بنفسي. كلّ ما تطلبه سيوضع على حسابي، لأنّ صاحب الجلالة ضيفي، ولا يجوز أن يُسدّد أيّ شيء في أثناء حلوله ضيفاً عليّ". نهض، ومدّ يده لي. فيما تصافحنا، قال: "آمل أن تتمكّن من أن تكون ضيفي على وجبة الغداء". وسار ببطء نحو فناء حديقته لأداء صلاة الظهر، كاشفاً عن صورة خصوصيّة مختلفة عن تلك الصورة الجبّارة التي أوجدها في العلن، صورة حاول الأمير المتقدّم في العمر إدامتها بتأنٍ وزهو كبير.

عندما كان شاباً، لا بُدَّ من أنّ عينيه الداكنتين اللامعتين وقَسماته المحدَّدة الجاسئة التي أبرزتها لحيته السوداء الكالحة قد أظهرت شراسة شخصيّته. الآن، لم تعد ملامحه تُبديها بعد أن طرّاها العمر. بدا الآن ليّن الطلعة بسحنته الداكنة الشاحبة. كان الأمير بن جلوي يصبغ لحيته على الدوام بالأسود لكي تستر عمره وقواه البدنيّة المتدهورة. كان التأثير عن قرب صاعقاً. أشارت اللحية السوداء إلى رجولة عظيمة، في حين فضح الوجه المُصفرّ إعياء العمر.

بعدما فرغ الأمير من تلاوة الصلاة، أرشدني وسكرتيره الخاص إلى غرفة السفرة الخصوصيّة. طالما كان وجوده بين العموم يهزّ بدني ارتباكاً. أما على انفراد، فقد كان أنيساً ورقيق العِشرة بآن. قبل عدّة أشهر، في إحدى زياراته إلى الرياض، استدعاني يوم مغادرته إلى جناحه. شكرني

على مساعدتي له وقدّم لي علبةً صغيرة من جِلد، قائلاً إنّها رمز تقدير. احتوت العلبة على ساعة يد ذهبية من صنع سويسري.

أعدّ الطهاة مأدبة الترحيب البدوية بالملك، وكانت مُذهلة فعلاً.

غُلِي ١٥٠ خروفًا كاملاً في غلاّيات ضخمة مفتوحة وثُبّتت على قاعدة من صخر المرجان في فناء مكشوف ترابي الأرضيّة يُطلّ عليه المطبخ. عندما استوت، أُحضرت صوانٍ نُحاسية كبيرة قطر الواحدة بين ١١٥ سنتمتراً و١٣٠، وصُبّت في كلٍّ منها كومة هائلة من الأرزّ الذي اصطبغ باللون البرتقالي الفاتح من الأعشاب والبذور المضافة إليها. رُفعت الخِراف وهي لا تزال ساخنة من القدور العملاقة، وُوضع كلٌّ منها فوق أطباق الأرزّ. شكّل مقعدٌ خشبيٌّ مقعّرٌ طويلٌ الأداةَ التي بها سُقيت الخِراف المطهوّة بصلصة حارّة قرمزيّة اللون جعلتها تبدو وكأنّها مُسحت للتوّ بالدّماء. حُملت هذه الأطباق الملوّنة من ثمّ إلى قاعة الولائم ورُصفت على طول المائدة. وللإضافة على الديكور، وُضع رأس الخروف - سُلقت الرؤوس مُستقلّة عن الأجسام - عند أحد جوانب الصينيّة، وأُليته عند الجانب المقابل. أخذت كتلة الشحم الطري هذه تقفز فجأة من مكانها إلى حافة الصينيّة مع كلّ خطوة يخطوها النادل مُخلّفة ذيلاً دُهنياً هُلامياً على طول أرضيّة قاعة الولائم.

غير أنّ الطبق الأفخر الذي كان سيوضع أمام ضيف الشرف، فكان صدر إبل، مسلوق أيضاً. عُلّق الصدر بأسلاك عريضة من قضيب حديد ثخين ثُبِّت على سطح الغلاّية. كان لا بُدّ من طهوه بتلك الطريقة لكي يكون ممكناً رفعه من الماء المغلي، واستوجب عشرة رجال لنقله من الغلاّية إلى صينيّة أكبر بكثير من تلك التي استُعملت للخراف. وُضع صدر الإبل على جبل من الأرزّ وزُيّن بخمسة خراف كاملة. كان ذاك بالفعل طبقاً يليق بملك.

وُضع الإبل والخراف وكلّ شيء آخر خاصّ بالمأدبة على الموائد قبل وقت طويل على تجمّع الضيوف. قبع في انتظار المدعوّين عصير الطماطم الفاتر والفواكه الطازجة، وسلطة الخُضر الطازجة، والبازيلاء والفاصولياء المعلّبة التي كانت ساخنة، والبسكويت، والدجاج المقلي، والسمك المشوي، والزيتون. أمّنت أرامكو كلّ الأطعمة باستثناء الخراف والإبل والأرزّ. عند الطاولة الرئيسيّة، استُعمل طقم السفرة الخزفي المذهّب الحواف الخاصّ بالملك؛ وقُدّم

الطعام على الطاولات الأربعة الطويلة الممتدّة من الطاولة الرئيسيّة في الطقم الخزفي الثقيل من غرفة السفرة لموظّفي أرامكو في الظهران.

كانت قاعة الولائم في قصر الأمير بن جلوي غرفة عالية السقف، مغمّة. يتوسّطها صفّ واحد من الأعمدة الإسمنتية الصغيرة العاديّة الشكل. تدلّت من دعامات إسمنتيّة عريضة عبر السقف، خمس عشرة مروحة كهربائيّة ضخمة ثلاثيّة الشفرات. غرقت الغرفة في ضوء باهر يُعمي البصر شعّ من خمسين مصباحاً فلّورياً كبيراً، ما جعلها تبدو كسوبرماكت ٢٤/٢٤. وساندت جُهدَ المراوح لتبريد الطعام وحداتُ تكييف هواء بارد، نُصبت في فُتحات كُسرت في الإسمنت فوق كلّ نافذة وباب، وفي النوافذ بذاتها.

قُبيل بدء المأدبة، جاء الأمير بن جلوي للتحقّق من الترتيبات. سألني إن كان كلّ شيء جاهزاً. أكّدتُ له أنّ كل الترتيبات جاهزة. وعاد إلى المجلس حيث كان الضيوف يتناولون القهوة.

بُعيد جولة الأمير التفقّديّة على قاعة الولائم، أُرشد الضيوف إليها. دخلها الأمير بن جلوي والملك سعود متشابكَي الأيدي، يتقدّمهما العبيد حملة البخّور الدائمي الحضور. رافق الأمير الملك إلى مقعد الشرف. لكن، عندما جلس ضيفه، تراجع عن المائدة ووقف يشاهد. تلك عادة المُضيف البدوي - يشمل ضيفه بعنايته ويعمل لراحته من دون أن يشارك في المأدبة. تَبع الأمير والملك الضيوف الذين فاق عددهم أربعمئة شخص. من الضيوف على الطاولة الرئيسة كان مسؤولون تنفيذيّون من أرامكو، ومسؤولون من بعثة التدريب الأمريكيّة في المهبط الجوي في الظهران، وممثّلون من القنصليّة العامّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة في الظهران. وكذلك، إمام عُمان، الذي مُنح اللجوء السياسي في الدمّام بعد إخراجه من بلاده.

من الضيوف إلى جانب حاشية الملك، كان مسؤولون حكوميّون من الدمّام، ورجال أعمال من الدمّام والخُبَر، وموظّفون أمريكيّون وسعوديّون من أرامكو. (لم يُرسل الأمير يوماً دعوات محدّدة الأسماء إلى أرامكو: كان يطلب فقط عدداً محدّداً من الأشخاص في الشركة).

عندما تجمّع الضيوف، وثب رئيس العبيد لدى الأمير على سطح مائدة الملك، متناولاً سيفه الرسمي الذهبي المقبض، وأخذ يقطع شرائح من لحم الإبل. في خلال هذه اللفتة المؤثّرة، والتي

كانت سِمة مُميّزة لمأدبة الأمير الترحيبيّة، كان سيف العبد ينزلق، فيشرط يده أو ذراعه؛ لكنّه كان يواصل القطع، متجاهلاً الدم المتقطّر من يده على الإبل. أكل الملك سعود لحم الإبل أمامه على سبيل الأكل، لكنّه لم يتناول أياً من الأطعمة الموجودة في الوليمة. بل، قدَّم له نُدُلي عشاءًا ساخناً أُعدَّ خصّيصاً له.

بالنسبة إلى الأمريكيين، كان التحديق مباشرةً إلى عينٍ ثابتة في رأس خروف مسلوق تجربة مزعجة ذهبت برغبتهم في الأكل. حاولوا إشاحة نظرهم عن عين الخروف فيما راحوا يقضمون الزيتون. لكنّ كان من الصعب عليهم ذلك. في المجمل، تردّد الأمريكيّون في المشاركة في تناول الطعام، وخاصةً في أيّ شيء نيء. على امتداد الشرق الأوسط، يُستعمل الروث البشري سماداً للحدائق، وبالتالي يحمل المُنتج تشكيلة قاتلة من البكتيريا. وبالتالي، أصرّ الحسّاسون أنّ مجرّد النظر إلى خسّة محليّة يُسبّب لهم الإسهال. ونتيجة خوف الضيوف الأمريكيين من الطعام ولوجود رؤوس الخراف، جلسوا إلى المائدة وقدّموا عرضاً بكلّ ما أمكن الحركات السطحيّة.

تلذّذ الضيوف العرب بكلّ قضمة فيما مزقوا اللحم من الخروف المسلوق، ورموا بكُرات من الأرزّ في أفواههم، ودسّوا الفواكه الطازجة في أثوابهم.

حضر مصوّرون من محطّة التلفاز التابعة لأرامكو وحرصوا على تسجيل كلّ حركة جاء بها الملك سعود إلى أن أرسل الأمير أحد عبيده إلى المصوّرين لإيقاف التصوير بحجّة أنّ صورة الناس لا تبدو حسنة فيما يأكلون. على امتداد الزيارة، تقفّى المصوّرون كلّ تحرّكات الملك سعود عبر كلّ مرحلة من أنشطته. وكلّ مساء، كانت المحطّة، في برمجة ابتكارية، تعرض على مرأى الملك ساعاتٍ من الشريط المصوّر مكّنته من استرجاع رتابة اليوم المملّة. كان الملك سعود يجلس بصبر في خلال هذه المحنة أو يأخذ قيلولة. ثمّ، كان في الغالب، يُعلم سكرتيره باستدعاء المحطة ويطلب عرض فيلم أمريكي غربي.

في الدمّام كما في الرياض، كان الملك يُشير إلى ختام المأدبة بالنهوض وترك قاعة الولائم برفقة مضيفه. غادر الضيوف الآخرون بسرعة، أفرغوا من تناول الطعام أم لا. وتحوّلت السفرة إلى حدثٍ غريب.

فيما هرع النُدُل إلى رفع الآنية الفضيّة والخزفيّات عن الطاولات، علت جلبة من صراخ وضربات عنيفة خارج الأبواب المزدوجة الموصدة والتي تُطلّ بقاعة الولائم على الحديقة. كان حَضَرٌ قد بدأوا يحتشدون عند الأبواب قبل وقت طويل على بدء المأدبة، وما إن علموا بمغادرة الضيوف حتّى أخذوا يصرخون مطالبين بفتح الأبواب.

فيما حاول النُدُل رفع كلّ ما ينكسر، طوّق حرس الأمير بن جلوي الغرفة مُنتقين ألذّ الخراف غير المسمومة إلى حدٍّ ما. وضعوا بعض صواني الأرزّ واللحم على الأرض تحت الطاولات، واتّخذوا مواقعهم عند الجدران للمراقبة وحماية ما أصبح ملكاً لهم. وعبّأ آخرون خرافاً كاملة في أكياس خيش مُغبرة، إلى جانب الموز والبرتقال والتفاح، وألقوا بحِملِهم على أكتافهم وغادروا القاعة عبر الأبواب المؤدّية إلى المطبخ. أُقفلت هذه الأبواب، وكذلك تلك المُفضية إلى القصر، وما إن رُفع ما على الطاولات، حتّى فُتحت الأبواب المطلّة على الحديقة.

تدافع مئات الأشخاص عبر ممرّ الباب، آملين الحصول على حصّة من المأدبة والهروب في عتم الليل قبل أن يسرقها أحدٌ منهم. غرفوا الأرزّ بأيديهم إلى عُلب من القصدير، ولعدم وجود حاويات، رفعوا أثوابهم لتشكّل جيوباً يودَع فيها الأرزّ. نشأت نزاعات على الخراف، وفي خضمّ الصراع، مُزقت إرباً، فاستحوذت كلّ فرقة على حصّتها. بفعل الشتات حول الطاولات، تلوّثت الأرضيّة بالأرز واللحم والفواكه مُلطّخة السجّادة العجميّة الخضراء الثقيلة. وقف الحرس يراقبون الشجار ويحرسون بأعينهم ما أطعمتهم المخبّأة، وقد وضعوا يدهم اليمنى على مسكة سيفهم في حركة لطيفة لإحباط أيّ محاولة انتشال غنائمهم.

بعد انتهاء الطقس البدائي، واختلاس آخر حبّة زيتون من على الطاولات، أُوصدت الأبواب الخارجيّة من جديد، ودخل خدم قصر الأمير بن جلوي قاعة الولائم لتنظيف البقايا. في الصباح، وحدها الخدوش الصعبة على طاولات خشب الماهوغاني وبقعة الشحم العريضة الداكنة على السجّادة العجمية، كانت الدليل على المأدبة التي أقامها الأمير للملك.

أقامت أرامكو أيضاً وليمة على شرف الملك سعود في قاعة الولائم في الظهران. جمعت بين الملك والمسؤليين التنفيذين في أرامكو علاقة ودّ واحترام متبادلة. أدرك التنفيذيّون - على الأقل الفهماء منهم - أنّ الملك سعود توقّع من العرب التصرّف كعرب، ومن الأمريكيين التصرّف

كأمريكيين، بدلاً من محاولة اصطناع توليفة من سلوكيّاتهم المتباينة. غير أنّ من حلّوا تحت الإدارة التنفيذيّة، لم يستوعبوا هذا الأمر. وطالما أثارت زيارات الملك فورة من النشاط المُستميت والحماقة البيوروقراطيّة. أُجريت لقاءات، بهيبة لقاءات مجلس الأمن القومي، للتداول في أمر التوزيع المناسب للأعلام على طول الشارع من القوس الترحيبي إلى قاعة الولائم. في قاعة الولائم، وُضعت جدران موقّتة لتفصل مدخل الموظّفين عن دورات المياه النسويّة لاستعمال الملك الخاصّ وتشكيل ممرّ حاجب، مع أنّ مكوثه لم يدم يوماً أكثر من نصف ساعة. كان الأشخاص المسؤولون عن المأدبة، ممّن كانوا يُحلّون الضيافة النزيهة محلّ التزلّف، يعمدون إلى تقديم فيضٍ من الشهوات الخياليّة التي نسبوها إلى الملك. في الوقت نفسه، كان لا بُدَّ لطلب بسيط من الخبز الخالي من الملح للملك يأن يمرّ بمتاهة من التصاريح والتواقيع قبل الحصول على الموافقة النهائيّة. مهما تكرّرت ولائم أرامكو للملك، ومهما كانت متّسقة النَسَق، كانت تدلّ دوماً على وضاعة وقلّة احتراف طاقم المُشرفين لدى أرامكو الذين استغلّوا مسؤوليّة إنجاز الترتيبات الخاصة بزيارات الملك فرصةً لقلب أكوام من الورق وبري الأقلام مُبرّرين بالتالي وجودهم.

كان برنامج الوليمة بذاته ثابتاً لا يتغيّر: يصل الملك وحاشيته إلى قاعة الولائم يرافقهم حارس شرف من الشرطة الدرّاجة، حيث تُعلن صفّارة درّاجته الثاقبة للآذان عن وصوله. بعد أن يترجّل الملك من سيّارته الليموزين، يصعد ببطءٍ منحدراً صغيراً بكسوة خضراء، يكون قد وُضع له خصيصاً لئلا يطلع الدرجات الثلاث المؤدّية إلى قاعة الولائم، ويُحيي الحشد المُصفّق في سيره. في الداخل، يُقام له استقبال وجيز يُمكّن عدداً مختاراً من قسم الإدارة لدى أرامكو من مصافحة الملك فيما يلتقط مصوّرون من قسم العلاقات العامّة صورهم من أجل أفراد الأسرة في الديار. ويُقدّم القهوجيّون جولة سريعة من قهوتهم المرّة. بعدها يقوم المسؤول التنفيذي الأعلى في أرامكو الذي يكون وقتها في الخدمة بإرشاد الملك إلى المائدة. يتذوّق الملك ما عليها بلباقة من لحم فخذ العجل المشوي، والأرزّ العربي، والخُضر المشكّلة، والفواكه الطازجة، والمثلّجات، وينهض بعد عشر دقائق أو ربع ساعة، خاتماً الوليمة.

من أشكال الترفيه الأخرى التي كانت أرامكو تنظّمها باستمرار للملك سعود، كان استعراضاً مائياً يُقدّمه أفراد من جمعيّة الخوت الذين كانت جهودهم تنمّ عن الحماسة أكثر منه الفنّ. كان الملك يقود حاشيته واجباً إلى مرسى اليخوت الواقع عند خليج صغير على بُعد نحو ٢٤ كيلومتراً جنوب الظهران. هناك، كان يجلس على منصّة شُيّدت خصّيصاً على الرصيف، ويُحدّق إلى الأفق حيث كان المتزلّجون على الماء يؤدّون عرضهم بعيداً عن مدى الرؤية. وكان يُشارك في التصفيق بكلّ لباقة.

رافق عددٌ من نسوة الحريم في الرياض الملك في رحلته الربيعيّة إلى الدمّام عام ١٩٦٠، وشدّ ظهورهنّ في العرض المائي انتباه مصوّري الأفلام الهواة. يعتبر الكثير من السعوديّون آلات التصوير تدنيسيّة لأنّ القرآن يُحرّم بصريح العبارة صور الأشكال الإنسانيّة. في حين سُمح للعرب غير السعوديين باقتناء آلات التصوير في البلاد وكانت تُباع في المتاجر في الخُبَر، كان موضوع التصوير مصدر جدال متكرّر، وكان تصوير السعوديّات ممنوعاً على وجه التعيين.

عندما عَلِم الملك سعود أنّ صوراً التُقطت لزوجاته ومحظيّاته، أصدر أمراً يقضي بتسليمه الشريط. حذّر عيد بن سالم أنّه في حال لم يُسلَّم الشريط، ستتمّ مصادرة كلّ آلات التصوير، وسيُمنع أيّ استيراد مستقبلي لأجهزة التصوير ومعدّاته. لكن، استحال تحديد هويّة مُلتقطي الصور كلّهم، ولم تُسلّم سوى قلّة قليلة من الأشرطة.

بإذن من الملك سعود، كان مسؤولو أرامكو في الظهران قد نظّموا عشاءً باكراً فاخراً على شرف النسوة في المجتمع الظهراني، ومئة امرأة من العائلة المالكة. كان موعد العشاء في اليوم التالي للعرض المائي. لكن، قُبيل بدء العشاء، أُبلِغ مسؤولو أرامكو أنّ سيّدات العائلة المالكة لن يتمكّن من الحضور. في الوقت نفسه، صدرت طلبية بمئتي ألف غالون من الماء المقطّر لتوصيلها إلى الدمّام. قرّرت السيدات العربيّات أن يُقمن عشاءً خاصاً بهنّ.

بالإضافة إلى الولائم الرسميّة العديدة وسواها من الحفلات الرسميّة. كان الملك سعود يحضر على الدوام، كضيف شرف، وليمة من تنظيم تاجر مليونير يُدعى عبدالله درويش. كان الملك قد منح اللجوء إلى المملكة لهذا الثري الخطير، الذي أُجبر على الخروج من مشيخة قطر. كان الأخوان درويش الثلاثة قد فرضوا سطوتهم بالقوّة على المشيخة لأنّهم كانوا يحتكرون إلى حدٍّ

ما الأعمال التجاريّة في شبه الجزيرة الصغيرة. كانوا يعملون بالموافقة الحميدة من الشيخ آل ثاني، الحاكم وقتذاك، الذي ديّنوه ١٥ مليون دولارٍ أمريكي. كان لعبدالله بالتحديد تأثيراً كبيراً من الناحية السياسية على الحاكم. ثمّ، راح ورثة الشيخ الهرم يشكّون في نفوذ عبدالله، وهدّدوه بالاغتيال ما لم يغادر قطر. عندما التفت درويش إلى الشيخ آل ثاني طلباً للحماية، قال له الحاكم الهرم إنّ لا حول له ولا قوّة إزاء الكفاح القائم على خلافته. ولغياب من يحميه من داخل الحكومة، غادر درويش إلى المملكة العربيّة السعوديّة حيث سمح له الملك سعود والأمير بن جلوي الإقامة في الدمّام.

واظب شقيقا عبدالله على الازدهار في قطر حتّى بعد أن تنازل آل ثاني عن العرش لصلح ابن أخيه. وبدعمٍ ماديّ منهما، أصبح عبدالله درويش سريعاً أحد أثرى رجال الأعمال وأكثرهم تأثيراً في المملكة. بنى له قصراً زهرياً صغيراً ولكن منمّقاً عند ساحل الخليج العربي، بالقرب من مجمّع قصر الأمير بن جلوي، وكان مسكن درويش الأروع في المنطقة الشرقيّة. متى سنحت الفرصة، يستضيف الملك سعود وأفراداً آخرين من العائلة المالكة، مُعبّراً بالتالي عن تقديره للملك الذي منحه اللجوء وفي الوقت نفسه موثّقاً أُسس حُظوته لدى حاكم المملكة.

بما أنّ مسؤولياتي الرسميّة كانت محدودة، كان بمستطاعي أن أقضي بعضاً من وقتي في زيارة عائلات أرامكو في الظهران التي تعرّفتها منذ وصولي إلى السعوديّة للعمل لدى شركة النفط. بغضّ النظر عن المجتمع السعودي بما هو عليه، كانت الظهران، على غرار بلدتَي أرامكو في البقيق ورأس تنّورة المشابهتين لهذه ولكن الأصغر منها، كانت واحة فريدة في صحراءٍ من رمل وحجارة. كانت المنطقة السكنيّة تشبه عدداً من البلدات الصغيرة المزدهرة في جنوب كاليفورنيا، بهندسة مناظرها الطبيعيّة من أسياج النبات وشجر النخيل وحدائق الزهور والمساحات العشبيّة. عاش، خلف سورٍ ضدّ الأعاصير، الموظّفون الأمريكيّون وعائلاتهم، وكذلك بعض الموظّفين السعوديين وعائلاتهم الذين بلغوا مناصب مهمّة، في منازل مريحة مكيّفة بالهواء البارد تؤّمنها لهم الشركة.

داخل السور، يعمل هذا المجتمع كمعمل مستقلّ، حيث تؤمّن الشركة فعلياً كلّ المرافق والخدمات. من سِمات العيش الأكثر بروزاً فيه هو الوتيرة الجنونيّة للنشاطات الاجتماعيّة

والسعي إلى الاستمتاع الذي يلجأ إليه الكثر من المقيمين. كان الحفلات هي الإجابة الحتميّة عن كلّ شيء، بغضّ النظر عن المناسبة - حفلات كوكتيل، حفلات عشاء، حفلات غداء، حفلات غولف، حفلات كرة مضرب، حفلات كرة بولينغ.

بالنسبة إليّ، كانت النشاطات الاجتماعيّة تغييراً منعشاً عن جوّ القصر وبروتوكولاته وحياة العزوبة القسريّة في الرياض. لم يُشكّل تحريم الكحول في المملكة بأمر من والد الملك سعود عام ١٩٥٣ رادعاً عن احتسائه في الظهران. كلّ كان يصنع شرابه الخاصّ. كان ذلك يجعل من التخالط الاجتماعي في الظهران خطيراً. بما أنّ كلّ مُضيف ومُضيفة يفتخران جداً بأصالة مذاق منتجهما، على الضيف تجرّع عيّنة منه لا محالة. بحلول نهاية أمسية من الزيارات غير الرسميّة، شكّلتُ دليلاً قاطعاً على نجاح قطّارات الكحول الخصوصيّة التي كانت جهازاً نموذجياً في كلّ منزل تقريباً في الظهران.

دَرَجَ الملك سعود على التوقّف في الهفوف لدى عودته إلى الرياض بالحلول ضيف شرف على وليمة من تنظيم الأمير محسن بن جلوي ومسؤولي البلديّة في البلدة. الواحة التي تحيط بالهفوف هي الأكبر في المملكة، وتغطّي جزءاً شاسعاً من المنطقة الشرقيّة. تغذّت النباتات الوارفة كأشجار النخيل وجفنات العنب وشجر الدرّاق والبرتقال، والموز ممّا يزيد عن ستّين بئراً ارتوازيّة ضخمة تتدفّق منذ قرون سحيقة. حتّى حلول عام ١٩٦٠، عندما راح الموظّفون السعوديّون في أرامكو المقيمين في الهفوف يبنون منازل حديثة، كانت المدينة والواحة، بعدد سكانٍ من نحو ٢٠٠ ألف نسمة، تبدو كما كانت على عهد النبي محمد. أحاط بالمدينة جدار ثخين بعلو أربعة أمتار ونصف. خلفه، قامت المئات من بيوت الطين. في السوق المكشوف وسط البلدة، دوّت مساومات التجّار الجنونيّة على الأبائل والأغنام والمِعاز والحمير - إلى أن كبر العمل لدرجة استوجبت نقل تبادل المواشي خارج بوّابة المدينة على طول الجدار الشمالي. في الشارع الرئيسي الضيّق المؤدّي إلى خارج السوق، كانت، كالعادة منذ قرون، المتاجر الصغيرة المتراصفة أشبه بحجرات ضيّقة حيث أعمل الحرفيّون مهاراتهم في حِرف معدنيّة وخشبيّة وجلديّة تناقلوها عن أجدادهم. كان تدمير تلك المتاجر، لتوسيع الشارع، والانحلال التدريجي لتلك الحِرف ما رثاه السير جون فيلبي.

كان قصر الأمير في الهفوف بناءً من ثلاث طبقات، بشعاً، باهتاً، بُنيَ حول فناءٍ شكّل مركزاً لصقوره. لم يكن القصر، وهو من آثار أيام بني جلوي البدويّة، واسعاً بما يكفي لإقامة الوليمة للملك سعود، لذا أُقيمت خارجه تحت خيمة هائلة. نُصب مجلس على مقربة بمدّ مئات البُسط العجميّة على الرمل وبناء منصّة بكسوة خضراء عند طرف البُسط. جلس بعض الضيوف إلى كراسٍ مكتنزة الحشو حدّدت مدار البُسط في حين تربّع آخرون على الأرض. سُيّجت المنطقة كاملة بسور عالٍ، حيث تجمّع أهل الحَضَر لرؤية الملك سعود وكذلك لمحاولة تذوّق بعض الطعام بعد الوليمة.

وصل الملك قُبيل الغروب. بعد جولة القهوة والأشعار المعتادة، نزل ضيف الشرف عن المنصّة متقدّماً الحشد داخل السور لأداء صلاة المغرب. ثمّ، بدأت الوليمة. كانت الطاولات قد جُهّزت منذ بعد الظهر، وكان تذوّق اللقمة الأولى من نصيب ملايين الذباب.

والملك سعود، الذي أعياه حصاره الطويل داخل الرتابة المبرمجة، مكث بضع دقائق فقط على المائدة قبل أن يغادرها متوجّهاً إلى الفيلا الخاصّة به لكي يرتاح استعداداً للرحلة الطويلة إلى الرياض في اليوم التالي.

كُنتُ سأستقلّ القطار المتوجّه إلى الرياض تلك الأمسية وأوجب عليّ المغادرة فور انتهاء الوليمة. فيما قُدت عبر شوارع المدينة الكحيلة في طريقي إلى محطّة السكّة الحديديّة، كشفت أضواء السيّارة للحظات عن أشكال مظلّلة تحمل على أكتافها أكياساً فيها خراف مسلوقة. علمتُ حينها أنّ الوليمة قد انتهت بشكل رسمي.

الفصل ١٠

وداعُ بلاطٍ مُقفر

وفّر لي السفر في القطار إلى الرياض سبع ساعاتٍ متواصلة للتفكير في تطوّرات الأشهر المؤخّرة - تطوّرات أفضت بي إلى التوصّل إلى قرار صعب.

تكهّنت الظروف الفوضويّة التي أحاطت بتحضيرات الرحلة البحريّة عبر المتوسّط عام ١٩٥٩ ببدء الانحلال التدريجي لعمليّات الخدمة في القصر. كان الإنفاق المُسرف والفساد المفضوح يعودان ببطء بعد أن تقلّصا على أثر برنامج التقشّف الذي فرضه ولي العهد الأمير فيصل إبّان تولّيه تصريف أعمال الحكومة عام ١٩٥٨. كان الأمراء والوكلاء الذين تمتّعوا بحريّة الوصول إلى الخزينة على عهد الخيّر الملك سعود، كانوا شديدي العداء تّجاه اندفاع فيصل الاقتصادي، الذي أعلى قيمة الريال السعودي بعدما انخفض إلى حدٍ كبير بسبب انغماسهم الإنفاقي. فحرّضوا الملك على إثبات مكانته كمسؤول وقيّم على البلاد، بحجّة أنّ فيصل كان يحاول أخذها في قبضته للسيطرة على كامل المملكة. ودفعوا بالملك - الذي حدّ من إنفاقه الخاص طوعاً للإسهام في الإصلاحات الماليّة التي كان يعتمدها الأمير فيصل - إلى إصدار مرسوم ملكي يُعيد له مكانته كرأس السلطة الحكوميّة وفي الوقت ذاته سحب المناصب من فيصل وتعيينه وزيراً للخارجيّة، وهو دور لا أهميّة كبرى له نسبياً. فيصل، الذي وعده الملك سعود بإطلاق يده بعد تسلّمه تصريف أعمال الحكومة عام ١٩٥٨، ثارت ثائرته لخنوع الملك لصيارفة القصر. في خلال فترة خدمتي الباقية لدى الملك سعود، لم يتحدّث ولي العهد إلى أخيه الملك أو يلتقيه.

بعدما أُزيح الأمير المتقشّف عن الدرب، ظهرت فورة الإنفاق من جديد، وعاد تدفّق المال إلى البلدان الأجنبيّة وإلى أيدي الحشد في القصر وبوتيرة جامحة غير مسبوقة فيما واظب الملك سعود على الوثوق برجال كان همّهم الأوحد جمع الثروات الفرديّة. وهكذا، فرغت الخزينة سريعاً.

لم يتبقَّ من مال لتسديد مستحقّات التجّار المحلّيين والمقاولين لقاء المؤن والخدمات التي كانوا يوفّرونها بموجب عقد مع الحكومة. أخفى مستشارو الملك هذه المعلومات عنه لعدّة أشهر، فيما استمرّوا في نهب الخزينة من كلّ مداخيلها. عندما بَلَغَ الملك هياج الاحتجاج أخيراً، صُدِم. لم يفهم كيف أمكن لكلّ أمواله أن تختفي. بعد استشارة مستشاريه - الذين كانوا المسؤولين الأساسيين عن الأزمة الماليّة - اعتمد ما أكدّ له مستشاروه أنّه إجراء تصحيحيّ لخفض النفقات.

في وسط المناقشات حول ضغط النفقات، استدعاني سكرتير الملك إلى مكتب جلالته الخاص. كان الكثير من المستشارين الأساسيين هناك. جلس الملك سعود على كرسي عرشه المذهّب. وتربّع الشيخ يوسف ياسين والشيخ جمال بك الحسيني على البُسط العجميّة عند قدمي الملك. ومثل مصّاص دماء صالح، حام عيد بن سالم الدائم الحضور ببشته الأسود حول الملك، وكأنّه يحميه.

أشار الملك سعود عليّ بالتقدّم نحوه فور دخولي الغرفة والجلوس على كرسي إلى جانب عرشه. عندما جلستُ، التفت إليّ عيد بن سالم وشرح أنّ الملك أعلن عن قطع كلّ إنفاق غير لازم في القصر. حُظّر إرسال الأطعمة من غرف التخزين في القصر إلى أيٍ من فلل الحريم؛ أوجب على شاغليها توفير مؤنهم بأنفسهم من البدلات التي كان الملك بالأساس يصرفها لكلّ عائلة منذ انتقالها إلى الناصريّة. باستثناء الطهاة الأوروبيين، اقتُطع ٢٠ في المئة من راتب كلّ النُدُل والغسّالين والجنائنيّين والسائقين والطهاة السعوديين- أي تقريباً طاقم عملي كلّه. (بما أنّ أرامكو كانت تسدّد راتبي، فلم يتأثّر بالتخفيض). أُمِرتُ بإلغاء كلّ طلبيّات اللحم والسمك والأطعمة المعلّبة من الولايات المتّحدة. ولزم شراء كلّ شيء من السوق المحلّية.

سألني الملك سعود: "ما عدد النُدُل الحالي لدينا؟".

أجبتُ: "أربعٌ وأربعون يا صاحب الجلالة".

قال فجأةً بعد وقفة وجيزة: "اصرف عشرين. ما عدد الطهاة لدينا؟".

"مع أولئك الذين في الحريم والفلل الخاصّة، وكذلك طهاة القصر، لدينا خمسة وأربعون".

وقفة من جديد، وقوله من جديد "اصرف عشرين". فيما احتسبُت الخراب في ذهني، وجدتُ أنّه سيحطّم الخدمة في القصر. ثمّ، توقّف الملك ليسأل سؤالاً آخر: "كم من المال تصرف على حفلات القصر سنوياً؟".

"خمسة وعشرون مليون ريالاً"، أي ما يقرب من خمسة ملايين دولارٍ أمريكي.

"عليك تخفيض هذا الإنفاق إلى النصف"، قالها بنبرة تشبه النبرة التي قد يستعملها لطلب كوب حليب.

تبع ذلك تهامس وجيز بين الملك سعود وعيد بن سالم. بعدما فرغا، نهض الشيخ يوسف ياسين والشيخ جمال بك الحسيني عن الأرض، وأشّر علينا الملك بالانصراف في إيماءة خفيفة من رأسه وحركة أشبه بالمباركة. فيما انحنيتُ قليلاً وتراجعتُ الخطوات الخمس، نظر إليّ بسرعة وابتسم ابتسامة تبدّت عن خجلٍ على وجهه الذي اتّخذ هيئة الحزن فجأة. استدرتُ ورحلت.

كان عيد بن سالم ينتظرني في الردهة. مدّ لي بورقة وقال: "هذه لائحة بالمتاجر التي ستبتاع منها مؤن القصر من الآن فصاعداً". اكتشفتُ لاحقاً أنّ كلّ تلك المتاجر كانت ملكاً لمستشاري الملك أو لأفراد من عائلاتهم.

بعد ظهر ذاك اليوم، استدعيتُ طاقم عمل المطبخ كاملاً لأبلغهم بأوامر الملك. دُهشوا وكأنّ صاعقة أصابتهم. كان الكثر من بينهم لم يتقاض أجره عن الأشهر الثلاثة الماضية، وكانوا يرتقبون زيادة على الأجر. بعد لحظة من الصمت المصعوق، اندلعت ثورة من الاحتجاجات الصارخة. استهلّ النُدُل الكلام مُعلنين استنكارهم لأي تخفيض في الأجور، وسرعان ما تبعهم باقي الرجال.

كان من المستحيل أن يُضرِب موظّفو الملك، مع هذا، بدا أنّ الإضراب سيعرف ولادته في القصر الملكي بذاته. كانت النتيجة الحتميّة ستؤول بالرجال إلى عقوبات حبس، وجَلدٍ، وترحيل. حاولتُ تذكيرهم بالعواقب. وتعاطفتُ معهم، لكنّي عرفتُ أنّ مقاربتهم ستزيد الأمور سوءًا.

صرخ أحد النُدُل الإثيوبيين: "نحن على عِلم بالعقاب الذي سينزل بنا. لكن لا بُدّ لنا من المحاولة". وإذْ راح شركاؤه الهائجون يهتفون له تشجيعاً، صعد على كرسي وتابع: "لقد خدمنا جميعاً صاحب الجلالة بوفاء. بعضنا في خدمته منذ أكثر من عشر سنين. نحن نقضي ليالٍ كثيرة في برد الصحراء من أجله، ونتصبّب عرقاً في أيام الحرّ الكثيرة من دون أن نشتكي. انتظرنا بصبر أشهر عديدة كي نتقاضى أجرنا فيما عانت عائلاتنا في الديار من شحّ المال. لكن طالما آمنّا بأننّا سنلقى معاملة منصفة. نحن نعلم أنّ لا ذنب لجلالته في ذلك. هو لا يعلم كيف يُنفَق ماله. لكن لمَ علينا أن نخضع للعقاب في حين أنّ *أصدقاءه* هم من يستحوذون على المال كلّه؟ هم يريدون خفض ٢٠ في المئة من أجورنا. لمَ؟ هل يتوقّعون ادّخار الكثير من المال بهذه الطريقة بما يضمن بقاء الخزينة ملأى؟ يا لها من مزحة لا تنطلي علينا. هم يوفّرون بضع نقود على حساب أجورنا ويُنفقون ملايين الدولارات على قصور جديدة للأمراء أو مستشاري صاحب الجلالة. حتّى الكتّاب في القصر يحصدون رواتب عالية وقللاً خاصّة. أما أولئك الذي يكدّون أنفسهم بالكثير، فيحصدون القليل. فليضربونا؛ فليرحّلونا. لن نقبل بالمزيد من الغشّ!".

كانت المرّة الأولى التي يعُبّر فيها عن مثل هذه الأفكار الثورويّة في القصر ما لم تكن بالهمس فقط. انذهل الجميع، بما فيهم أنا، لفصاحة الإثيوبّي الصائبة. كانت دقّة تحليله للوضع دقّة لا تقبل الشكّ. بدا طاقم عمل المطبخ وكأنّهم على وشك إعلان الحرب على الحكومة لشدّة ما ألهمتهم تلك الخطبة الموجَزة. ولكي أتدارك مزيداً من المشكلات، وعدتهم بطلب مقابلة خاصّة مع الملك سعود للتظلّم لديه. استأنفوا أشغالهم على مضض، وحلّ الهدوء في القصر، مؤقّتاً.

كان الوضع مُزعجاً بالنسبة إليّ. علمتُ أنّ طاقم العمل لديّ يلقى معاملة مُجحفة، وعلمتُ أنّ الملك سعود كان يتعرّض لاحتيال مستشاريه. لكنّي أدركتُ أنّني عاجز بكلّ ما للكلمة من معنى في وجه التأثير التامّ الذي تمتّع به المستشارون الملكيّون ولا يسعني بالتالي فعل أيّ شيء لمساعدة طاقم العمل أو الملك.

حصلتُ على الإذن بالتحدّث إلى الملك سعود في اليوم التالي. مَثَلتُ أمام الملك شارحاً له ما جرى عندما أخطرتُ طاقم العمل بالسياسة الجديدة. وعندما أعلمته أنّ النُدُل لم يتقاضوا أجرهم منذ عدّة أشهر، رمقني بنظرة ساخرة.

سأل: "ولِمَ ذلك؟".

شرحتُ: "أخبرهم مأمور صرف الأجور أنّه ما من مال".

رفع الملك الهاتف من على الطاولة إلى جانب عرشه، وطلب مأمور صرف الأجور. تحدّث بسرعة وانفعال للحظة ثمّ أعاد الهاتف بحدّة إلى مكانه على الطاولة ليلتفت إليّ من جديد.

تابعتُ: "أخطرتُ النُدُل والطهاة بأمر صرفهم. لكن لا بُدَّ لي من إعلامكن بأنّنا لن نقتدر على الإعداد لأيّ ولائم ضخمة وخدمتها". أعلمته كذلك بأنّ طلبيات الأطعمة من الولايات المتّحدة قد أُلغيت وأنّ أوامره الأخرى قيد التنفيذ لدرجة أنّ الموظّفين الهنود الذين كانوا مسؤولين حصراً عن تنظيف دورات المياه في القصر كانوا يُنقلون إلى الظهران للعمل لدى أرامكو.

أصغى الملك بانتباه، هازاً رأسه دليل موافقة. عندما أنهيتُ تقريري، سأل: "وسنخفّض بالتالي الكثير من نفقات قصرنا؟".

"لم يتسنَّ لي بعد التحقّق من الأسعار في المتاجر المحلّية التي قيل لي أن أبتاع منها مؤننا، لذا لا أدري ما سيكون مقدار التوفير من هذه الناحية. وأخشى أنّ اقتطاع أجور طاقم العمل لديّ لن يحصد إلاّ القليل من المال، وكما قلت، سيكون النقص في الخَدَم مشكلة كبيرة في المناسبات الخاصّة".

اقترح: "إذاً، عليك ان توظّف يداً عاملة أرخص من الهند".

"يا صاحب الجلالة، سيُكلّفنا استقدام موظّفين من الهند أكثر ممّا ننفق الآن. لن يقبل أيّ هندي بالعمل هنا لقاء الأجر الذي يتلقّاه النُدُل الإثيوبيين. في الواقع، يا صاحب الجلالة، كُنت متأمّلاً أن نزيد على أجورهم بدل الاقتطاع منها لأنّهم خدموا جلالتكم خير خدمة".

"هذا صحيح، لكن الآن، علينا جميعاً أن نعمل معاً لننهض بالاقتصاد. خزينتنا مدينة. لا أدري كيف حصل ذلك، لكنّي أُعلمتُ أنّه حصل، وعلينا الخفض من نفقاتنا. أعلم طاقم العمل لديك مجدّداً بهذه الضرورة. وإن كان أيّ منهم غير راضٍ عن الظروف، فسنرتّب أمر إعادته إلى دياره. وسأتدبّر أمر أن يتلقّى الكلّ أجره غير المسدّد".

فُتح باب مكتب الملك ودخله مأمور صرف الأجور على مهل متّجهاً نحو الملك سعود. حدّثه الملك بقساوة، ثمّ نهض بحدّة ليهمّ في المغادرة. وثب حرّاسه الشخصيون لمرافقته. تنحّيتُ عن الدرب، وعندما بلغني الملك في طريق خروجه، توقّف للحظة ووضع يده على كتفي. هزّ رأسه مُفكّراً وقال بلطف: "الله يعافيك يا سويسرينا". تردّد في مشيته ثمّ خرج من الباب ببطء ومنه إلى الردهة، مَحني الرأس.

فيما شاهدتُ الملك سعود مغادراً، شعرت بالأسى الشديد تجاهه - حاكم مُطلق على الملايين وفي الوقت نفسه عبد الغدر الذي قابله به من وثق باستشارتهم.

عُدتُ إلى مكتبي وطلبت إلى سعد أن يدعو طاقم عمل المطبخ لاجتماع. تأسّفت كلّ الأسف على الأخابر التي كنت أحملها لهم، لكن لم يكن في وسعي تغيير الظروف. أعلمتهم بحديثي إلى الملك، ولم يتبع ذلك سوى صمتٍ مكدّر. وحلّ محلّ جيشان الأمس الغاضب نوعٌ من الاستسلام اليائس. انضمّ اثنا عشر نادلاً إلى الناطق بإسمهم، وطلبوا العودة إلى ديارهم. أمّا الطهاة والنُدُل الذين أعلمتهم البارحة بأمر صرفهم، كانوا قد رتّبوا مغادرتهم ولم يشاؤوا المكوث في الرياض أكثر بعد. حصلوا جميعاً على أجورهم المتأخّرة وكذلك بدل نقل ورحلوا في غضون أسبوع.

سرّح عيد بن سالم مأمور صرف الأجور من الخدمة، ونصّب مكانه أحد مرؤوسيه. لم يكن المأمور، بمنصبه الوظيفي الثانوي، مسؤولاً عن الافتقار إلى المال وتسديد أجور طاقم عمل المطبخ في أوقاتها، لكن كان لا بُدّ من معاقبة أحد.

أثقل السخطُ على جوّ القصر. وبعدما سُلبت الخزينة، لم يبقَ فيها من غنائم للاقتسام، وانقلب الواحد من جماعة القصر على الآخر بشكل مفضوح أكثر. وبقلب متفطّر، عانى الباقون من طاقم العمل لديّ من الخدمة الشكليّة بعد أن أحبطتهم المعاملة التي تلقّوها.

وكان في ظلّ تلك الظروف أن رافقتُ الملك سعود إلى المنطقة الشرقية في ربيع عام ١٩٦٠، وقرّرتُ حينها أنّ وقت التغيير قد حان.

فيما صرفتُ معظم وقت فراغي في أثناء الزيارة إلى المنطقة الشرقيّة في التخالط الاجتماعي مع أصدقاء لي في الظهران، انتابني القلق إزاء التحدّث إلى رئيس دائرة الخدمات الحكوميّة الذي شجّعني في البدء على الانضمام إلى الفريق العامل لدى الملك سعود قبل خمس سنين. مُذّاك، اقتصر الرابط بيننا على أحد اتّصالاتي الهاتفيّة الجنونيّة من الرياض أو جدّة، التماساً إلى المساعدة الطارئة من أرامكو للتزوّد بالمؤن لعمليّات قصر الملك سعود. ومع أنّنا عرفنا أحياناً تضارباً في الآراء شهّر فيه واحدنا الآخر، بسبب اختلافنا حول أمور من مثل ضرورة توصيل شحنة طارئة من خلطة مسحوقة أساسيّة للمثلّجات عبر قطار خاصّ أو طائرة خاصّة، حافظنا بما يُثير الدّهشة على علاقة وديّة على مدى إحباطات السنين الخمس المؤخّرة.

"أرى أنّك خسرت بعض الشعر يا هوسيه، لكّنك لا تزال تحتفظ برأسك". كانت تلك ملاحظته الدائمة لي كلّما التقينا. قال: "ما جديد الهد اليمنى للملك سعود؟".

كنتُ قد ارتكبتُ الخطأ الفادح ذات مرّة في الإشارة إلى منصبي بذاك التعبير التلطيفي بالنظر إلى مكانتي إلى يمين الملك في قاعة الولائم. واعتمده رئيس دائرة الخدمات الحكوميّة بوتيرة متكرّرة متوقّعة.

"وأرى أنّك لا تزال هزلياً بقدر حجرٍ. لكن لا وقت لديّ للملاحظات البغيضة. في بالي أمور أهمّ تشغلني".

"ما الخطب الآن؟"، سألني مُضيفاً بسرعة: "لا تقلق، أنا أعرف! أصاب الإسهال الطهاة لديك من جديد، وقد نفد مخزونهم الشهري من مناديل الحمّام الورقيّة، ولن يُمَدّوا بمخزون إضافي قبل عشرة أيام".

كان يشير إلى حادثٍ حصل منذ عدّة أشهر وشهد على أشدّ خلافاتي مع دائرة الخدمات الحكوميّة. أُصيب اثنان من الطهاة الإيطاليين لديّ بإسهال حادّ ونفد مخزونهما من مناديل الحمّام الورقيّة التي كانت أرامكو توفّرها لهما بما أنّ القصر استقدمهما اقتراضاً من الشركة.

عندما أعلماني بشدّتهما، اتّصلتُ بالظهران طلباً لمخزون جديد فوري. أعطيتُ الأمر إلى أحد الموظّفين المكتبيين في الخدمات الحكوميّة، وبعد عدّة أيام تلقّيتُ رسالة رسميّة على ورق شبه شفّاف، بدلاً من المناديل الورقيّة، يُلفت فيها انتباهي إلى سياسة الشركة بخصوص مخزون مناديل الحمّام الورقيّة للموظّفين الإيطاليين. وإذ جاءت الرسالة على ذكر كُتيّب السياسة، خلصت إلى أنّ الطاهيَين قد استنفدا مخزونهما من اللفافتين المخصّصتين بحسب المخزون وأنّهما لن يحصلا على مخزون جديد قبل نهاية الشهر، موعد استحقاق المخزون. جاء في الرسالة: "لتفادي هذا النوع من المشكلات في المستقبل، عليك تذكير موظّفيك بأنّ هذا يُشكّل استهلاكاً مفرطاً لمناديل الحمّام الورقيّة، والتشديد عليهم بأهميّة ترشيد استهلاك مخزونهم". بلغ التبادل اللاحق من اتصالاتٍ هاتفيّة وبرقيّات ورسائل مستوىً سخيفاً من الاتّهامات التهكّميّة قبل أن يحلّ الإيطاليّان مشكلتهما بالتعافي من مرضهما. غير أنّ كُتيّب سياسة الشركة فاز في نهاية المطاف.

قلتُ له: "لا، لدينا طرقنا الخاصّة لمعالجة ذاك الطارىء إن طرأ يوماً من جديد. لقد احتفظتُ بكلّ الرسائل التي أرسلتموها إليّ المرّة الفائتة، وأنا أكيد أنّ رزمة الأوراق هذه ستكون كافية، وإن لم تكن مريحة كثيراً، للاهتمام بأيّ مشكلة من ذاك النوع".

"حسنٌ، إذاً ما الذي يشغل بالك يا هوسيه؟ إن كنتُ تفكّر في طلب زيادة على الراتب، فانسى الأمر. ذلك يتطلّب معاملات لا تنتهي".

"كنت أتمنّى لو لم تكن على هذا القدر من اتّقاد الذهن؛ أخسى أنّني لا أفهم مقصدك على الدوام. تستطيع العويل إزاء مزاعم عجز قطاع النفط الآن أمام غيري، لأنّني لا أريد زيادة. في الواقع، أريد العكس. لذا، أصغ إليّ لدقيقة فقط. لقد مضى على وجودي في خدمة الملك خمس سنين، وبداتُ أفكّر في الأشهر المؤخّرة كم سكوم من الجيّد لي أن أستقيل. أعتقد...".

"لا داعي لأن تُكمل"، قالها مُقاطعاً كلامي، وأردف: "من برأيك سيحلّ محلّك؟ كلّ من أرسلناه بديلاً منك في خلال إجازاتك، عاد بتعليق واحد: يستحيل أن أُعيد الكرّة!".

ذكّرته: "عندما ذهبتُ للعمل لدى الملك، قلتَ لي إنّه عليّ تدريب شخصٍ سعوديّ على عملي. أعتقد أنّ سعد جاهز للحلول محلّي. سبق أن بدأ بالاضّطلاع بمسؤولياتٍ أكبر وأكبر، وهو يتّفق جيداً مع باقي العاملين في الطاقم. لم نتمكّن بعد من تسليم السعوديين كلّ الوظائف لأنّهم غير مهتّمين ببعض الوظائف، لذا أعتقد أنّني وصلتُ إلى أقصى حدّ بمقدوري في ذلك المجال. لكن الأهمّ أنّني، حفاظاً على سلامة عقلي، وصلتُ إلى مرحلة لم أعد أتحمّل فيها ركوب الألعاب الدوّارة في ملاهي الرياض. لقد سبق أن راسلتك حول التقشّف الاقتصادي. هو يتّخذ منحى أسخف وأسخف كلّ يوم. جماعة القصر تبذّر الملايين أما المطبخ، فعليه توفير المال للحفاظ على السيولة الماليّة للحكومة. صدّقني، لا أرغب في البقاء لرؤية كلّ ما بنيته على مدى السنين الخمس الفائتة يتداعى ببساطة. وأخشى من الآتي في حال استمرّ التيّار الحالي على حاله".

"يبدو وكأنّك سبق أن عقدت العزم على الرحيل".

"نعم فعلت".

ثمّ، سأل الرئيس: "هل تحدّثت إلى سعد بهذا الشأن؟".

"ليس بطريقة مباشرة. لكنّه كان يعلم منذ البداية أنّني سأرحل في نهاية المطاف وأنّه سيستلم زمام عمليّات القصر".

"متى تودّ الرحيل؟".

"يُفترض بي العودة إلى الرياض للتحضير لزيارة ضيف سرّي حُدّد موعد وصوله بداية الأسبوع المقبل. وعند انتهاء الزيارة، أودّ الرحيل في أسرع وقت يلائم الشركة لتسريحي. متى اتُّخذ القرار، لا طائل من المماطلة".

"أأنت على استعداد للمكوث بضعة أشهر ريثما تُحيل مسؤوليّاتك إلى سعد ونرى كيف سيسير فيها؟".

"لا مانع، في تلك الأثناء، أعتقد أنّه على مكتبك أن يُخطر الملك رسمياً بهذا التغيير، لأنّني بالأساس ذهبتُ للعمل لديه من خلال هذا المكتب".

"نستطيع تولّي ذلك عبر ممثّل الشركة في الرياض".

وتمّ ذلك.

فيما كُنت أستحضر تلك التطوّرات في أثناء السفر عبر القطار بالعودة إلى الرياض، أملتُ أيضاً أن يحرص الله على ألاّ تشهد الأشهر الأخيرة على أزمة أكبر من سابقاتها في السنين الفائتة.

عندما طلب الملك سعود إليّ أن أستعجل العودة إلى الرياض لإعداد الترتيبات اللازمة لضيفه، لم يُفصح عن هويّة الضيف. كان عيد بن سالم قد حذّرني من إفشاء وجود الضيف في السعوديّة لأيّ امرء. قال لي عايد: "أحضرنا هذا الرجل إلى الرياض لمساعدة صاحب الجلالة. لكن، لا نريد لأيّ امرء أن يعلم بأنّه يعالج جلالته. سيروق لك عندما تلتقيه. هو من سويسرا".

لم أكن على عِلم بأنّ الملك سعود كان في حاجة إلى أيّ عناية طبّية. كان الدكتور كمال وباقي الطاقم الطبّي قد حضروا إلى الرياض لمعالجة الملك علاجاً خاصاً، ولكن لم يثنذر وصولهم عن تدهور صحّة العاهل.

لم يكن مقرّراً إقامة أيّ وليمة خاصّة للضيف الجديد؛ فبدلاً من ذلك، كانت أعشية مصغّرة ستُقام على شرف الضيف. ارتحتُ للتفكير بأنّه على ما يبدو لهذه المرة على الأقلّ لن يكون ثمّة نظام غذائي غريب يقلب المطبخ رأساً على عقب كما كانت الحال مع الزوّار السابقين، بما أنّ الضيف الآن سريّ.

لم يُثِر الضيف العادي المظهر، النحيل والهرم، أيّ اهتمام لدى طاقم العمل لديّ، فقد أتخمهم عدد الزوّار بحيث بات كلّ شخص لا يرقى إلى منصب رئيس وزراء خارجاً عن نطاق اهتمامهم. على ما يبدو أسفرت الجهود المبذولة للإبقاء على سرّية الزيارة عن نجاحها لأنّني لم أسمع ولو شائعة واحدة حوله بين أصحاب الصلاحيّات الكثر في القصر.

فيما تسلّم سعد مسؤولية خدمات القصر ما إن عاد من الدمّام، بدأتُ بالعمليّة المطوّلة لإخلاء خمس سنين من التراكمات في مكتبي. في خضّم انهماكي في فرز الملفّات، ظهر الضيف السرّي عند بابي. قال من مكانه، وقد انعكست المسافة في صوته: "كيف حالك؟".

قلت: "أهلاً. كيف لي أن أساعدك؟".

قال سائلاً: "أخبرني أحد مساعدي الملك أنّك سويسريّ. هل هذا صحيح؟".

"لقد ترعرعتُ في سويسرا، لكنّني مواطن أمريكي منذ تسعة عشر عاماً. أُدعى أرنولد، هوسيه أرنولد".

"تشرّفتُ بمعرفتك سيد أرنولد"، قالها فيما دخل الغرفة وصافحني.

سألتُ: "أنتَ من سويسرا؟".

"ششّشه!"، أطلقها محذّراً على عجلة، وواضعاً سُبابة يده عند شفتيه. ألمح بنظرة خاطفة على الرواق وكأنّه خشي أن يسمعنا أحد. قال همساً: "نعم، بالطبع أنا سويسري. وصلتُ أمس إلى الرياض. أنا هنا لعلاج الملك سعود. الأمر سرّي تماماً كما تعلم"، وأضاف، مواظباً على الهمس: "في العادة لا أغادر سويسرا لعلاج مريض، وأعتقد أنّني لن أعيد الكرّة. كم مضى على وجودك في الرياض؟".

أجبتُ همساً أيضاً: "أنا أعمل لدى الملك منذ خمس سنين. وقبل ذلك، عملتُ مع شركة النفط لستّ سنين".

سأل مستهجناً: "مضى على وجودك في الرياض خمس سنين؟ كيف أمكن لك البقاء لهذه المدّة الطويلة؟ أنا هنا منذ يوم واحد فقط وأتمنّى العودة إلى سويسرا. هنا، لديّ الكثير من المساعدين. ومن بين الكثير، يغار الواحد من الآخر، ويحاول تدميره. من المستحيل لي تقريباً علاج الملك لأنّ الكثيرين يصرّون على الموافقة على عملي أولاً وعلى مساعدتي. لا يسعني العمل في ظلّ ظروف مماثلة. لن أتمكّن من المكوث هنا لأيام عديدة".

قلتُ له: "بدا الأمر غريباً بالنسبة إليّ أيضاً في البداية لأنّني لم أكن على دراية بكلّ الأزمات بين أفراد طاقم العمل في القصر. حطّ ذلك من عزيمتي، لكن عملي أبقاني منشغلاً، لذا لم أضطرّ معظم الوقت إلى التنبّه إلى كلّ المكر الجاري، باستثناء الأوقات التي تعارض فيها مع ما كنت أحاول القيام به. بتلك الطريقة، مرّت السنين بسرعة وكانت دوماً مثيرة للاهتمام".

قال، وهو لا يزال يهمس ويختلس النظر إلى الباب: "لقد كان لديك الوقت لتتعوّد أساليب هؤلاء الناس، لكنّ زبائني بانتظاري في سويسرا، ولا وقت لديّ للمكوث هنا، ولعب ألاعيب مستشاري الملك. لذا عليّ الرحيل قريباً، وإن كان الملك مهتماً بعملي، فبإمكانه المجيء إلى مونترو لتلقّي العلاجات. سيكون مكوثه هناك أفضل له على أيّ حال، حيث سيتمكّن من الابتعاد عن مستشاريه الكُثر. قد أراك من جديد قبل أن أغادر الرياض". نهض فجأة، وهمّ بالخروج سريعاً من الغرفة.

غادر الطبيب الرياض في اليوم التالي، ولم أره بعد ذلك. لكن، بعد مغادرته، مرّ طبيب الملك الخاص بمكتبي ليسألني إن كنتُ قد التقيتُ الطبيب السويسري.

قلتُ: "أتى إلى هنا لبضع دقائق، لكنّه لم يعرّف بنفسه".

"ألا تعلم من هو؟".

أجبتُ: "لا. المختصّون الوحيدون الذين يتسنّى لي تعرّفهم هم أصحاب الأنظمة الغذائيّة الجديدة".

قال: "إنّه الدكتور نيهانس العظيم"، وقد أشارت نبرة صوته إلى الكثير من التهكّم.

سألتُ: "ومن هو الدكتور نيهانس العظيم؟ ولأيّ سبب يعالج الملك على أيّ حال، فهو لا يبدو مريضاً".

"أنت بالفعل لا تعرف من هو إذاً".

"وهل يجدر بي ذلك؟ لمجرّد أنّني من سويسرا؟".

"هو من طوّر مصلاً يُجدّد شباب الكبار في السنّ".

"واحدٌ آخر؟".

"لكن لهذا الواحد زبائن مشاهير. سمع مستشارو الملك عنه وطلبوا إليه المجيء إلى الرياض لإعطاء الملك حقناً. لكنّ شكّل ذلك إحراجاً لهم جميعاً. يكره الملك سعود الحقن وعندما علم

بطبيعة العلاجات، أبى الخضوع لها. خشي المستشارون الذين رتّبوا استقدام الطبيب أن يغضب منهم الملك. لذا، سُرَّ الجميع جداً عندما رحل".

من الواضح أن "الجميع" اشتملت على طبيب القصر.

كان آخر مشاريعي إعداد جردة بموجودات غرف التخزين في القصر لكي أترك لسعد سِجلاّت دقيقة عن المؤن المتوافرة. عندما بدأ تنفيذ سياسة التقشّف الاقتصادي، كان لدينا مخزون من الأطعمة المستوردة يكفي لما يزيد عن عام، وفيما شرعتُ في إحصاء الجردة، كان معظم ذاك المخزون لا يزال في غرف التخزين. في قسم الرفوف التي افترض أن تحوي الأطعمة الخاصّة، وجدتُ أنّ كامل مخزون الكافيار وكبد البطّ المسمّن، كان ناقصاً. بما أنّنا كنّا قد تسلّمنا شحنة من هذين النوعين بقيمة ما يفوق عشرة آلاف دولار منذ بضعة أسابيع فقط، عرفتُ أنّ مجرّد كميّة بسيطة منهما قد استُعملت في القصر. لاحظ العامل من المطبخ الذي كان يساعدني في الجردة اندهاشي، فغمزني قائلاً بتكتّم إنّ الكثير من مؤن المطبخ كانت تُباع في المتاجر في الرياض.

تركتُ الجردة، وقمتُ بجولة على لائحة متاجر الأطعمة التي زوّدني بها عيد بن سالم كدليل لشراء مؤن القصر. في أحد المتاجر، الذي سُمّي بما يناسب بـ "متجر التاج"، وجدت نوعَي الكافيار وكبد البطّ المسمّن ذاتهما اللذين سُلّما إلى القصر. كان المرطبان الصغير يُباع بأربعة دولارات أمريكيّة. ألمحتُ للموظّف في المتجر أنّ غرف التخزين في القصر هي مصدر هذه المواد، وأكّد لي أنّ عدّة متاجر كانت توفّر بانتظام سلعاً للبيع من مؤن القصر.

عندما عُدت إلى القصر، أخبرت سعد بما عرفت، وقال إنّه سيحاول تقصّي أمر بلوغ المؤن إلى "متجر التاج". مرّت عدّة أيام ولم يُذكر شيء جديد حول الحادثة. أخيراً، سألتُ سعد إن كان قد علم بأي مستجدّات حول المؤن. بدا متردّداً في التناقش حول الموضوع وحصر إجابته بالقول إنّه ليس بالمستطاع فعل شيء إزاء الوضع.

قلتُ لسعد: "ما دمت تعرف سبب حدوث ذلك، لمَ لا يُمكن فعل شيء حياله؟".

"ريّس، أنت لا تعي الظروف".

"أعي أنّ أحدٌ يسرق مؤناً من الملك تساوي آلاف الدولارات ويبيعها في السوق. هل هو أحد العمّال من غرف التخزين؟".

"لا، هم لا يأخذون أيّ شيء. هم يخشون ما قد يحدث لهم إن ضُبطوا وهم يسرقون".

"من هو إذاً!؟".

"ريّس، أتعلم من يملك "متجر التاج"؟".

"قال لي الموظّف هناك إسماً ما لكنّي لم أعرف من هو".

"المالك هو أحد أكثر مستشاري الملك موثوقيّة، ويدير أحد أنسبائه المتجر".

"لكن كيف يسرقون المؤن؟".

"الأمر سهل. يُرسلون أحد خدم ذاك المستشار إلى غرف التخزين في غيابنا، ويطلب الخادم المؤن لمنزل سيّده الخاص. لا يجرؤ العاملون في غرف التخزين على رفض طلب مماثل من شخص على هذا القدر من الأهمّية. ريّس، لا يمكن لك أن تتجّه إلى الملك الآن وترفع اتّهاماً. من برأيك سيُصَدَّق؟ أنتَ أم صديق الملك؟ ولن تحصل على أيّ دعم من المستشارين الباقين. هم منخرطون في الأمور ذاتها، وعليهم حماية أنفسهم. لذا يحمي واحدهم الآخر. أنت تعي الآن يا ريّس أنّه ليس بالمستطاع فعل شيء".

هزّ كتفيه في حركة استسلاميّة ورحل، بطيء الخطى.

يا ربّ السماوات! جاء الأمر "شحمة على فطيرة"! تبدّد فجأة أسفي على ترك الخدمة لدى الملك في نوعٍ من الارتياح لرحيلي المرتقب. لكن، من جديد، شعرتُ بالتعاطف إزاء الحاكم الذي كان يسير ببراءة جاهلة لما يحدث نحو الدمار الاقتصادي.

ثمّ، ظهر المال على غفلة ثانيةً. بلَغَ من الشائعات المتداولة أنّ الملك كان قد تدبّر الحصول على سلفة من أرامكو لقاء إتاوات. لكنّ مصدر المال لم يكن مهماً لأنّ النشاط الإنفاقي المسعور عاد من جديد.

بدأ العمل على مطعم خارجيّ جديد في حديقة الفناء التابع للحريم، كان مقرّراً أن يكون نسخة مطابقة لمطعم في باد ناوهايم ارتادته حاشية الملك في أثناء الرحلة إلى ألمانيا عام ١٩٥٩، وأن يحوي شرفة مزجّجة واسعة بما يكفي لاستيعاب مئتي شخص. كان البناء سيكلّف نصف مليون دولار أمريكي.

وتلته إنفاقات هائلة مذهلة. تلقّى الأمير مبارك البالغ من العمر ١٢ سنة، قصراً فخماً يساوي مليون دولار أمريكي كهدية زواج. زُيّنت جدارن المجلس في القصر الجديد بإسراف ببُسط نجود "غوبلان" الباهظة من باريس. تدلّت ثُريّات من الكريستال الثقيل من سقف الردهات، وقاعة الولائم، والشُرفة المسقوفة المزجّجة. وانسدلت ستائر حريريّة غير اعتياديّة في طيّات ضخمة من لوحات رأسيّة من خشب الماهوغاني في غرفة النوم الرئيسة. وُزّعت في أرجاء القصر مقاعد مريحة على بُسط ثمينة افترشت الأرض الرخاميّة. وأضافت الزهريّات الفضّية والصوّانات من خشب التيك المطعّمة باللؤلؤ والطاولات من خشب الماهاغوني إلى ترف القصر ذي الغرف الخمسين. عند أقصى غرفة الاستقبال الضخمة، عُلّقت في السقف العالي أرجوحتان لتسلية شاغلي القصر الصغار. وحدّت جانبي غرفة الاستقبال سلال زهر من الحديد المطاوع. لم يعرف أيّ من جماعة القصر ما غرض السلال وتقرّر أخيراً أنّها مهود لأطفال القصر.

ليلة عرس الملك، اندلع حريق في القصر. أدّى عيب في توصيل الأسلاك الكهربائيّة في مصابيح النيون فوق ستارة السرير في غرفة النوم الرئيسة إلى عطل في دارة التيّار القصير، فأحدثت ناراً أشعلت القصر. عمل الإطفائيّون والكهربائيّون والعمّال كلّ الليل لإخماد الحريق، وإصلاح التوصيل الكهربائي، وتنظيف الركام. كان لا بُدّ من التسلل إلى قصر الحريم وأخذ بُسط وأثاث جديدة لوضعها مكان ما تأكلته النيران ودمّره الماء. لكنّ تم إصلاح كلّ شيء مع طلوع الصباح من دون أن يعلم الملك سعود بأمر الحريق الذي كلف مئة ألف دولارٍ أمريكي.

جرى العرس في احتفالات فاخرة وأبّهة عظيمة، بما فيه إطلاق ألعاب ناريّة بقيمة عشرة آلاف دولار أمريكي، الممنوعة رسمياً في البلاد. في تلك الأثناء، كنّا لا نزال معتمدين سياسة الادّخار في المطبخ عبر خفض الأجور.

ترك عمل سعد مع طاقم عمل القصر انطباعاً فائقاً لدى الموظّفين في دائرة الخدمات الحكوميّة لدى أرامكو. تلقّيتُ رسالة من الظهران تعبّر عن رضى الشركة إزاء التبديل وتشير إلى الترتيبات التي ستُتّخذ من أجلي مغادرتي متى أكون مستعداً. أكّدت لي أرامكو أنّ نسخة من الرسالة قد وُجّهت إلى عيد بن سالم، تُعلم فيها الحكومة رسمياً بخطط رحيلي.

في الأسبوع الأخير قبل الموعد المقرّر لمغادرتي الرياض، انتظرتُ أن يقول الملك سعود شيئاً حول رحيلي في قاعة الولائم. لكنّه لم يُبدِ ما يدلّ على أنّه على علم برحيلي الوشيك. تساءلتُ إن كنتُ، بعد خمس سنين من العلاقة الوديّة، قد أهنتُ جانبه.

أخيراً، في اليوم السابق لسفري جواً إلى الظهران، تقدّمت نحو الملك فيما كان على وشك مغادرة قاعة الولائم وقلتُ: "أودّ أن أتحدّث إليكم لبضع دقائق يا صاحب الجلالة، وآمل أن تتمكّنوا من منحي جلسة موجزة معكم في الغد".

قال بلطفٍ: "أنا ذاهب الآن إلى الصحراء للتأمّل على انفراد. بوسعنا التحادث الآن. لكنّي على ثقة بأنّك إن تكلّمت مع الشيخ عيد، سيتدبّر لقاءنا لبرهة. لذا، سأتحدّث إليك في الغد إن شاء الله".

سألتُ عيد بن سالم متى يسعني التحدّث إلى الملك في اليوم التالي، فقال لي أن أتحدّث إلى مسؤول التشريفات لأحدّد موعداً. عندما أعلمتُ مسؤول التشريفات أنّني سأجلس إلى حضرة الملك سعود في اليوم التالي، نظر إليّ للحظة وكأنّه تفاجأ ثمّ سأل: "لمَ ترغب في مقابلة صاحب الجلالة؟".

"بما أنّني راحل في الغد، أودّ أن أودّعه".

قال، متفادياً النظر إلى عينيّ: "إن كنت راحلاً، عليكَ إذًا أن تطلب إلى أرامكو تدبير لقائك بجلالته، بما أنّ أرامكو من دبّرت انضمامك إلى العاملين لديه".

قلتُ مغتاظاً: "إسمع! الكلّ على علم بأنّني راحل، وكلّ ما أريده هو مقابلة صاحب الجلالة لأعبّر له عن مدى سروري بفرصة العمل كفرد من طاقم القصر. أنا واثق أنّك تستطيع تدبُر ذلك من أجلي".

"حسنٌ، يا سيد أرنولد، إن كنتَ ترغب في مقابلة الملك غداً، سأعمد إلى استدعائك بُعيد الغداء مباشرةً، قبل أن يغادر جلالته قاعة الولائم".

بدا الإحراج والانزعاج على كلّ من عيد ومسؤول التشريفات عندما قلتُ لهما إنّني أريد وداع الملك سعود. لكنّ تدجيلهما ليس بالأمر الجديد في القصر.

في اليوم التالي، أقام طاقم العمل لديّ حفلة وداع لي في قاعة الولائم الرئيسيّة في قصر الاستقبال بالناصريّة. تأثّرت حتّى الصميم بتعبيرهم الصادق عن تقديرهم لجهودي تجاههم، وتمكّنتُ من الحفاظ على رباطة جأشي إلى أن تقدّم منّي رئيس النُدُل الإثيوبي وقدّم لي إحدى الأوسمة التي كان الإمبراطور سيلاسي قد وهبها لطاقم العمل.

عند وجبة الغداء، الذي كان في قاعة الولائم الصغرى، حدّقتُ إلى الملك سعود من مكاني المعتاد إلى يمينه. لم يُبدِ حتى اللحظة ما يدلّ ظاهرياً على أنّه على علم برحيلي الوشيك. كانت مجموعة من الدبلوماسيين الأجانب يُشاركونه في الغداء. كان مسؤول التشريفات جالساً في الطرف الأقصى من المائدة. أومأ لي برأسه إشارةً إلى استعداده لمقاربتي بالملك رسمياً لدى نهوضه عن المائدة.

في نهاية الوجبة، وضع الملك سعود منديله جانباً، وألمح إلى ضيوفه ليرى إن كانوا قد فرغوا من تناول الطعام، ونهض. سحبتُ كرسيه من خلفه، وأسرع مسؤول التشريفات إلى جانبي وتحدّث إلى الملك.

"يا صاحب الجلالة، يودّ الشيخ يوسف أن يعلمكم برحيله".

ابتسم الملك سعود ومدّ يده لي. فيما تصافحنا، قال: "عسى الله أن يكون معك. استرح يا بُني، وعُد سريعاً بعد انتهاء إجازتك".

كُنتُ قد خطّطت بتأنٍ لما أردتُ قوله للملك لكنّي نسيتُ كلّ شيء لردّه المفاجىء. قُلت على عجلة لشدّة ارتباكي: "لكن يا صاحب الجلالة، إنّني أترك العمل لديكم. لن أعود".

قال الملك مستنكراً: "لن تعود؟ لمَ؟ ما الذي حصل؟ من سيحلّ محلّك؟ لمَ لم يتمّ إعلامي؟".

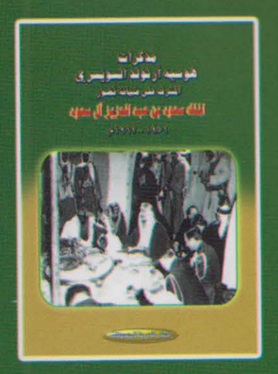
أشّر مسؤول التشريفات بحركات فارغة وهزّ كتفيه عبثاً. فيما شرع يقدّم شروحات، دفع به الملك سعود جانباً وغادر القاعة مسرعاً، متّخذاً السلالم الرخاميّة، فالباحة. أسرع حرسه الشخصيون عقبه. لحقتُ بهم إلى ساحة القصر الأماميّة، وراقبتهم فيما فتح الحرس البوّابة الخشبيّة إلى حديقة قصر الحريم. دخل الملك الحديقة، وتأرجح مصراعاً البوّابة خلفه بضجيج شديد. الوداع، قلتها لباحة مقفرة بدلاً من الملك سعود.

فيما استدرتُ عائداً إلى قاعة الولائم، أسرع سكرتير الملك إلى جانبي وأمسك بيدي. قال: "صاحب الجلالة مستاء جداً يا شيخ يوسف. لا تحزن لما حصل. لقد كان تفاجؤ جلالته كبيراً عندما أعلمته برحيلك. لم أره يوماً يترك ضيوفه كما فعل الآن، لم يكن مستعداً لوداعك له. سيشتاق صاحب الجلالة إليك يا شيخ يوسف. وسنشتاق نحن إليك أيضاً. ستبدّل رأيك إن شاء الله وتعود إلينا".

حضر النُدُل لوداعي مجدّداً قبل أن يتّخذوا أرض قاعة الولائم مقاعد لهم لتناول الغداء. عُدتُ إلى مكتبي، ماراً عبر المطبخ حيث الطهاة والعمّال لوّحوا لي الوداع بمناديلهم ومرايلهم.

أخذ سائقي حقيبة يدي وحقائب أمتعتي ونزل إلى السيّارة. وقفتُ وحيداً في مكتبي. جُلتُ الغرفة بنظري، غرفة امتلأت بذكرياتٍ من سنواتٍ خمسٍ. أطفأتُ نورُ الثريّا الكريستاليّة، وتبعني وقع خطواتي على الأرض الرخاميّة فيما استعجلتُ سيري عبر الرواق، إلى البهو الرخامي الأعمدة، فالسلالم العريضة ومنها إلى السيّارة.

* * * * * * * *



مذكرات هوسيه أرنولد السويسري المشرف على ضيافة قصور الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود

- مذكرات تغطي الحقبة التي أشرف في خلالها على خدمات الضيافة في قصور الملك سعود.
- أوراق تكشف في أكثر من عنوان وفقرة عن حقيقة كثيرين من رجال الحاشية الملكية وطواقم العاملين في قصور الملك سعود، وتظهر مدى استغلالهم للملك المنشغل في أمور مملكته الفتيَة وفي إرساء حكم آل سعود، وفي تكوين شبكة علاقات مع بعض الدول العربية والغربية، وفتح المملكة على العالم.
- مذكرات تروي الأحداث بمصداقية وشفافية بعيداً من أي تزلف أو تصنّع، فكاتبها لا غاية شخصية له، ولم يكن في عداد المتكسّبين المزيّفين...
- قصة تحكي جوانب من حياة ملك، وحكاية سنوات من عمر مملكته، وحكاية لا يعرفها ولا يرويها سوى من عاشها بأدقّ تفاصيلها وعلى مرّ بضع سنوات من دون انقطاع.


ISBN 978-614-424-223-0